

الجامعة الإسلامية العالمية
قَسَمُ الشُّعُورِ وَالْفِكْرِ وَالثَّقَافَةِ
مَعْهَدُ تَرَاثِ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ لِلدِّرَاسَاتِ الْحُزُونَةِ الْإِلَكْتُرُونِيَّةِ
الْمُسَاهِجِ الْبَحْثِيَّةِ

حُرُوفٌ مِنْهُمْ جَبَرَتْ فِي شَيْخِ عَقَائِدِ الْإِسْلَامِيَّةِ

لِلشَّيْخِ مُحَمَّدٍ رِضَا الْمَظْفَرِ

١٣٢٢-١٣٨٣ هـ

١٩٠٤-١٩٦٤ م

الجزء الثالث

لِلشَّيْخِ أَحْمَدَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْإِسْهَاقِيِّ



قسم الشؤون الفكرية والثقافية

www.alkafeel.net

info@alkafeel.net

nashra@alkafeel.net

كربلاء المقدسة

ص.ب (٢٢٣)

هاتف: ٢٢٢٦٠٠٠، داخلي: ١٦٣-١٧٥

الكتاب: دروس منهجية في شرح عقائد الإمامية.

تأليف: الشيخ حسين عبد الرضا الأسدي.

الناشر: قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العباسية المقدسة، معهد تراث الأنبياء للدراسات

الحوزوية الإلكترونية.

الاخراج الطباعي: علاء سعيد الاسدي، محمد قاسم النصراوي.

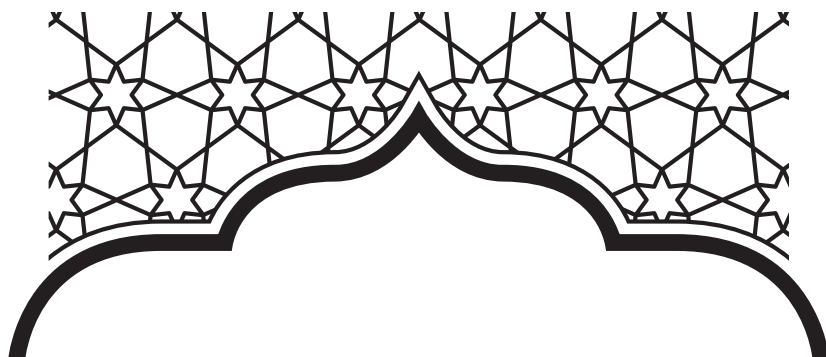
المطبعة: دار الكفيل للطباعة والنشر.

الطبعة: الأولى.

عدد النسخ: ٥٠٠.

ربيع الآخر ١٤٤٢ هـ - تشرين الثاني ٢٠٢٠ م





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



عقيدتنا في التقية

قال الشيخ المظفر رحمته الله:

«عقيدتنا في التقية:

روي عن صادق آل البيت عليه السلام في الأثر الصحيح: «التقية ديني ودين آبائي» و«من لا تقية له لا دين له».

وكذلك هي، لقد كانت شعاراً لآل البيت عليهم السلام، دفعاً للضرر عنهم وعن أتباعهم وحقناً لدمائهم، واستصلاحاً لحال المسلمين وجمعاً لكلمتهم، ولما لشعثهم. وما زالت سمة تُعرفُ بها الإمامية دون غيرها من الطوائف والأمم، وكُلُّ إنسانٍ إذا أحسَّ بالخطر على نفسه أو ماله بسبب نشر مُعتقده أو التظاهر به لا بُدَّ أن يتكتم ويتقي في مواضع الخطر.

وهذا أمرٌ تقضيه فطرةُ العقول، ومن المعلوم أنَّ الإمامية وأئمتهم لا قوا من ضرر وب المحن وصنوف الضيق على حرياتهم في جميع العهود ما لم تلاقه أية طائفةٍ أو أمةٍ أخرى، فاضطروا في أكثر عهودهم إلى استعمال التقية بمكاتمة المخالفين لهم وترك مُظاهرتهم وستر اعتقاداتهم وأعمالهم المُختصة بهم عنهم، لما كان يعقب ذلك من الضرر في الدين والدنيا؛ ولهذا السبب امتازوا (بالتقية) وعرفوا بها دون سواهم.

وللتقية أحكامٌ من حيث وجوبها وعدم وجوبها بحسب اختلاف مواقع خوف الضرر المذكورة في أبوابها في كتب العلماء الفقهية.

وليس هي بواجبة على كُلِّ حال، بل قد يجوز أو يجب خلافها في بعض الأحوال كما إذا كان في إظهار الحق، والتظاهر به نصرَةً للدين وخدمةً للإسلام، وجهاد في سبيله، فإنه عند ذلك يستهان بالأموال ولا تعز النفوس.

وقد تحرم التقية في الأعمال التي تستوجب قتل النفوس المحترمة أو رواجاً للباطل، أو فساداً في الدين، أو ضرراً بالغاً على المسلمين بإضلالهم أو إفشاء الظلم والجور فيهم. وعلى كُلِّ حال ليس معنى التقية عند الإمامية أنها تجعل منهم جمعية سرية لغاية الهدم والتخريب، كما يُريد أن يصورها بعض أعدائهم غير المتورعين في إدراك الأمور على وجهها، ولا يكلفون أنفسهم فهم الرأي الصحيح عندنا.

كما أنه ليس معناها أنها تجعل الدين وأحكامه سراً من الأسرار لا يجوز أن يُذاع لمن لا يدين به، كيف وكتب الإمامية ومؤلفاتهم فيما يخصُّ الفقه والأحكام ومباحث الكلام والمعتقدات قد ملأت الخافقين وتجاوزت الحد الذي يُنتظر من أية أمة تدينُ بدينها.

بلى! إن عقيدتنا في التقية قد استغلها من أراد التشنيع على الإمامية، فجعلوها من جملة المطاعن فيهم، وكأنهم كان لا يشفى غليلهم إلا أن تُقدَّم رقابهم إلى السيوف لاستئصالهم عن آخرهم في تلك العصور التي يكفي فيها أن يُقال هذا رجلٌ شيعيٌّ لئلاقي حتفه على يد أعداء آل البيت من الأمويين والعباسيين، بله العثمانيين.

وإذا كان طعن من أراد أن يطعن يستند إلى زعم عدم مشروعيتها من ناحية دينية، فإننا نقول له:

أولاً: أننا متبعون لأئمتنا عليهم السلام ونحن نهتدي بهداهم، وهم أمرونا بها وفرضوها علينا وقت الحاجة، وهي عندهم من الدين وقد سمعت قول الصادق عليه السلام: «من لا تقية له لا دين له».

وثانياً: قد ورد تشريعها في نفس القرآن الكريم ذلك قوله ﷺ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾، وقد نزلت هذه الآية في عمار بن ياسر الذي التجأ إلى التظاهر بالكفر خوفاً من أعداء الإسلام، وقوله ﷺ: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾، وقوله ﷺ: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾. انتهى.

ولتوضيح هذه العقيدة نتناولها من جوانب عدة في النقاط الآتية:

النقطة الأولى: معنى التقية.

التقية لغةً: هي مصدر بمعنى التحفظ والتوقي والتحرز، ويقال فيها: تقية وتقوى من الفعل (اتقى)، فهي مطلق التحفظ والتحرز عن الضرر.

وخلاصة معناها هو:

أنها إما تكون من الخالق فتسمى حينئذٍ (تقوى)، بمعنى (التقية من الضرر المتوجه من عدم امتثال أوامر الخالق ﷻ)، وقد تعارف إطلاق (تقوى) عليها إذا كانت تقيةً من الخالق وإلا فهي أيضاً تقية.

وقد تكون من المخلوق (التقية)، ولها قسمان:

١/ تقية من الأمور التكوينية: كالحر والبرد والمرض والشمس والمطر، فيتقي الإنسان هذه الأمور، وعادة يطلق عليها (توقياً) أو (وقاية).

٢/ تقية من غير الأمور التكوينية: ولها قسمان:

أ. إما من الحيوان وتسمى أيضاً (توقياً)، فيتوقى من حيوان مفترس أو جراثيم وفايروسات وما إلى ذلك.

ب. أو قد تكون من الإنسان الظالم، وهذه ما تسمى بالتقية الاصطلاحية.

فمعنى التقية اصطلاحاً: التحفظ عن الظالم خوفاً منه على النفس أو المال أو ما

يتعلق به من النفوس والأمور المحترمة، كالخوف على الابن أو الزوج أو الأخ أو على إنسانٍ مؤمنٍ من الظالم سواء أكان الظالم كافرًا أم لا.

والتقية: إما أن تكون فعلاً، كأن تدفع الضرر عن نفسك بواسطة فعلٍ من الأفعال، كما لو توضأت، وخوفاً من الظالم تمسح على الخف أو تغسل قدميك بدل مسحهما، أو تفطر عند سقوط القرص أو الوقوف في عرفات، فهي أفعالٌ لتحفظ بها نفسك.

وإما أن تكون قولاً، كأن تقول بلسانك ما لا تعتقد به بداخلك، كما فعل عمار بن ياسر (رضوان الله عليه) إذ أظهر الكفر وقلبه مطمئنٌ بالإيمان.

النقطة الثانية: التقية الاصطلاحية:

وهنا خطوتان:

الخطوة الأولى: أدلة التقية.

يمكن الاستدلال على شرعية التقية وجواز استعمالها بالأدلة الأربعة: (الكتاب والسنة والإجماع والعقل):

الدليل الأول: الكتاب.

ونذكر عدة آيات:

١ - قوله ﷺ: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾^(١)
فلاية ظاهرة في أنه لا يجوز لك أن تتخذ من الكافرين ولاة لك إلا في حالة التقية، فيجوز أن تتخذهم ولاة لك حينئذٍ في الظاهر.

(١) آل عمران ٢٨.

٢- قوله ﷺ: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١)

وقد بيّنت الروايات أنّها نزلت في عمار بن ياسر (رضوان الله عليه وعلى أبيه) عندما أكره على أن يكذب النبي ﷺ ويكفر رسالته بلسانه.^(٢)

فالقرآن الكريم لم يجلد عماراً بهذا الفعل، وإنّما برّر له ذلك؛ لأن قلبه كان مطمئناً بالإيمان فأظهر خلاف ما يبطنه خوفاً على نفسه من القتل، فدفع ضرر الظالم عن نفسه، والقرآن دلّ على أنّ هذا الأمر جائز في هذا المورد.

٣- قوله ﷺ حكاية عن ذي القرنين: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا... فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾^(٣)

وقد روي عن المفضل قال: سألت الصادق عليه السلام عن قوله ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا...﴾. قال: «التقية». ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ قال: «ما

(١) النحل ١٠٦.

(٢) فعَنْ مَسْعَدَةَ بْنِ صَدَقَةَ قَالَ: قِيلَ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: إِنَّ النَّاسَ يَرُوءُونَ أَنَّ عَلِيًّا عليه السلام قَالَ عَلَى مِنْبَرِ الْكُوفَةِ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ سَتُدْعَوْنَ إِلَى سَبِيِّ فُسْبُونِي، ثُمَّ تُدْعَوْنَ إِلَى الْبَرَاءَةِ مِنِّي فَلَا تَبَرَّءُوا مِنِّي. فَقَالَ عليه السلام: «مَا أَكْثَرَ مَا يَكْذِبُ النَّاسُ عَلَى عَلِيٍّ عليه السلام».

ثُمَّ قَالَ عليه السلام: «إِنَّمَا قَالَ: إِنَّكُمْ سَتُدْعَوْنَ إِلَى سَبِيِّ فُسْبُونِي، ثُمَّ سَتُدْعَوْنَ إِلَى الْبَرَاءَةِ مِنِّي، وَإِنِّي لَعَلَى دِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَمْ يَقُلْ: لَا تَبَرَّءُوا مِنِّي».

فَقَالَ لَهُ السَّائِلُ: أَرَأَيْتَ إِنْ اخْتَارَ الْقَتْلَ دُونَ الْبَرَاءَةِ؟

فَقَالَ عليه السلام: «وَاللَّهِ مَا ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَمَا لَهُ إِلَّا مَا مَضَى عَلَيْهِ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، حَيْثُ أَكْرَهَهُ أَهْلُ مَكَّةَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ فِيهِ: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ﴾ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: عِنْدَهَا يَا عَمَّارُ إِنْ عَادُوا فَعُدْ، فَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ عَذْرَكَ وَأَمَرَكَ أَنْ تُعَوِّدَ إِنْ عَادُوا». [الكافي للكليني ج ٢ ص ٢١٩]

باب التقية ح ١١.

(٣) الكهف ٩٥ و ٩٧.

استطاعوا له نقباً: إذا عمل بالتيقّة لم يقدروا في ذلك على حيلة، وهو الحصن الحصين، وصار بينك وبين أعداء الله سدّاً لا يستطيعون له نقباً...»^(١)

الدليل الثاني: الروايات الشريفة:

وهي قد وصلت إلى حدّ الاستفاضة بل التواتر، نذكر بعضاً منها:

١- في صحيحة زرارة عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «التَّيْقَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يُضْطَرُّ إِلَيْهِ ابْنُ آدَمَ فَقَدْ أَحَلَّهُ اللَّهُ لَهُ»^(٢)

وهي تدلّ بوضوح على أنّ وظيفة الإنسان عند الاضطرار هي التقيّة.

٢- عن حريز عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «التَّيْقَةُ تُرْسٌ»^(٣) الله بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ»^(٤).

٣- عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «التَّيْقَةُ فِي كُلِّ ضُرُورَةٍ وَصَاحِبُهَا أَعْلَمُ بِهَا حِينَ تَنْزِلُ بِهِ»^(٥).

٤- عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: «اتَّقُوا عَلَى دِينِكُمْ فَاحْجُبُوهُ بِالتَّيْقَةِ، فَإِنَّهُ لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا تَقِيَّةَ لَهُ، إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالنَّحْلِ فِي الطَّيْرِ، لَوْ أَنَّ الطَّيْرَ تَعَلَّمَ مَا فِي أَجْوَافِ النَّحْلِ مَا بَقِيَ مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا أَكَلَتْهُ، وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ عَلِمُوا مَا فِي أَجْوَافِكُمْ أَنْكُمْ تُحِبُّونَا أَهْلَ الْبَيْتِ لَا أَكَلُوكُمْ بِالسَّيْتِهِمْ وَلَنَحْلُوكُمْ»^(٦) فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا مِنْكُمْ كَانَ عَلَى

(١) تفسير العياشي ج ٢ ص ٣٥١ ح ٨٦.

(٢) الكافي للكنيني ج ٢ ص ٢٢٠ باب التقيّة ح ١٨.

(٣) (ترس الله) أي يمنع الخلق من عذاب الله أو من البلايا النازلة. [هامش المصدر].

(٤) الكافي للكنيني ج ٢ ص ٢٢٠ باب التقيّة ح ١٩.

(٥) الكافي للكنيني ج ٢ ص ٢١٩ باب التقيّة ح ١٣.

(٦) نحله القول كمنعه: نسبه إليه. ونحل فلانا: سابه. وفي بعض النسخ [نجلوكم] بالجيم وفي

القاموس نجل فلانا ضربه بمقدم رجله وتناجلوا: تنازعوا. [هامش المصدر].

وَلَا يَتَنَا». (١)

وظاهر هذه الرواية هو الأمر بالتقية، لا مجرد الإخبار بأن التقية أمر نافع.

الدليل الثالث: الإجماع

فمما أجمع عليه الفقهاء وتسالم بينهم أنَّ التقية واجبة لو اضطر الإنسان لحفظ نفسه من الظالم فيجب عليه أن يتقي، إلا أنَّ وجوبها في الجملة، والوجوب في الجملة يُشير إلى أنَّ هناك مُستثنيات، إذ قد تكون مكروهة أحياناً - كما سيتبين إن شاء الله تعالى -، والإجماع على وجوبها يدلُّ على جوازها من باب أولى.

الدليل الرابع: العقل

فسيرة العقلاء قائمةٌ على وجوب حفظ النفس فيما إذا دار الأمر بينه وبين إظهار شيءٍ ما قولاً أو فعلاً، وهو معنى التقية، خصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنَّ أحكام الدين إنما شُرِّعت لسعادة الإنسان في حياته، فإذا كانت هذه السعادة متوقفة على التقية من الأعداء لفترةٍ من الزمن، فالعقل حينئذ يستقلُّ بالحكم بحُسن التقية.

ومعنى قولنا (يستقل بالحكم)، أي يمكن للإنسان التوصل إلى هذا الحكم وإن لم يكن عارفاً بأي شريعةٍ؛ وذلك لأن العقل يحكم بوجوب تقديم الأهم على المهم، وبذا يكون حكمه تأسيسياً.

فالتقية إذاً هي عبارة عن دوران الأمر بين الأهم والمهم، وتقديم الأهم. [مع ملاحظة المستثنيات التي ستأتي إن شاء الله تعالى].

الخطوة الثانية: نماذج للتقية من التاريخ:

١/ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن قابيل أتى هبة الله ﷻ، فقال: ان أبي قد أعطاك

(١) الكافي للكليني ج ٢ ص ٢١٨ باب التقية ح ٥.

العلم الذي كان عنده، وأنا كنت أكبر منك وأحق به منك، ولكن قتلت ابنه فغضب عليّ فأثرك بذلك العلم عليّ، وإنك والله إن ذكرت شيئاً مما عندك من العلم الذي ورثك أبوك؛ لتتكبر به عليّ ولتفتخر عليّ لأقتلنك كما قتلت أخاك.

فاستخفى هبة الله بما عنده من العلم لينقضي دولة قابيل؛ ولذلك يسعنا في قومنا التقية، لأن لنا في ابن آدم أسوة، قال: فحدث هبة الله ولده بالميثاق سرّاً، فجرت والله السنة بالوصية من هبة الله في ولده، ومن يتخذها يتوارثونها عالم بعد عالم، وكانوا يفتحون الوصية كل سنة يوماً، فيحدثون أن أباهم قد بشرهم بنوح عليه السلام...»^(١)

٢/ عن محمد بن أبي عمير قال: قلت لموسى بن جعفر عليه السلام: أخبرني عن قول الله ﷻ لموسى وهارون: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ. فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾^(٢)؟ فقال عليه السلام: «أما قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ أي كنيّاه، وقولا له: يا أبا مصعب، وكان أسم فرعون: أبا مصعب الوليد بن مصعب»^(٣).

٤- قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾^(٤)

تصف الآية المباركة الرجل بأنه كان يكتُم إيمانه، وهذا يدلُّ أيضاً على شرعية التقية.

النقطة الثالثة: هل التقية نفاق ودجل؟

أراد البعض أن يصور التقية على أنّها نفاق ودجل، وأن الشيعة منافقون ودجالون؛

(١) قصص الأنبياء للراوندي ص ٦٩ و ٧٠ الباب الأول ح ٤٦.

(٢) طه ٤٣ - ٤٤.

(٣) علل الشرائع للشيخ الصدوق ج ١ ص ٦٧ ب ٥٧ ح ١.

(٤) غافر ٢٨.

لأنهم في بعض الأحيان يُظهرون ما لا يعتقدون به.

والصحيح أنَّ التقية ليست كذلك؛ لأن القرآن الكريم حكم بشرعيتها ولم ينه عنها، وكذا السنة المطهرة، فضلاً عن سيرة العقلاء وحكم العقل المستقل، فإنَّ الإنسان إذا ترك وفطرته وعقله ولو من دون أي معرفةٍ بدينٍ أو شريعةٍ فإنه يُقدِّم الأهم فيما إذا دار أمره بين الأهم والمهم، ومعلومٌ أنَّ حفظ النفس هو الأهم بشكلٍ عام طالما لم يكن هناك أهم منها.

الفرق بين التقية والمنفاق:

إنَّ المنافق يظهر الإيمان ويبطن الكفر، فعقيدته وما بنى عليه أمره هو الكفر، وإنَّما يُظهر الإيمان ليخدع المؤمنين ولما رب أخرى، مثل التجسس عليهم، فيأخذ منهم غرتهم ويسلب أموالهم، لذا كان القصد من إظهار الإيمان هو الإضرار بالمسلمين. على حين أنَّ المؤمن عندما يمارس التقية فإنه يبقى في داخله محتفظاً بالإيمان، والإيمان هو ما انعقد عليه القلب لا مجرد ما أظهره اللسان، ولكنه يُظهر بلسانه أو بفعله ما يخالف الحق؛ بقصد دفع الضرر عن نفسه، لا بقصد إضرار الآخر كما يفعل المنافق.

النقطة الرابعة: مستثنيات التقية:

هناك موارد حكم الفقهاء فيها بعدم تشريع التقية رغم أنَّ عدم ممارسة التقية يؤدي إلى الضرر بالنفس؛ لأنَّ للتقية حدوداً، كما أنَّها كما تقدَّم (دوران الأمر بين الأهم والمهم)، فإنَّ تردد الأمر بين النفس وأمر هو أهم منها أو ما يساويها، فلا يُعمل بالتقية حينها، وسنذكر موردين:

المورد الأول: لا تقية في الدم.

كما لو أمرك الظالم بقتل نفسٍ وإلا قتلَكَ، فهنا لا يُعمل بالتقية بل تحرم؛ فلا يشرع

لك قتل الآخر الذي دمه حرام، لأنّ نفسك ليست أهم من نفس الآخر.

المورد الثاني: لا تقية فيما يوجب فساد الدين.

هناك أفراد يترتب على تقيتهم فساد الدين، كالعالم مثلاً، فلو مارس التقية لأمكن أن يؤدي ذلك إلى فساد الدين ولو عند العامة؛ كمن يتقي فيقول: إنّ الإمام علي عليه السلام هو الخليفة الرابع، وهذا ما يوجب انحراف الأمة، لذا لا توجد تقية في أصول الدين مطلقاً.

النقطة الخامسة: التقوى.

تقدّم أنّ التقية إنّما تكون دفعاً للضرر عن النفس، أما إذا كانت حذراً من مخالفة الله ﷻ سميت بـ(التقوى). والتقوى في حقيقتها مفهوم مركّب من جزأين، الأول: الاجتهاد، وهو فعل الواجبات، والثاني: الورع، وهو ترك المحرمات. وكلا الجزأين (الاجتهاد والورع) يقيان الإنسان من الغضب الإلهي المتولد من مخالفة القانون التشريعي الذي شرعه الله ﷻ.

وما ذكرناه من معنى للتقوى إنّما يمثل المرتبة الأولى لها، تلك المرتبة التي لا يعذر فيها مسلم، أما إذا تجاوزنا هذه المرتبة فهناك مرتبتان أخريان، وهذا يعني أنّ للتقوى مراتب ثلاث:

الأولى: فعل الواجبات وترك المحرمات.

وهذه لا يُعذر المسلم في مخالفتها، وإنّ المخالف لها بـ(ترك واجب أو فعل محرم) إذا كانت مخالفتها مع الاعتراف بوجوب الواجب وحرمة المحرم كان فاسقاً، كتارك الصلاة مع اعترافه بوجوبها، وسامع الأغاني مع الاعتراف بحرمتها، أما إذا كانت مخالفتها مع إنكار وجوب الواجب وحرمة المحرم، فقد استلزمت تكذيب النبي ﷺ، ومن ثم كان كافراً.

الثانية: فعل المستحبات وترك المكروهات.

وميزتها عدم الإلزام فيها، إذ يستطيع الفرد ترك المستحب وفعل المكروه، ولا يستلزم ذلك خروجه عن الإيمان، بل كلُّ ما في الأمر أنه يكون قد فوّت على نفسه ثواباً عظيماً.

الثالثة: تقوى الفكر.

بمعنى: عدم التفكير بمخالفة الحكم الشرعي سواء كان بفعل الواجب أو المستحب وبترك المحرم أو المكروه.

وغاية هذه المرتبة أن الإنسان همته وغايته كلُّ ما يُرضي الله ﷻ، وروي عن أبي عبد الله ﷺ، قال: «اجتمع الحواريون إلى عيسى عليه السلام، فقالوا له: يا معلّم الخير أرشدنا، فقال لهم: ... إن موسى نبيّ الله ﷺ أمركم أن لا تزنوا وأنا أمركم أن لا تُحدّثوا أنفسكم بالزنا فضلاً عن أن تزنوا، فإنّ من حدّث نفسه بالزنا كان كمن أوقد في بيت مزوق فأفسد التزاويق الدخان وإن لم يحترق البيت»^(١).

فإنّ في النفس شهوات كامنة واتجاهاً سلبياً كامناً، وعلى الإنسان الفطن أن يحرص على عدم إثارتها أو تحريكها؛ لذا ينبغي عليه أن يبعد نفسه عن التفكير في مخالفة الأمر الإلهي؛ للمحافظة على صفاء النفس وعدم تكديرها.

قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ. وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾^(٢)

فإنّ بداية حفظ الفرج عن الحرام هو غض البصر عنه؛ لذلك يحكم بعض الفقهاء

(١) الكافي للكليني ٥: ٥٤٢ / باب الزاني / ح ٧.

(٢) النور: ٣٠ و ٣١.

بحرمة تكلم المرأة مع رجلٍ ليس من محارمها في حالة الخوف من الوقوع في الحرام؛ لأنه يجزى إلى الحرام بأن يتجسد في سلوك خارجي.

كما أن لنية ارتكاب الحرام أثراً كبيراً على الإنسان يوم الحساب، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّمَا خُلِدَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ لِأَنَّ نِيَّتَهُمْ كَانَتْ فِي الدُّنْيَا أَنْ لَوْ خُلِدُوا فِيهَا أَنْ يَعْبُوا اللَّهَ أَبَدًا، وَإِنَّمَا خُلِدَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ لِأَنَّ نِيَّتَهُمْ كَانَتْ فِي الدُّنْيَا أَنْ لَوْ بَقُوا فِيهَا أَنْ يُطِيعُوا اللَّهَ أَبَدًا، فَالْغِيَاةُ خُلِدَ هَؤُلَاءُ وَهَؤُلَاءُ»، ثم تلا قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾^(١)، قال: «على نيته»^(٢).

إشارتان:

الإشارة الأولى: آثار الذنوب.

إن ابتعاد الإنسان عن المحرمات هو أمرٌ مرغوب ومطلوب، ولكي يتولد الدافع لدى الإنسان في هذا الابتعاد ذكرت الروايات الشريفة الآثار المترتبة على الذنوب. وقد تنوّعت تلك الآثار بين الآثار المعنوية والآثار المادية، من الممكن أن نجد لكلٍ من تلك الآثار عدة عناوين، أهمها:

١/ فساد القلب

عن أبي عبد الله عليه السلام قَالَ: «كَانَ أَبِي عليه السلام يَقُولُ: مَا مِنْ شَيْءٍ أَفْسَدَ لِلْقَلْبِ مِنْ خَطِيئَةٍ، إِنَّ الْقَلْبَ لَيَوَاقِعُ الْخَطِيئَةِ، فَمَا تَزَالُ بِهِ حَتَّى تَغْلِبَ عَلَيْهِ، فَيَصِيرَ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ»^(٣).
أي إنه يصير القلب منكوساً، فإذا نزلت الرحمة الإلهية فلن يكون قابلاً لها.

(١) الإسراء: ٨٤.

(٢) المحاسن لأحمد بن محمد بن خالد البرقي (ج ٢ / ص ٣٣٠ و ٣٣١ / ح ٩٤).

(٣) الكافي للكليني ج ٢ ص ٢٦٨ بَابُ الذُّنُوبِ ح ١.

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق (عليه السلام): «إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب انمحت، وإن زاد زادت، حتى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبداً»^(١). وعن الإمام الباقر (عليه السلام): «ما من عبد إلا وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء، فإن تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض، فإذا [ت]غطي البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً، وهو قول الله ﷻ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»^(٢)»^(٣).

٢/ زوال النعمة

تؤكد الروايات الشريفة أن الله ﷻ حيث إنه كريم مَنَّان على عباده وغير محتاج إليهم، وأنه لا بخل في ساحته ولا عوز، فإنه تعالى إذا أنعم على عبد نعمة، فلا يسلبها منه إلا إذا أحدث العبد ما يوجب سلب تلك النعمة منه.

وبعبارة أخرى: إن الله ﷻ يريد أن يعطي فهو كريم جواد (فالمقتضي تام) وعند إعطائه المفروض أن يستمر لدى ذلك العبد، ولكنه متى ما أذنب أحدث مانعاً من استمرار تلك النعمة عنده فتسلب منه.

لذا على العبد إن يلتفت إلى نفسه فيما إذا سلبت منه نعمة، يقول الإمام الصادق (عليه السلام): «ما أنعم الله على عبد نعمة فسلبها إياه حتى يذنب ذنباً يستحق بذلك السلب»^(٤).

وفي رواية أخرى عنه (عليه السلام): «إنَّ الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل، وإنَّ العمل

(١) الكافي ٢: ٢٧١/ باب الذنوب/ ح ١٣.

(٢) المطففين: ١٤.

(٣) الكافي ٢: ٢٧٣/ باب الذنوب/ ح ٢٠.

(٤) الكافي ٢: ٢٧٤/ باب الذنوب/ ح ٢٤.

السَّيِّئِ أَسْرَعَ فِي صَاحِبِهِ مِنَ السَّكِينِ فِي اللَّحْمِ»^(١).

٣/ حلول النعمة.

وهذا أيضًا ما تؤكد الروايات الشريفة، كما تؤكد على أن حلول النعمة في عين كونه عقوبةً على الإنسان بسبب ما ارتكبه من ذنوب، فهو سببٌ لتكفير الذنوب عنه، وبذلك نتلمس عظيم كرمه وسعة رحمته ﷺ؛ إذ حتى في حلول النعمة كرمٌ منه ﷺ ورحمة لما فيه من تكفيرٍ لذنوبه.

ولكن هذا الأمر ليس بشكلٍ دائم، فإنَّ الله ﷻ في الوقت الذي هو كريمٌ رحيمٌ، فإنَّه شديد العقاب، فلا يصلنَّ بالعبد الاغترار برحمة الله ﷻ إلى أن يتجاوز بارتكاب الذنوب. ولنتذكر قوله تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾^(٢)

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِرْقٍ يَضْرِبُ وَلَا نَكْبَةٍ وَلَا صُدَاعٍ وَلَا مَرَضٍ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ ﷻ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ ثُمَّ قَالَ ﷺ: وَمَا يَعْفُو اللَّهُ أَكْثَرَ مِمَّا يُؤَاخِذُ بِهِ»^(٣).

إن قلت: بماذا نفسر مرض المعصوم؟ هل من ذنب أم ماذا؟

قلت: ليس المرض هو العلة الوحيدة للأمراض، بل إنها قد تكون من باب الابتلاء لرفع الدرجة، كما صرحت بعض الروايات بذلك، فقد جاء في الروايات الشريفة أنَّ الله ﷻ يبتلي الإنسان ببدنه وبماله وأهله، لأنه يريد ﷻ أن يزيد هذا العبد من درجته الكمالية فيبتليه فيحمد العبد ربه فترتفع درجته الكمالية.

(١) المحاسن لأحمد بن محمد بن خالد البرقي (ج ١ / ص ١١٥).

(٢) الشورى ٣٠.

(٣) الكافي ٢: ٢٦٩ / باب الذنوب / ح ٣.

ومن ذلك ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال ليزنديق وقد سأله: فَبِمَا اسْتَحَقَّ
الطِّفْلُ الصَّغِيرُ مَا يُصِيبُهُ مِنَ الْأَوْجَاعِ وَالْأَمْرَاضِ بِمَا ذَنْبَ عَمَلُهُ وَلَا جُرْمَ سَلَفَ مِنْهُ؟
فَقَالَ عليه السلام: «إِنَّ الْمَرَضَ عَلَى وَجْهِ شَتَّى: مَرَضٌ بَلَوَى، وَمَرَضٌ عَقُوبَةٌ، وَمَرَضٌ جُعِلَ
عِلَّةً لِلْفَنَاءِ، وَأَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَغْذِيَةِ رَدِيَّةٍ، وَأَشْرِبَةَ وَبِيَّةٍ أَوْ عِلَّةً كَانَتْ بِأُمِّهِ، وَتَزْعُمُ
أَنَّ مَنْ أَحْسَنَ السِّيَاسَةَ لِبَدَنِهِ وَأَجْمَلَ النَّظَرَ فِي أَحْوَالِ نَفْسِهِ وَعَرَفَ الضَّارَّ مِمَّا يَأْكُلُ مِنَ
النَّافِعِ لَمْ يَمْرَضْ، وَتَمِيلُ فِي قَوْلِكَ إِلَى مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ لَا يَكُونُ الْمَرَضُ وَالْمَوْتُ إِلَّا مِنَ الْمَطْعَمِ
وَالْمَشْرَبِ! قَدْ مَاتَ (أَرْسَطُ طَالِسُ) مُعَلِّمُ الْأَطِبَّاءِ، وَ (أَفْلَاطُونُ) رَئِيسُ الْحُكَمَاءِ، وَ
(جَالِينُوسُ) شَاحَ وَدَقَّ بَصْرُهُ، وَمَا دَفَعَ الْمَوْتَ حِينَ نَزَلَ بِسَاحَتِهِ، وَلَمْ يَأْلُوا حِفْظَ أَنْفُسِهِمْ،
وَالنَّظَرَ لِمَا يُوَافِقُهَا، كَمَ مِنْ مَرِيضٍ قَدْ زَادَهُ الْمَعَالِجُ سُقْمًا؟ وَكَمَ مِنْ طَبِيبٍ عَالِمٍ وَبَصِيرٍ
بِالْأَدْوَاءِ وَالْأَدْوِيَةِ مَاهِرٍ مَاتَ، وَعَاشَ الْجَاهِلُ بِالطَّبِّ بَعْدَهُ زَمَانًا؟! فَلَا ذَاكَ نَفْعُهُ عِلْمُهُ
بَطْنِهِ عِنْدَ انْقِطَاعِ مُدَّتِهِ وَحُضُورِ أَجَلِهِ، وَلَا هَذَا ضَرُّهُ الْجَهْلُ بِالطَّبِّ مَعَ بَقَاءِ الْمُدَّةِ وَتَأَخُّرِ
الْأَجَلِ!»^(١)

٤/ آثار تكوينية.

إن الروايات الشريفة تذكر أنَّ للذنوب مدى تأثير يتجاوز الفاعل (الْمَذْنِبُ نَفْسُهُ)،
مثل الإشعاعات الجرثومية التي هي ليست محددةً بمنطقة معينة، وإنما قد تنتشر إلى مدن
أخرى، فالإنسان عندما يُذنب لا يؤثر على نفسه فقط، بل قد يؤثر على ذريته وعلى ما
يمتلكه من أموال، بل حتى قد يؤثر على نزول المطر، والقرآن يقول: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي
الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٢)
وعن أبي حمزة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: سمعته يقول: «إنَّه ما من سنة أَقَلَّ مطراً من

(١) الاحتجاج للطبرسي ج ٢ ص ٨٤ و ٨٥.

(٢) الروم: ٤١.

سنة، ولكن الله يضعه حيث يشاء، إنَّ الله ﷻ إذا عمل قوم بالمعاصي صرف عنهم ما كان قدَّر لهم من المطر في تلك السنة إلى غيرهم وإلى الفياقي والبحار والجبال. وإنَّ الله ليعذَّب الجعل في جحرها بحبس المطر عن الأرض التي هي بمحلِّها بخطايا من بحضرتها. وقد جعل الله لها السبيل في مسلك سوى محلة أهل المعاصي»، قال: ثمَّ قال أبو جعفر (ع): «فاعتبروا يا أولي الأبصار»^(١).

ويشمل أيضاً الآثار على الأفراد الآخرين: وهي ما روي عن النبيِّ الأعظم ﷺ: «الذنب شؤم على غير فاعله، إن عيَّره ابتلي به، وإن اغتابه أثم، وإن رضي به شاركه»^(٢).

آثار خاصة لبعض الذنوب:

عن أبي عبد الله (ع)، قال: «الذنوب التي تُغيِّر النعم البغي، والذنوب التي تورث الندم القتل، والتي تُنزل النَّقَمَ الظلم، والتي تهتك الستر شرب الخمر، والتي تحبس الرزق الزنا، والتي تُعجِّل الفناء قطيعة الرحم، والتي تردُّ الدعاء وتُظلم الهواء عقوق الوالدين»^(٣).

وعن إسحاق بن عمار قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: «كان أبي (ع) يقول: نعوذ بالله من الذنوب التي تُعجِّل الفناء، وتُقَرِّب الآجال، وتُخِلِّي الديار، وهي قطيعة الرحم، والعقوق، وترك البر»^(٤).

وقال أبو عبد الله (ع): «إذا فشا أربعة ظهرت أربعة: إذا فشا الزنا ظهرت الزلزلة، وإذا فشا الجور في الحكم احتبس القطر، وإذا خفرت الذمَّة أُدِيل لأهل الشرك من أهل

(١) الكافي للكليني ٢/٢٧٢ / باب الذنوب / ح ١٥.

(٢) الجامع الصغير للسيوطي ١/٦٦٨ / ح ٤٣٥٣.

(٣) الكافي ٢: ٤٤٧ / ٤٤٨ / باب في تفسير الذنوب / ح ١.

(٤) الكافي ٢: ٤٤٧ / ٤٤٨ / باب في تفسير الذنوب / ح ٢.

الإسلام، إذا منعت الزكاة ظهرت الحاجة»^(١).

وروي عن رسول الله ﷺ: «ثلاثة من الذنوب تُعَجَّل عقوبتها ولا تُؤَخَّر إلى الآخرة: عقوق الوالدين، والبغي على الناس، وكفر الإحسان»^(٢).

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «أربعة أسرع شيء عقوبةً: رجل أحسنت إليه ويكافيك بالإحسان إليه إساءة، ورجل لا تبغي عليه وهو يبغي عليك، ورجل عاهدته على أمر فمن أمرك الوفاء له ومن أمره الغدر بك، ورجل يصل قرابته ويقطعونه»^(٣).

وعنه عليه السلام: «في كتاب علي عليه السلام: ثلاث خصال لا يموت صاحبهنَّ أبداً حتى يرى وبالهنَّ: البغي، وقطيعة الرحم، واليمين الكاذبة»^(٤).

وقال الإمام علي عليه السلام: - لِمَا سُئِلَ: أَيُّ ذَنْبٍ أَعْجَلَ عِقَابَهُ لِمَا سَأَلَ؟ - «من ظلم من لا ناصر له إلا الله، وجاور النعمة بالتقصير، واستطال بالبغي على الفقير»^(٥).

الإشارة الثانية: طرق مختصرة إلى التقوى^(٦).

١/ الوقاية خير من العلاج، فالابتعاد عن الذنب أفضل من التوبة منه بعد اقترافه، فمن أذنب وتاب يكون حاله كالإناء المكسور الذي تم تصليحه، فإنه وإن كنا نراه تاماً، لكنّه حتماً لم يعد كالأول.

٢/ التعجيل بالتوبة.

(١) الكافي ٢: ٤٤٧ و ٤٤٨ / باب في تفسير الذنوب / ح ٣.

(٢) أمالي الشيخ المفيد (ص ٢٣٧ / ح ١).

(٣) الخصال: ٢٣٠ / ح ٧١.

(٤) الكافي ٢: ٣٤٧ / باب قطيعة الرحم / ح ٤.

(٥) الاختصاص: ٢٣٤.

(٦) للتفاصيل انظر: ملاك التفاضل في الإسلام - الشيخ حسين عبد الرضا الأسدي - ص ٥٩ وما بعدها.

فإن لم يتمكن الإنسان من وقاية نفسه من المعاصي، فعليه المبادرة إلى إعلان التوبة بعد ارتكابها مباشرة، يقول أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لولده الإمام الحسن عليه السلام: «... وَأَعْلَمَ يَا بُنَيَّ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا، وَلِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ، وَلِلْمَوْتِ لَا لِلْحَيَاةِ، وَأَنَّكَ فِي قُلْعَةٍ وَدَارِ بُلْعَةٍ، وَطَرِيقٍ إِلَى الْآخِرَةِ، وَأَنَّكَ طَرِيدُ الْمَوْتِ الَّذِي لَا يَنْجُو مِنْهُ هَارِبُهُ، وَلَا بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ، فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ أَنْ يُدْرِكَكَ وَأَنْتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ فَيَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ...»^(١).

٣/ لا تضع نفسك في مأزق.

فعن داود الرقي، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه»، قيل له: وكيف يذل نفسه؟ قال: «يتعرض لما لا يطيق»^(٢)، في رواية أخرى: «يدخل فيما يتعذر منه»^(٣).

وللهروب من المأزق مصاديق، منها:

أ/ اهرب من الفتوى:

يقول الإمام الصادق عليه السلام في نصيحته لعنوان البصري: «... واهرب من الفتيا هربك من الأسد، ولا تجعل رقبتك للناس جسراً»^(٤).

ب/ ابتعد عن الشبهات:

يقول رسول الله الأعظم صلوات الله عليه وآله: «الحلال بين، والحرام بين، وبينهما أمور مشبهات، لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات

(١) نهج البلاغة (ج ٣/ ص ٤٨ و ٤٩).

(٢) الكافي للشيخ الكليني (ج ٥/ ص ٦٣ و ٦٤/ باب كراهة التعرض لما لا يطيق/ ح ٤).

(٣) الكافي للشيخ الكليني (ج ٥/ ص ٦٣ و ٦٤/ باب كراهة التعرض لما لا يطيق/ ح ٥).

(٤) مشكاة الأنوار لعلي الطبرسي (ص ٥٦٤).

وقع في الحرام، كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه»^(١).

ج/ لا تُثرى في نفسك الشهوات المحرمة، ويدخل ضمن هذا المعنى:

- لا تمش خلف امرأة وتنتظر لمحاسنها:

روي عن الإمام الكاظم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾^(٢)، «قال لها شعيب عليه السلام: يا بنية، هذا قويٌّ قد عرفته برفع الصخرة، الأمين من أين عرفته؟ قالت: يا أبتِ إنني مشيت قدّامه، فقال: امشي من خلفي فإن ضللت فأرشدني إلى الطريق فإنّا قوم لا ننظر في أدبار النساء»^(٣).

- لا تنفرد بامرأة:

روي عن محمد الطيّار، قال: دخلت المدينة وطلبت بيتاً أتكراهه، فدخلت داراً فيها بيتان بينهما باب وفيه امرأة، فقالت: تكراري هذا البيت؟ قلت: بينهما باب وأنا شابٌّ، قالت: أنا أغلق الباب بيني وبينك، فحوّلت متاعي فيه، وقلت لها: أغلقي الباب، فقالت: تدخل عليّ منه الرّوح، دعه، فقلت: لا، أنا شابٌّ وأنت شابةٌ أغلقيه، قالت: اقعد أنت في بيتك فلست آتيك ولا أقربك، وأبّت تغلقه، فأتيت أبا عبد الله عليه السلام فسألته عن ذلك، فقال: «تحوّل منه، فإنّ الرجل والمرأة إذا خليا في بيت كان ثالثهما الشيطان»^(٤).

- لا تنظر إلى امرأة نظرة محرّمة:

قال أبو عبد الله عليه السلام: «النظرة سهم من سهام إبليس مسموم من تركها لله تعالى لا لغيره

(١) كنز العمال للمتقي الهندي (ج ٣/ ص ٤٢٨ و ٤٢٩/ ح ٧٢٩١).

(٢) القصص: ٢٦.

(٣) من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق (ج ٤/ ص ١٩ ح ٤٩٧٤).

(٤) من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق (ج ٣/ ص ٢٥٢ ح ٣٩١٣).

أعقبه الله إيماناً يجد طعمه»^(١).

وروي عن رسول الله ﷺ: «... ومن ملأ عينيه من امرأة حراماً، حشاهما الله تعالى يوم القيامة بمسامير من النار، وحشاهما ناراً، حتّى يقضي بين الناس، ثم يؤمر به إلى النار»^(٢).

وهكذا بالنسبة للمرأة أيضاً، فعليها أن لا تظهر مفاتها، وأن لا تنظر إلى الرجل بريبة، وأن لا تحتلي برجل غير محرم.

٤/ لا تهتك ستر مؤمن:

روي عنه ﷺ: «من أطلع في بيت جاره فنظر إلى عورة رجل أو شعر امرأة أو شيء من جسدها، كان حقاً على الله أن يدخله النار مع المنافقين، الذين كانوا يبتغون عورات الناس في الدنيا، ولا يخرج من الدنيا حتّى يفضحه الله، ويؤدي للناس عورته في الآخرة»^(٣).

٥/ لا تتعرب بعد الهجرة.

أي (أن ينتقل المكلف من بلد يتمكّن فيه من تعلّم ما يلزمه من المعارف الدّينية والأحكام الشرعية، ويستطيع فيه أداء ما وجب عليه في الشريعة المقدّسة، وترك ما حرم عليه فيها، إلى بلد لا يستطيع فيه على ذلك كلاً أو بعضاً)^(٤).

(١) من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق (ج ٤ / ص ١٨ / ح ٤٩٦٩).

(٢) ثواب الأعمال للشيخ الصدوق (ص ٢٨٦).

(٣) ثواب الأعمال للشيخ الصدوق (ص ٢٨٢).

(٤) فقه الحضارة للسيد السيستاني (ص ١٣٥).

٦/ لا تعد بما لا تستطيع فعله.

فعن أمير المؤمنين (عليه السلام): «المنع الجميل أحسن من الوعد الطويل»^(١).

وعنه (عليه السلام): «لا تعد ما تعجز عن الوفاء به»^(٢).

٧/ لا تطمع بما عند الناس.

فإنه يوجب الوقوع في الذلّ، فإنّ الطمع مركب أعمى، لا يرى إلا الوصول إلى إشباع حاجته، ولو على حساب ذلّ النفس، فمن كان طمّاعاً كان إلى الذلّ أقرب منه إلى العزّ. وقد روي عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنّه قال: «لا ذلّ كذلّ الطمع»^(٣).

٨/ لا تكذب.

فقد روي أنه قال رجل له (عليه السلام): المؤمن يزي؟ قال: «قد يكون ذلك»، قال: المؤمن يسرق؟ قال (عليه السلام): «قد يكون ذلك»، قال: يا رسول الله، المؤمن يكذب؟ قال: «لا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾»^(٤)^(٥).

وعن أبي جعفر (عليه السلام)، قال: «إنّ الله (جلّ جلاله) جعل للشّرّ أقفالاً وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب، والكذب شرٌّ من الشراب»^(٦).

٩/ لا تغضب.

عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر (عليه السلام)، قال: «إنّ هذا الغضب جمة من الشيطان،

(١) عيون الحكم والمواعظ للثي الواسطي: ٦٧.

(٢) عيون الحكم والمواعظ للثي الواسطي: ٥١٧.

(٣) تحف العقول لابن شعبة الحرّاني (ص ٢٨٦).

(٤) النحل: ١٠٥.

(٥) الدعوات لقطب الدّين الراوندي (ص ١١٨ / ح ٢٧٥).

(٦) الكافي للشيخ الكليني (ج ٢ / ص ٣٣٨ / باب الكذب / ح ٣).

تَوَقَّدَ في قلب ابن آدم، وإنَّ أحدكم إذا غضب احمرَّت عيناه وانتفخت أوداجه ودخل الشيطان فيه، فإذا خاف أحدكم ذلك من نفسه فليلزم الأرض، فإنَّ رجز الشيطان ليذهب عنه عند ذلك»^(١).

والظاهر أنَّ المقصود من (دخل الشيطان فيه) ليس المعنى الحقيقي، وإنَّما الكناية عن تملك الشيطان زمام الأمر عند الغضب، ممَّا يعني الوقوع في مصائد الندم والحسرة وعص الأنامل!

١٠/تواضع.

فقد ذكرت الروايات الشريفة أنَّ الأمر الذي كان وراء انتجاب النبي موسى الكليم ﷺ هو التواضع، فعن أبي عبد الله ﷺ، قال: «أوحى الله إلى موسى بن عمران ﷺ: أتدري يا موسى لم انتجبتك من خلقي واصطفيتك لكلامي؟ فقال: لا يا ربَّ.

فأوحى الله إليه: إنِّي أطَّلعت إلى الأرض فلم أجِد عليها أشدَّ تواضعاً لي منك. فخرَّ موسى ساجداً وعفَّر خَدَّيه في التراب تذلُّلاً منه لربِّه ﷻ.

فأوحى الله إليه: ارفع رأسك يا موسى، وأمر يدك في موضع سجودك، وامسح بها وجهك وما نالته من بدنك، فإنَّه أمان من كلِّ سقم وداء وآفة وعاهة»^(٢).

نلفت النظر إلى أنَّ هناك علاقات بين الأمور التشريعية والتكوينية لنسمَّها بالعلاقات العكسية، فمن أراد أن يكون عظيمًا عند الناس فعليه أن يتواضع لهم، ولذا النبي ﷺ كان يسلم حتى على الصبيان. فقد روي عن رسول الله ﷺ: «خمس لا أدعهنَّ

(١) الكافي للشيخ الكليني (ج ٢/ ص ٣٠٤ و٣٠٥/ باب الغضب/ ح ١٢).

(٢) الدعوات لقطب الدِّين الراوندي (ص ٧٨/ ح ١٨٨).

حتَّى الممات: الأكل على الحضيض مع العبيد، وركوبي الحمار مؤكفاً، وحلب العنز بيدي، ولبس الصوف، والتسليم على الصبيان، لتكون سنة من بعدي»^(١).

١١/ أخلص العمل.

فمن دون الإخلاص في النية يكون المؤمن غافلاً، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «ولا بدَّ للعبد من خالص النية في كل حركة وسكون، إذ لو لم يكن بهذا المعنى يكون غافلاً، والغافلون قد وصفهم الله بقوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان: ٤٤)»^(٢).

١٢/ احبس جوارحك.

أن يحبس الإنسان جوارحه عن الحرام، وفي هذا المجال يصف أمير المؤمنين عليه السلام المتقين فيما يصفهم: «... فالتقون فيها هم أهل الفضائل، منطقتهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد ومشيمهم التواضع، غضُّوا أبصارهم عما حرم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم...»^(٣).

١٣/ لا تستمع الغناء.

فإن الغناء يفتك بالتقوى، فعن مسعدة بن زياد، قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام، فقال له رجل: بأبي أنت وأُمِّي إني أدخل كنيفاً لي ولي جيران عندهم جوار يتغنين ويضربن بالعود، فربما أطلت الجلوس استماعاً مني لهن؟ فقال: «لا تفعل»، فقال الرجل: والله ما آتيهن إنما هو سماع أسمعه بأذني! فقال: «لله أنت، أما سمعت الله تعالى؟»

(١) الخصال للشيخ الصدوق: ص ٢٧١.

(٢) مستدرک الوسائل للميرزا النوري (ج ١ / ص ٩٩ / ح ٨٦ / ٣)، عن مصباح الشريعة.

(٣) نهج البلاغة (ج ٢ / ص ١٦٠ و ١٦١).

يقول: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(١)؟!، فقال: بلى والله لكأنّي لم أسمع بهذه الآية من كتاب الله من أعجمي ولا عربي، لا جرم إنني لا أعود إن شاء الله، وإني أستغفر الله.

فقال له: «قم فاغتسل»^(٢) وسل ما بدا لك، فإنك كنت مقيماً على أمر عظيم، ما كان أسوء حالك لو متّ على ذلك! احمد الله وسله التوبة من كلّ ما يكره فإنه لا يكره إلا كلّ قبيح، والقبيح دعه لأهله فإن لكل أهلاً»^(٣).

١٤/ اصبر.

فعن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، كذلك إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان»^(٤).

١٥/ اقرأ عن المتقين.

فإن القدوة الحسنة لها تأثيرٌ على سلوك الإنسان، وعلى رأس المتقين أئمتنا عليهم السلام.

النقطة السادسة: كيف حمى أهل البيت عليهم السلام شيعتهم وأتباعهم؟

الجواب: لبيان الإجراءات العملية التي قام بها أهل البيت عليهم السلام لحماية شيعتهم، نذكر عدة طرق:

١/ التقية.

وهو طريق عقلائي، وقد عرفت الشيعة بها لما مرت عليهم من ظروف صعبة

(١) الإسراء: ٣٦

(٢) الظاهر أن المراد هنا هو غسل التوبة.

(٣) الكافي للشيخ الكليني (ج ٦ / ص ٤٣٢ / باب الغناء / ح ١٠).

(٤) الكافي للشيخ الكليني (ج ٢ / ص ٨٧ / باب الصبر / ح ٢).

ألزمتهم أن يتخذوا هذا الإجراء الوقائي دفعا لضرر أعدائهم.

وفي هذا المجال روي أن علي بن يقطين كتب إلى [الإمام] موسى بن جعفر عليه السلام:
اختلف في (المسح على الرجلين)، فان رأيت أن تكتب ما يكون عملي عليه فعلت.
فكتب أبو الحسن عليه السلام: «الذي أمرك به أن تتمضمض ثلاثاً، وتستنشق ثلاثاً،
وتغسل وجهك ثلاثاً، وتحلل شعر لحيتك، وتغسل يديك ثلاثاً، وتمسح رأسك كله،
وتمسح ظاهر أذنك وباطنهما، وتغسل رجلك ثلاثاً، ولا تحالف ذلك إلى غيره. فامتثل
أمره، وعمل عليه».

فقال الرشيد [يوماً]: أحب أن أستبرئ أمر علي بن يقطين، فإنهم يقولون: إنه
رافضي، والرافضة يخفون في الوضوء [فطلبه] فناطه بشيء من الشغل في الدار حتى
دخل وقت الصلاة، فوقف الرشيد من وراء حائط الحجرة بحيث يرى علي بن يقطين،
ولا يراه هو، وقد بعث إليه بالماء للوضوء، فتوضأ كما أمره موسى عليه السلام، (فقام الرشيد
وقال): كذب من زعم أنك رافضي.

فورد علي بن يقطين [بعد ذلك] كتاب موسى بن جعفر عليه السلام: من الآن توضأ
كما أمر الله تعالى: اغسل وجهك مرة فريضة، وأخرى إسباغاً، واغسل [يديك] من
المرفقين كذلك، وامسح مقدم رأسك، وظاهر قدميك من فضل نداوة وضوءك، فقد
زال ما يخاف عليك. ^(١)

٢/ العمل داخل البلاط الحاكم.

فقد أمر عليه السلام بعض الشيعة أن يدخلوا في البلاط الحاكم، مع عدم إظهارهم
التشيع، رغم وجود العديد من الروايات التي تحرم على الشيعة أن يكونوا في بلاط

(١) الخرائج والجرائح لقطب الدين الراوندي ج ١ ص ٣٣٥ ب ٨ ح ٢٦.

الظالم؛ وذلك لرواياتٍ جاء فيها أمرٌ لخلّص الشيعة أن يبقوا داخل البلاط، وأشهر ما يذكر لهذه المسألة هو علي بن يقطين من أصحاب الإمام الكاظم عليه السلام، فهذا المكان لا يتمكن أي واحد أن يكون ثابتاً ومحافظاً على دينه فيه، لكن الأئمة عليهم السلام كانوا يعرفون شيعتهم وأيهم يستطيع البقاء والثبات، لذا أذن الإمام الكاظم عليه السلام لابن يقطين بالبقاء في بلاط الحكام، بشرط الثبات والحفاظ على الدين، فإن في بقائه فائدة للشيعة، فقد يستطيع من خلال سلطته أن يُخفف الظلم عنهم، كما سيكون عيناً لهم فيوصل أخبار السلطة الظالمة السرية إليهم عموماً وإلى الإمام خصوصاً ل يتم توخّي الحذر منهم، ولربما يستطيع بطريقةٍ أو أخرى أن يؤثر ولو جزئياً على الحاكم باعتباره من الحاشية.

فقد روي أنه لما قدم أبو إبراهيم موسى بن جعفر عليه السلام العراق، قال علي بن يقطين: أما ترى

حالي وما أنا فيه؟! فقال عليه السلام: «يا علي، إن الله تعالى أولياء مع أولياء الظلمة، ليدفع بهم عن أوليائه، وأنت منهم يا علي»^(١).

وفي رواية أخرى أنه قال أبو الحسن عليه السلام لعلي بن يقطين: «أضمن لي خصلة أضمن لك ثلاثاً». فقال علي: جعلت فداك وما الخصلة التي أضمنها لك، وما الثلاث اللواتي تضمنهن لي؟

فقال أبو الحسن عليه السلام: «الثلاث اللواتي أضمنهن لك: أن لا يصيبك حر الحديد أبداً بقتل، ولا فاقة، ولا سجن حبس»، قال، فقال علي: وما الخصلة التي أضمنها لك؟ قال، فقال: «تضمن أن لا يأتيك وليٌّ أبداً الا أكرمه»، قال: فضمن عليّ الخصلة، وضمن له أبو الحسن الثلاث^(٢).

(١) اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) للشيخ الطوسي ج ٢ ص ٧٣١ رقم (٨١٧).

(٢) اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) للشيخ الطوسي ج ٢ ص ٧٣١ و ٧٣٢ رقم (٨١٨).

٣/ ذمُّ بعض شيعتهم.

وهو من أغرب الطرق، فكان الأئمة عليهم السلام في بعض الأحيان يذمون بل يلعنون بعض أصحابهم لإبعاد عيون الأعداء عنهم، وأوضح مثال على ذلك ما ورد في لعن الإمام الصادق عليه السلام لزرارة. وزرارة ذلك الذي قال فيه الإمام الصادق عليه السلام: «بشر المخبتين بالجنة: بريد بن معاوية العجلي، وأبو بصير بن ليث البخري المرادي، ومحمد بن مسلم، وزرارة، أربعة نجباء أمناء الله على حلاله وحرامه، لولا هؤلاء انقطعت آثار النبوة واندرست»^(١).

وعن جميل بن دراج، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «أوتاد الأرض، وأعلام الدين أربعة: محمد بن مسلم، وبريد بن معاوية، وليث بن البخري المرادي، وزرارة بن أعين»^(٢).

ورغم كل ذلك المقام الرفيع لزرارة، إلا أنَّ هناك رواية بين الإمام الصادق عليه السلام وزياد بن أبي الحلال حيث سأل الإمام الصادق عليه السلام عن مسألة فقهية نقلها زرارعة عن الإمام، فيقول الإمام الصادق عليه السلام: «ليس هكذا سألني ولا هكذا قلت، كذب عليّ والله، كذب عليّ والله، لعن الله زرارعة، لعن الله زرارعة»^(٣).

ولكي لا نكون في حيرة من أمرنا من تضارب هاتين الروايتين، نذكر الرواية التي كانت للإمام الصادق عليه السلام مع ابن زرارعة عبد الله، والتي تبين حقيقة الحال من رواية اللعن.

عن عبد الله بن زرارعة قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «اقرأ مني على والدك السلام،

(١) اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) للشيخ الطوسي ج ١ ص ٣٩٨ رقم (٢٨٦).

(٢) اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) للشيخ الطوسي ج ٢ ص ٥٠٧ رقم (٤٣٢).

(٣) اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) للشيخ الطوسي ج ١ ص ٣٥٩ - ٣٦١ رقم (٢٣٤).

وقل له: إني إنما أعييك دفاعاً مني عنك، فإن الناس والعدو يسارعون إلى كل من قربناه وحمدنا مكانه لإدخال الأذى في من نحبه ونقربه، يرمونه لمحبتنا له وقربة ودنوه منا، ويرون إدخال الأذى عليه وقتله ويحمدون كل من عبناه نحن وأن نحمد أمره.

فإنما أعييك لأنك رجل اشتهرت بنا ولميلك إلينا، وأنت في ذلك مذموم عند الناس غير محمود الأثر لمودتك لنا ولميلك إلينا، فأحببت أن أعييك ليحمدوا أمرك في الدين بعيبك ونقصك، ويكون بذلك منا دفع شرهم عنك يقول الله جل وعز ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾^(١)، هذا التنزيل من عند الله صالحة، لا والله ما عابها إلا لكي تسلم من الملك ولا تعطب على يديه، ولقد كانت صالحة ليس للعيب منها مساغ والحمد لله.

فافهم المثل يرحمك الله، فإنك والله أحب الناس إلي، وأحب أصحاب أبي ﴿﴾ حياً وميتاً، فإنك أفضل سفن ذلك البحر القمقام الزاخر، أن من ورائك ملكاً ظلوماً غصبوا يرقب عبور كل سفينة صالحة ترد من بحر الهدى ليأخذها غصباً ثم يغصبها وأهلها، فرحمة الله عليك حيا ورحمته ورضوانه عليك ميتا، ولقد أدى إلي ابنك الحسن والحسين رسالتك، أحاطهما الله وكلاهما ورعاها وحفظهما بصلاح أبيهما كما حفظ الغلامين، فلا يضيقتن صدرك من الذي أمرك أبي ﴿﴾ وأمرتك به، وأتاك أبو بصير بخلاف الذي أمرناك به، فلا والله ما أمرناك ولا أمرناه إلا بأمر وسعنا ووسعكم الأخذ به، ولكل ذلك عندنا تصاريف ومعان توافق الحق، ولو أذن لنا لعلمتم أن الحق في الذي أمرناكم به، فردوا إلينا الأمر وسلّموا لنا واصبروا لأحكامنا وارضوا بها، والذي فرق بينكم فهو راعيكم الذي استرعاه الله خلقه، وهو أعرف بمصلحة غنمه في فساد أمرها، فان شاء فرق بينها لتسلم، ثم يجمع بينها لتأمن من فسادها وخوف عدوها في آثار ما يأذن الله

تعالى، ويأتيها بالأمن من مأمنه والفرج من عنده، عليكم بالتسليم والرد إلينا وانتظار أمرنا وأمركم وفرجنا وفرجكم...»^(١)

وكقاعدة كلية لهذا الطريق، روي عَنْ نَصْرِ الْحُثَمِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ: «مَنْ عَرَفَ أَنَّا لَا نَقُولُ إِلَّا حَقًّا، فَلْيَكْتَفِ بِمَا يَعْلَمُ مِنَّا، فَإِنْ سَمِعَ مِنَّا خِلَافَ مَا يَعْلَمُ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ دِفَاعٌ مِنَّا عَنْهُ».^(٢)

٤/ عدم إدخال الشيعة في حرب خاسرة.

لأن ذلك يعني التصفية الشاملة من دون مبرر ومن دون فائدة، وهذا الأمر يرجع بالخسارة على الشيعة بالخصوص، ويتجلى هذا الطريق فيما ورد عنهم عليهم السلام من عدم قيامهم لعدم توفر الأنصار بالعدد الكافي.

عَنْ سَدِيرِ الصَّيْرِفِيِّ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فَقُلْتُ لَهُ: وَاللَّهِ مَا يَسْعُكَ الْقُعُودُ!

فَقَالَ عليه السلام: «وَلِمَ يَا سَدِيرُ؟»

قُلْتُ: لِكثَرَةِ مَوَالِيكَ وَشِيعَتِكَ وَأَنْصَارِكَ، وَاللَّهِ لَوْ كَانَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام مَا لَكَ مِنَ الشَّيْعَةِ وَالْأَنْصَارِ وَالْمَوَالِي مَا طَمَعَ فِيهِ نَيْمٌ وَلَا عَدِيٌّ.

فَقَالَ عليه السلام: «يَا سَدِيرُ، وَكَمْ عَسَى أَنْ يَكُونُوا؟»، قُلْتُ: مِائَةُ أَلْفٍ. قَالَ عليه السلام: «مِائَةُ أَلْفٍ؟!» قُلْتُ: نَعَمْ، وَمِائَتَيْ أَلْفٍ. قَالَ عليه السلام: «مِائَتَيْ أَلْفٍ؟!» قُلْتُ: نَعَمْ، وَنِصْفَ الدُّنْيَا! قَالَ: فَسَكَتَ عَنِّي، ثُمَّ قَالَ: «يَخْفُ عَلَيْكَ أَنْ تَبْلُغَ مَعَنَا إِلَى يَنْبُع؟» قُلْتُ: نَعَمْ، فَأَمَرَ بِحِمَارٍ وَبَعْلٍ أَنْ يُسَرَّجَا، فَبَادَرْتُ فَرَكِبْتُ الْحِمَارَ، فَقَالَ عليه السلام: «يَا سَدِيرُ، أَتَرَى أَنْ تُؤْثِرَنِي

(١) اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) للشيخ الطوسي ج ١ ص ٣٤٩ و ٣٥٠ رقم (٢٢١)

(٢) الكافي للكليني ج ١ ص ٦٥ و ٦٦ بابُ اخْتِلَافِ الْحَدِيثِ ح ٦.

بِالْحِمَارِ؟! قُلْتُ: الْبَغْلُ أَزَيْنُ وَأَنْبَلُ. قَالَ ﷺ: «الْحِمَارُ أَرْقُ بِِي». فَتَرَلْتُ فَرَكِبَ الْحِمَارَ، وَرَكِبْتُ الْبَغْلَ، فَمَضَيْنَا فَحَانَتِ الصَّلَاةُ، فَقَالَ ﷺ: «يَا سَدِيرُ، أَنْزِلْ بِنَا نُصَلِّ». ثُمَّ قَالَ ﷺ: «هَذِهِ أَرْضُ سَبِيحَةٍ، لَا تَجُوزُ الصَّلَاةُ فِيهَا»، فَبَرَزْنَا حَتَّى صَرْنَا إِلَى أَرْضِ حَمْرَاءَ، وَنَظَرَ إِلَى غُلَامٍ يَرْعَى جِدَاءً، فَقَالَ ﷺ: «وَاللَّهِ يَا سَدِيرُ، لَوْ كَانَ لِي شِيعَةٌ بَعْدَ هَذِهِ الْجِدَاءِ مَا وَسَعَنِي الْقُعُودُ».

وَنَزَلْنَا وَصَلَيْنَا فَلَمَّا فَرَغْنَا مِنَ الصَّلَاةِ عَطَفْتُ عَلَى الْجِدَاءِ فَعَدَدْتُهَا، فَإِذَا هِيَ سَبْعَةٌ عَشَرَ! ^(١)

فالمشكلة ليست في أهل البيت ﷺ، بل في المجتمع؛ إذ لم يُنتج عددًا كافيًا من الأصحاب الخُلص الذين هم على مستوى من الثقة والإيمان والثبات للقيام بمثل هذا الأمر.

وهذا ما صرح به الإمام الحسن ﷺ، حيث روي أنه دخل أحدهم على الإمام ﷺ بعد الصلح مع معاوية فسلم عليه وقال: السلام عليك يا مذل المؤمنين، فيجيبه الإمام ﷺ: «ما أنا بمذل المؤمنين ولكني معز المؤمنين، إني لما رأيتمكم ليس بكم عليهم قوة سلمت الأمر لأبقى أنا وأنتم بين أظهرهم، كما عاب العالم السفينة لتبقى لأصحابها وكذلك نفسي وأنتم لنبقى بينهم...» ^(٢)

لذا كان أهل البيت ﷺ عندما يرون أن هناك حرباً خاسرة، فإنهم يأمرهم شيعتهم بالعودة عنها؛ لأنها سوف لا تكون إلا عبارة عن تصفية جسدية ومعنوية لهم.

ه/أمرهم ﷺ شيعتهم بالعمل المخفي.

رغم أنه كان لبعض الشيعة مهام عظيمة أُلقيت عليهم، لكن بترتيبٍ من أهل

(١) الكافي للكليني ج ٢ ص ٢٤٢ و ٢٤٣ بَابُ فِي قِلَّةِ عَدَدِ الْمُؤْمِنِينَ ح ٤.

(٢) تحف العقول للحراني ص ٣٠٨.

البيت عليه السلام أمروهم بعملٍ معينٍ تغطيةً على أمرهم، وأوضح شاهد على ذلك هو السفير الأول عثمان بن سعيد الملقب بالعمري والأسدي والعسكري والسمان، حيث كان يتجر بالسمن تغطيةً على أمره؛ كونه سفيراً للإمام عليه السلام حيث كان موضع ثقة للإمام الهادي والعسكري والمهدي عليهم السلام، فكان يضع الأموال والرسائل في جراب السمن خوفاً من أن يكشف أمره، وبهذه الطريقة كان أمثال عثمان بن سعيد (رضوان الله تعالى عليه) يتجاوزون الخطر.

الخلاصة: كان أهل البيت عليهم السلام يعملون قدر الإمكان على الحفاظ على شيعتهم حباً بهم ومن أجل أن لا تنقطع جذورهم ويحفظ التشيع.

التقية المداراتية:

بالإضافة إلى النوعين المتقدمين من التقية، هناك نوع آخر يُسمى بالتقية المداراتية قد أشار إليها الشيخ عليه السلام بقوله «واستصلاحاً للمسلمين وجمعاً لكلمتهم ولما لشعثهم»، والغاية منها ليس هو دفع الضرر خوفاً من المقابل، وإنما من أجل جذبه إلى الحق، بمعنى أن لا يُظهر الشيعي معتقده للمخالف في بادئ الأمر ويتحفظ عليه حتى ينجذب له ويطمن، حينئذٍ يُظهر له الأمر.

وهناك مطلبٌ فقهيٌ بخصوص التقية، أشار إليه الشيخ رحمه الله عليه السلام بقوله: (وللتقية أحكام من حيث وجوبها وعدم وجوبها بحسب اختلاف مواقع خوف الضرر المذكورة في أبوابها في كتب العلماء الفقهية). إشارة منه إلى أن التقية تدخل في أبواب الأحكام التكليفية الخمسة حسب اختلاف المورد، وفي ذلك تتم مراجعة الكتب الفقهية.

الفصل الرابع :

ما أَدَب به أهل البيت عليهم السلام شيعتهم

قال قُتَيْبٌ :

«تمهيد:

إنَّ الأئمة من آل البيت عليهم السلام علموا من ذي قبل أنَّ دولتهم لن تعود إليهم في حياتهم، وأنهم وشيعتهم سيقون تحت سلطان غيرهم ممن يرى ضرورة مكافحتهم بجميع وسائل العنف والشدة.

فكان من الطبيعي - من جهة - أن يتخذوا التكتم «التقية» ديناً وديناً لهم ولأتباعهم، ما دامت التقية تُحقَّن من دمائهم ولا تُسيء إلى الآخرين ولا إلى الدين، ليستطيعوا البقاء في هذا الخضم العجاج بالفتن والثائر على آل البيت بالإحـن.

وكان من اللازم بمقتضى إمامتهم - من جهةٍ أخرى - أن ينصرفوا إلى تلقين أتباعهم أحكام الشريعة الإسلامية، وإلى توجيههم توجيهاً دينياً صالحاً، وإلى أن يسلكوا بهم مسلكاً اجتماعياً مفيداً، ليكونوا مثال المسلم الصحيح (العادل).

وطريقة آل البيت في التعليم لا تُحيط بها هذه الرسالة، وكتب الحديث الضخمة متكلفةً بما نشره من تلك المعارف الدينية، غير أنه لا بأس أن نُشير هنا إلى بعض ما يشبه أن يدخل في باب العقائد فيما يتعلق بتأديبهم لشيعتهم، بالآداب التي تسلك بهم المسلك الاجتماعي المفيد، وتُقرِّبهم زلفى إلى الله ﷻ، وتطهر صدورهم من درن الآثام والردائل،

وتجعل منهم عدولاً صادقين. وقد تقدّم الكلام في (التقية) التي هي من تلك الآداب المفيدة اجتماعياً لهم، ونحن ذاكرون هنا بعض ما يعنُّ لنا من هذه الآداب». انتهى.

ذكر المصنف رحمته الله مطلباً نبينه في نقطتين:

النقطة الأولى: ما هو ربط هذه الآداب بأصول الدين؟

ذكر الشيخ رحمته الله في هذا الفصل العديد من الآداب الإسلامية التي توارثها الشيعة من أهل البيت عليهم السلام.

وقد يتبادر إلى الذهن سؤالٌ وهو: إنَّ كتاب عقائد الإمامية قد عدَّ لبيان عقائد الشيعة وأصول دينهم، فما هو ارتباط هذه الآداب بأصول الدين؟

ويمكن الجواب عن هذا السؤال بعدة وجوه، هي:

الوجه الأول:

إنَّ تلك الآداب التي ذكرها الشيخ رحمته الله إنّما هي آدابٌ من مختصات الشيعة الإمامية ولو في بعض مراتبها، كزيارة القبور مثلاً، وبالتالي قد يُستشكل على الشيعة، أو يتم اتهامهم بأنهم قد أسسوا لأمرٍ لا تمت إلى الإسلام بصلة، ومن ثم تكون بدعةً (أي إدخال شيءٍ ليس من الدين بالدين)، ونحن كشيعة نحتاج حينئذٍ إلى بيان حقيقة الأمر فيها.

وحيث أُخذت تلك الآداب عن أهل البيت عليهم السلام الذين ثبتت حجيتهم في المباحث السابقة، كان المقام مناسباً لطرحها لصلتها الوثيقة بما تمّ بحثه، إذ ما داموا هم حجة علينا، فيجوز الأخذ بقولهم تبعداً، وقد حثوا على زيارة القبور والدعاء وغيرها من الآداب التي يذكرها الشيخ رحمته الله، وبذا تُثبت شديد الصلة بين تلك الآداب والإسلام.

وينتج: أن هذه الآداب ليست بدعة؛ لأنها مأخوذة من أهل البيت عليهم السلام، وقد

عرفنا أنّ أهل البيت عليهم السلام قد صرّحوا في مناسبات كثيرة أنّهم يستمدون ما عندهم من رسول الله صلى الله عليه وآله.

فَعَنْ قُتَيْبَةَ قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام عَنْ مَسْأَلَةٍ، فَأَجَابَهُ فِيهَا، فَقَالَ الرَّجُلُ: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ كَذَا وَكَذَا مَا يَكُونُ الْقَوْلُ فِيهَا؟ فَقَالَ عليه السلام لَهُ: «مَهْ، مَا أَجَبْتُكَ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، لَسْنَا مِنْ: (أَرَأَيْتَ) فِي شَيْءٍ»^(١).

الوجه الثاني:

إنّ تلك الآداب -وعلى الأقل في بعض مراتبها- كانت مثاراً لطرح الشبهات على الشيعة، مثلاً في الدعاء، فإن غيرنا وإن كان يدعو أيضاً لكنه جعل الدعاء الجماعي من البدعة، والقول بأنّ أمرًا ما عند الشيعة بدعة يعني أنّ هناك خللاً في عقيدتهم، لذا نحتاج إلى أن نقدم جواباً عن ذلك، وكذا في زيارة القبور، فقد عدّها البعض شركاً وبالتالي فلها ارتباطٌ وثيقٌ بالتوحيد وبقية أصول الدين.

وعلى أساس هذين الوجهين -وربما غيرهما- وضع الشيخ عليه السلام هذه الآداب في كتاب العقائد.

النقطة الثانية: لماذا فتح أهل البيت عليهم السلام باب هذه الآداب لشيعتهم؟

لعدة أسباب أهمها:

أولاً: إنّ تلك الآداب -كالدعاء وعدم التعامل مع الظالمين وما شابه- هي على كلّ حالٍ مما يقرب العبد لله تعالى، واللفظ يقتضي بيانها بشكلٍ تفصيلي حتى يستطيع العبد التقرب إلى الله تعالى.

ثانياً: وهو ما أشار إليه الشيخ عليه السلام في عبارته:

(١) الكافي للكنيني ج ١ ص ٥٨ بابُ البدعِ والرأي والمقاييس ح ٢١.

إِنَّ تِلْكَ الْآدَابَ كَانَتْ وَسِيلَةً مَهْمَةً لِإِبْصَالِ:

١- الأحكام الشرعية.

٢- العقائد الصحيحة.

٣- أنظمة الحياة السلوكية.

ومثال ذلك (الأدعية)، فَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّتِنَا عليه السلام أدعية تضمنت في داخلها (أحكاماً شرعية، عقائد وسلوكاً).

وكان بثُّ هذه الأحكام من خلال الأدعية لأجل إيصالها لشيعتهم من دون إلفات نظر السلطات إليهم؛ لأن السلطات في ذلك الوقت كان لها شعار (خذوهم على التهمة)^(١)

فكان القاضي والداني يعلم أَنَّ شِيعَةَ أَهْلِ الْبَيْتِ عليه السلام قد ذاقوا الأمرين من هذه السلطات.

لقد وصل الأمر بالناس في ذلك الوقت أن يتعاملوا مع أهل البيت عليه السلام تعاملًا غير لائق، فقد روي عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحُجَّاجِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: «كُنْتُ أَطُوفُ وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ قَرِيبٌ مِنِّي، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، كَيْفَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله يَصْنَعُ بِالْحَبْرَةِ إِذَا انْتَهَى إِلَيْهِ؟ فَقُلْتُ [أَيُّ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عليه السلام]: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله يَسْتَلِمُهُ فِي كُلِّ طَوَافٍ فَرِيضَةً وَنَافِلَةً.

قَالَ: فَتَخَلَّفَ عَنِّي قَلِيلًا، فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَى الْحَبْرِ جُرْتُ وَمَشَيْتُ فَلَمْ أَسْتَلِمْهُ، فَلَحِقَنِي فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، أَلَمْ تُخْبِرْنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله كَانَ يَسْتَلِمُ الْحَبْرَ فِي كُلِّ طَوَافٍ

(١) من كتاب يزيد (لعنه الله) إلى عبيد الله بن زياد في الكوفة: أما بعد... وإنه قد بلغني أن حسيناً قد توجه إلى العراق فضع المناظر والمسالخ واحترس، واحبس على الظنة واقتل على التهمة، واكتب إلي فيما يحدث من خبر إن شاء الله. [الإرشاد للشيخ المفيد ج ٢ ص ٦٥ و ٦٦]

فَرِيضَةٍ وَنَافِلَةٍ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: فَقَدْ مَرَرْتُ بِهِ فَلَمْ تَسْتَلِمْ! فَقُلْتُ: إِنَّ النَّاسَ كَانُوا يَرَوْنَ
لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَا يَرَوْنَ لِي، وَكَانَ إِذَا انْتَهَى إِلَى الْحَجَرِ أَفْرَجُوا لَهُ حَتَّى يَسْتَلِمَهُ، وَإِنِّي
أَكْرَهُ الزَّحَامَ»^(١).

وهذه الرواية إن دلت على شيء فإنما تدلُّ على قلة احترام الناس للأئمة عليهم السلام، كما
تدلُّ على أنَّ الإمام يعمل على إيصال الأحكام الشرعية للشيعَة وإن لم يُتَحَ له امتثالها.

(١) الكافي للكليني ج ٤ ص ٤٠٤ و ٤٠٥ بَابُ الْمُرَاحِمَةِ عَلَى الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ ح ٢.

عقيدتنا في الدعاء

قال الشيخ رحمه الله:

«عقيدتنا في الدعاء:

قال النبي ﷺ: «الدعاء سلاح المؤمن، وعمود الدين، ونور السموات والأرض»، وكذلك هو، أصبح من خصائص الشيعة التي امتازوا بها، وقد ألفوا في فضله وآدابه وفي الأدعية المأثورة عن آل البيت ما يبلغ عشرات الكتب من مطولة ومختصرة. وقد أودع في هذه الكتب ما كان يهدف إليه النبي وآل بيته ﷺ من الحث على الدعاء والترغيب فيه. حتى جاء عنهم: «أفضل العبادة الدعاء» و «أحب الأعمال إلى الله ﷻ في الأرض الدعاء» بل ورد عنهم: «إنَّ الدعاء يرد القضاء والبلاء»، و «أنَّه شفاءٌ من كُلِّ داءٍ».

وقد ورد أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام كان رجلاً (دعّاءً)، أي كثير الدعاء. وكذلك ينبغي أن يكون وهو سيد الموحدين وإمام الأهلين. وقد جاءت أدعيته كخطبه آية من آيات البلاغة العربية كدعاء كميل بن زياد المشهور، وقد تضمّنت من المعارف الإلهية والتوجيهات الدينية ما يُصلح أن تكون منهجاً رفيعاً للمسلم الصحيح.

وفي الحقيقة إنَّ الأدعية الواردة عن النبي وآل بيته ﷺ خيرٌ منهج للمسلم - إذا تدبرها - تبعث في نفسه قوة الإيمان، والعقيدة وروح التضحية في سبيل الحق، وتعرفه، سر العبادة، ولذة مناجاة الله ﷻ والانقطاع إليه، وتلقنه ما يجب على الإنسان أن يعلمه لدينه وما يقربه إلى الله ﷻ زلفى. ويُبعده عن المفاصد والأهواء والبدع الباطلة. وبالاختصار أنَّ هذه الأدعية قد أودعت فيها خلاصة المعارف الدينية من الناحية الخلقية

والتهديبية للنفوس، ومن ناحية العقيدة الإسلامية، بل هي من أهم مصادر الآراء الفلسفية والمباحث العلمية في الإلهيات والأخلاقيات.

ولو استطاع الناس - وما كلهم بمستطيعين - أن يهتدوا بهذا الهدى الذي تُثيرة هذه الأدعية في مضامينها العالية، لما كنت تجد من هذه المفاصد المثلثة بها الأرض أثراً، ولحلّقت هذه النفوس المكبّلة بالشُرور في سماء الحقّ حرةً طليقةً، ولكن أنّى للبشر أن يصغي إلى كلمة المصلحين والدعاة إلى الحق، وقد كشف عنهم قوله ﷺ: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

نعم، إنّ ركيزة السوء في الانسان اغتراره بنفسه وتجاهله لمساوئه ومغالطته لنفسه في أنّه يُحسن صنعاً فيما اتخذ من عملٍ: فيظلم ويتعدّى ويكذب ويراغ ويطواع شهواته ما شاء له هواه، ومع ذلك يُجادع نفسه أنّه لم يفعل إلا ما ينبغي أن يفعل، أو يغضّ بصره متعمداً عن قبيح ما يصنع ويستصغر خطيئته في عينه. وهذه الأدعية الماثورة التي تستمدُّ من منبع الوحي تجاهد أن تحمل الانسان على الاختلاء بنفسه والتجرد إلى الله ﷻ؛ لتلقّنه الاعتراف بالخطأ وأنه المذنب الذي يجب عليه الانقطاع إلى الله ﷻ لطلب التوبة والمغفرة، ولتلمسه مواقع الغرور والاجترام في نفسه، ومثل أن يقول الداعي من دعاء كميل بن زياد:

«إلهي ومولاي! أجريت عليّ حكماً اتبعت فيه هوى نفسي ولم أحترس فيه من تزيين عدوي، فغرّني بما أهوى، وأسعده على ذلك القضاء، فتجاوزتُ بما جرى عليّ من ذلك بعض حدودك، وخالفتُ بعض أوامرك».

ولا شكّ أنّ مثل هذا الاعتراف في الخلوة أسهل على الانسان من الاعتراف علانيةً مع الناس، وإن كان من أشقّ أحوال النفس أيضاً.

وإن كان بينه وبين نفسه في خلواته ولو تمّ ذلك للإنسان فله شأنٌ كبيرٌ في تخفيف

غلواء نفسه الشريرة وترويضها على طلب الخير. ومن يُريد تهذيب نفسه لا بُدَّ أن يصنع لها هذه الخلوة والتفكير فيها بحُرِّيَّةٍ لمُحاسبَتها، وخيرُ طريقٍ لهذه الخلوة والمحاسبة أن يواظب على قراءة هذه الأدعية الماثورة التي تصل بمضامينها إلى أغوار النفس، مثل أن يقرأ في دعاء أبي حمزة الثمالي (عليه السلام):

«أي رب! جللني بسترِكَ، واعفُ عن توبيخي بكرم وجهك!» فتأمل كلمة (جللني). فإن فيها ما يُثيرُ في النفس رغبتهَا في كتم ما تنطوي عليه من المساوئ، ليتنبه الإنسان إلى هذه الدخيلة فيها ويستدرجه إلى أن يعترف بذلك حين يقرأ بعد ذلك:

«فلو اطلع اليوم على ذنبي غيرك ما فعلته ولو خفتُ تعجيل العقوبة لاجتنبتُهُ».

وهذا الاعتراف بدخيلة النفس وانتباهه إلى الحرص على كتمان ما عنده من المساوئ يستثيران الرغبة في طلب العفو والمغفرة من الله ﷻ لئلا يُفتَضَحَ عند الناس لو أراد الله أن يُعاقبه في الدنيا أو الآخرة على أفعاله، فيلتدِّ الإنسانُ ساعتئذٍ بمُنَاجاةِ السرِّ، وينقطع إلى الله ﷻ ويحمده أنه حلمَ عنه وعفا عنه بعد المقدرة فلم يفصحْه، إذ يقول في الدعاء بعد ما تقدم:

«فلك الحمد على حلمك بعد علمك وعلى عفوك بعد قدرتك»، ثم يوحى الدعاء إلى النفس سبيل الاعتذار عما فرَّطَ منها على أساس ذلك الحلم والعفو منه ﷻ، لئلا تنقطع الصلة بين العبد وربِّه، ولتلقين العبد أن عصيانه ليس لنكران الله واستهانة بأوامره إذ يقول: «ويحملني ويجرئني على معصيتك حلمك عني، ويدعوني إلى قلة الحياء سترك عليَّ. ويسرعني إلى التوَّاب على محارمك معرفتي بسعة رحمتك وعظيم عفوك».

وعلى أمثال هذا النمط تنهج الأدعية في مناجاة السرِّ لتهذيب النفس وترويضها على الطاعات وترك المعاصي. ولا تسمح الرسالة هذه بتكثير النماذج من هذا النوع، وما أكثرها.

ويعجبني أن أورد بعض النماذج من الأدعية الواردة بأسلوب الاحتجاج مع الله ﷻ لطلب العفو والمغفرة، مثل ما تقرأ في دعاء كميل بن زياد: «وليت شعري يا سيدي ومولاي! أتسلط النار على وجوه خرت لعظمتك ساجدة، وعلى ألسنٍ نطقت بتوحيديك صادقة وبشكرك مادحة، وعلى قلوبٍ اعترفت بإلهيتك مُحَقِّقة، وعلى ضمائر حوت من العلم بك حتى صارت خاشعة، وعلى جوارح سعت إلى أوطان تعبدك طائعة، وأشارت باستغفارك مذعنة، ما هكذا الظن بك ولا أخبرنا بفضلِكَ».

كرّر قراءة هذه الفقرات، وتأمل في لطف هذا الاحتجاج وبلاغته وسحر بيانه، فهو في الوقت الذي يوحى للنفس الاعتراف بتقصيرها وعبوديتها، يُلقِّنها عدم اليأس من رحمة الله ﷻ وكرمه، ثم يكلم النفس بآبن عم الكلام ومن طرفٍ خفي لتلقينها واجباتها العليا، إذ يفرض فيها أنها قد قامت بهذه الواجبات كاملة، ثم يُعلِّمها أَنَّ الإنسان يعمل هذه الواجبات يستحقُّ التفضُّلَ من الله بالمغفرة، وهذا ما يُشَوِّق المرء إلى أن يرجع إلى نفسه فيعمل ما يجب أن يعمل إن كان لم يؤد تلك الواجبات.

ثم تقرأ أسلوباً آخر من الاحتجاج من نفس الدعاء، «فهبني يا إلهي وسيدي وربي صبرْتُ على عذابك فكيف أصبر على فراقك؟! وهبني يا إلهي صبرْتُ على حرِّ ناركَ فكيف أصبرُ عن النظر إلى كرامتك؟!».

وهذا تلقينٌ للنفس بضرورة الالتذاذ بقرب الله ﷻ ومشاهدة كرامته وقدرته، حباً له وشوقاً إلى ما عنده، وبأنَّ هذا الالتذاذ ينبغي أن يبلغ من الدرجة على وجه يكون تأثير تركه على النفس أعظم من العذاب وحر النار، فلو فرض أنَّ الإنسان تمكَّن من أن يصبر على حرِّ النار فإنَّه لا يتمكن من الصبر على هذا الترك، كما تفهمنا هذه الفقرات أنَّ هذا الحب والالتذاذ بالقرب من المحبوب المعبود خير شفيع للمذنب عند الله لأن يعفو ويصفح عنه. ولا يخفى لطف هذا النوع من التعجب والتملُّق إلى الكريم الحليم قابل

التوب وغافر الذنب.

ولا بأس في أن نختم بحثنا هذا بإيراد دعاءٍ مُختصرٍ جامعٍ لمكارم الخلاق ولما ينبغي لكلِّ عضوٍ من الإنسان وكلِّ صنفٍ منه أن يكون عليه من الصفات المحمودة:

«اللهمَّ ارزقنا توفيق الطاعة وبعد المعصية، وصدق النية وعرفان الحرمة، وأكرمنا بالهدى والاستقامة، وسدّد ألسنتنا بالصواب والحكمة، واملأ قلوبنا بالعلم والمعرفة، وطهر بطوننا من الحرام والشبهة، واكفف أيدينا عن الظلم والسرقة، واغضض أبصارنا عن الفجور والخيانة، واسدّد أسماعنا عن اللغو والغيبة، وتفضّل على علمائنا بالزهد والنصيحة، وعلى المتعلمين بالجهد والرغبة، وعلى المستمعين بالاتباع والموعظة، وعلى مرضى المسلمين بالشفاء والراحة، وعلى موتانا بالرأفة والرحمة، وعلى مشايخنا بالوقار والسكينة وعلى الشباب بالإقامة والتوبة، وعلى النساء بالحياء والعفة، وعلى الأغنياء بالتواضع والسعة، وعلى الفقراء بالصبر والقناعة، وعلى الغزاة بالنصر والغلبة، وعلى الأمراء بالخلاص والراحة، وعلى الأمراء بالعدل والشفقة، وعلى الرعية بالإنصاف وحسن السيرة، وبارك للحجاج والزوار في الزاد والنفقة، واقض ما أوجبت عليهم من الحج والعمرة، بفضلِكَ ورحمتِكَ يا أرحم الراحمين».

وإنّ لموصي إخواني القراء ألا تفوتهم الاستفادة من تلاوة هذه الأدعية، بشرط التدبّر في معانيها ومراميها وإحضار القلب والاقبال والتوجه إلى الله بخشوعٍ وخضوعٍ، وقراءتها كأنّها من إنشائه للتعبير بها عن نفسه، مع اتباع الآداب التي ذكرت لها من طريقة آل البيت، فإنّ قراءتها بلا توجّه من القلب صرف لقلقة في اللسان، لا تزيد الانسان معرفة. ولا تُقرّبه زلفى، ولا تكشف له مكروباً، ولا يُستجاب معه له دعاء.

«إنّ الله ﷻ لا يستجيب دعاءً بظهر قلبٍ ساهٍ، فإذا دعوت فأقبل بقلبك ثم استيقن بالإجابة». انتهى.

نحاول أن نوضح هذه العقيدة عبر خطوات:

الخطوة الأولى: الدعاء سبب معنوي.

من الواضح جداً أن الله ﷻ خلق العالم وجعله يسير وفق نظام العلة والمعلول، فلكي تصل إلى شيء ما لا بد أن تسلك السبل والأسباب المؤدية له. وهذا النظام لم يُستثنَ منه شيء في هذا الوجود الإمكانى (العالم)، فكل شيء إما علة أو معلولاً إلى أن نصل إلى علة العلل التي ليس فوقها علة وهو الله ﷻ.

وإنَّ العلل منها ما لها أسبابٌ منظورة معروفة، فالماء علة الإرواء، والنار علة الإحراق، والشمس علة وجود الضوء، ومدُّ الماء وجزره يرتبط بالقمر. ومنها ما له أسباب غير معروفة وغير مرئية، وإنَّما نحسُّ بآثارها، كما يقال في مسألة التوفيق الإلهي؛ فإنَّ التوفيق والتسديد الإلهي لا شكَّ أنَّه علة لحفظ الإنسان وحصوله على بعض العلوم وتحقيقه لبعض الأهداف، لكنه لا يرى بالعين وإنَّما هو أمرٌ معنوي.

والدعاء يدخل في سلسلة العلل المعنوية، فالدعاء سببٌ للوصول إلى الأهداف، وهذا الأمر أكدت عليه الروايات كثيراً، فقد ورد في أثر الدعاء عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال: «عليكم بالدعاء فإنه شفاء من كل داء، وإذا دعوت فظنَّ أن حاجتك بالباب»^(١). وفي رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «ادفعوا أمواج البلاء عنكم بالدعاء، قبل ورود البلاء»^(٢).

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال: «مَنْ خَوَّفَ مِنْ بَلَاءٍ يُصِيبُهُ فَتَقَدَّمَ فِيهِ بِالدُّعَاءِ لَمْ يُرِهِ اللَّهُ ﷻ ذَلِكَ الْبَلَاءَ أَبَدًا»^(٣).

(١) الدعوات للراوندي ص ١٨.

(٢) الخصال للشيخ الصدوق ص ٦٢١ حديث أربعائة.

(٣) الكافي للكليني ج ٢ ص ٤٧٢ باب التَّقَدُّمِ فِي الدُّعَاءِ ح ٢.

الخطوة الثانية: الدعاء مفتاح الإجابة.

حيث إنَّ الدعاء يمثل سبباً لتحقيق هدفٍ هو الإجابة من الله ﷻ، لذلك عبّرت عنه الروايات الشريفة بأنّه (مفتاحٌ للإجابة)، فعن الإمام الحسن عليه السلام قال: «ما فتح الله ﷻ على أحدٍ بابَ مسألةٍ فخرن عنه باب الإجابة»، وعن رسول الله ﷺ قال: «من فتح له من الدعاء منكم فتحت له أبواب الإجابة».

ومن المعلوم أنَّ لكلِّ بابٍ مفتاحاً خاصاً، وهذا المفتاح له تنوعات خاصة به، تكون متوافقة تماماً مع تجويف القفل؛ لكي يفتحه بصورة صحيحة، وأنَّ أيَّ خللٍ في تلك التنوعات يؤدي إلى أن لا يفتح القفل ومن ثم لا يفتح ذلك الباب، هذا في عالم الماديات. وحيث إنَّ الدعاء مفتاحُ الإجابة، مما يعني أنَّ هناك كنزاً جُعل عليها بابٌ، وأقفل هذا الباب وجُعل لقفله مفتاحٌ، وهذا المفتاح هو الدعاء، فلا بُدَّ أن يكون الدعاء متناسباً مع قفل الباب الذي تريد فتحه، لذا يجب أن يأتي بالدعاء الخاص بقفل ذلك الباب، ولذلك فعلى من يريد أن يصل إلى الإجابة، أن يراعي كلَّ قواعد إجابة الدعاء.

عن عبد الله بن سنان، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «ستصيبكم شبهة فتبقون بلا علم يُرى، ولا إمام هدى، ولا ينجو منها إلَّا من دعا بدعاء الغريق»، قلت: كيف دعاء الغريق؟ قال: «يقول: يا الله يا رحمن يا رحيم يا مقلِّب القلوب ثبَّت قلبي على دينك»، فقلت: يا الله يا رحمن يا رحيم يا مقلِّب القلوب والأبصار ثبَّت قلبي على دينك، قال: «إنَّ الله ﷻ مقلِّب القلوب والأبصار، ولكن قل كما أقول لك: يا مقلِّب القلوب ثبَّت قلبي على دينك»^(١).

وفي هذه الرواية نكتة لطيفة، وهي: أنَّ الدعاء مفتاح الإجابة، وأهل البيت عليهم السلام يعطون المفتاح الملائم تماماً لفتح باب الإجابة، فلا ينبغي الزيادة أو النقيصة في دعاء

(١) كمال الدين: ٣٥١ و٣٥٢ / باب ٣٣ / ح ٤٩.

وارد عنهم عليهم السلام، إذ لعل تلك الزيادة أو النقيصة تعرقل فتح الباب، تماماً كما أن أي مفتاح لو حصل له ذلك لما فتح بابه، ومن هنا ينبغي التأكد من كون لفظ الدعاء موافقاً حتى للقواعد النحوية، إذ لهذا الأمر - وغيره مما يدخل في سرعة استجابة الدعاء - أثر مهم في الإجابة.

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحِيمِ الْقَصِيرِ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، إِنِّي اخْتَرَعْتُ دُعَاءً.

قَالَ عليه السلام: «دَعْنِي مِنْ اخْتِرَاعِكَ، إِذَا نَزَلَ بِكَ أَمْرٌ فَأَفْزِعْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم، وَصَلِّ رَكَعَتَيْنِ تُهْدِيهِمَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم».

قُلْتُ: كَيْفَ أَصْنَعُ؟

قَالَ عليه السلام: «تَغْتَسِلُ وَتُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ تَسْتَفْتِحُ بِهِمَا افْتِتَاحَ الْفَرِيضَةِ، وَتَشْهَدُ تَشْهَدَ الْفَرِيضَةِ، فَإِذَا فَرَغْتَ مِنَ التَّشْهَدِ وَسَلَّمْتَ قُلْتَ:

اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ السَّلَامُ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَبَلِّغْ رُوحَ مُحَمَّدٍ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَرْوَاحَ الْأَيِّمَةِ الصَّادِقِينَ سَلَامِي، وَارْدُدْ عَلَيَّ مِنْهُمْ السَّلَامَ، وَالسَّلَامَ عَلَيْهِمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، اللَّهُمَّ إِنَّ هَاتَيْنِ الرَكَعَتَيْنِ هَدِيَّةٌ مِنِّي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم، فَأَثْبِنِي عَلَيْهِمَا مَا أَمَلْتُ وَرَجَوْتُ فِيكَ وَفِي رَسُولِكَ، يَا وَلِيَّ الْمُؤْمِنِينَ.

ثُمَّ تَخِرُّ سَاجِداً وَتَقُولُ: ﴿يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ، يَا حَيُّ لَا يَمُوتُ، يَا حَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ﴾ أَرْبَعِينَ مَرَّةً.

ثُمَّ ضَعْ خَدَّكَ الْأَيْمَنَ فَتَقُولُهَا أَرْبَعِينَ مَرَّةً.

ثُمَّ ضَعْ خَدَّكَ الْأَيْسَرَ فَتَقُولُهَا أَرْبَعِينَ مَرَّةً.

ثُمَّ تَرْفَعْ رَأْسَكَ وَتَمُدُّ يَدَكَ وَتَقُولُ أَرْبَعِينَ مَرَّةً.

ثُمَّ تَرُدُّ يَدَكَ إِلَى رَقَبَتِكَ وَتُلَوِّذُ بِسَبَابَتِكَ وَتَقُولُ ذَلِكَ أَرْبَعِينَ مَرَّةً.
ثُمَّ خُذْ لِحْيَتَكَ بِيَدِكَ الْيُسْرَى وَابْكْ أَوْ تَبَاكَ وَقُلْ: يَا مُحَمَّدُ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَشْكُو إِلَى اللَّهِ وَإِلَيْكَ حَاجَتِي وَإِلَى أَهْلِ بَيْتِكَ الرَّاشِدِينَ حَاجَتِي، وَبِكُمْ أَتَوَجَّهُ إِلَى اللَّهِ فِي حَاجَتِي.
ثُمَّ تَسْجُدُ وَتَقُولُ: يَا اللَّهُ يَا اللَّهُ - حَتَّى يَنْقَطِعَ نَفْسُكَ - صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَافْعَلْ بِي كَذَا وَكَذَا».

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: «فَأَنَا الضَّامِنُ عَلَى اللَّهِ ﷻ أَنْ لَا يَبْرَحَ حَتَّى تُقْضَى حَاجَتُهُ»^(١).
لذا فمن الأفضل أن ندعو بالآيات الكريمة التي جاءت بصيغة الدعاء، والأدعية الواردة عن أهل البيت عليهم السلام؛ لأنهم يعلمون مفاتيح الإجابة.

الخطوة الثالثة: آداب الدعاء.

يشير الشيخ عليه السلام في هذه العقيدة إلى أن أهل البيت عليهم السلام عندما أتخفونا بالكثير من الأدعية فذلك لأن الأدعية تتضمن:

١ - الآداب الإسلامية.

٢ - المعارف التوحيدية والفقهية والسلوكية.

من جهة أخرى، ذكرت الروايات الشريفة بعض الآداب التي ينبغي للمؤمن التأدب بها عند قراءة الدعاء حتى يُعطي الدعاء أثره ويكون ذا شأنية ليُستجاب. وهي من الأمور الكمالية التي توصل الدعاء إلى مرحلة الإجابة، ومنها:

١/ البسملة، ففي الرواية عن رسول الله ﷺ: «لا يرد دعاء أوله بسم الله الرحمن الرحيم»^(٢).

(١) الكافي للكليني ج ٣ ص ٤٧٦ باب صلاة الخوائج ح ١.

(٢) الدعوات للراوندي ص ٥٢ ح ١٣١.

٢/ التمجيد، أي تمجيد الله ﷻ وتقديسه وذكر صفاته الرحمانية وما شابه، فعن أبي عبد الله ﷺ: «كُلُّ دُعَاءٍ لَا يَكُونُ قَبْلَهُ تَحْمِيدٌ فَهُوَ أَبْتَرُ، إِنَّمَا التَّحْمِيدُ ثُمَّ الشَّنَاءُ».

قُلْتُ [بعض أصحابه]: مَا أَدْرِي مَا يُجْزِي مِنَ التَّحْمِيدِ وَالتَّمْجِيدِ؟

قَالَ ﷺ: «يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»^(١).

٣/ الصلاة على النبي محمد وآله ﷺ، عن أمير المؤمنين ﷺ أنه قال: «كُلُّ دُعَاءٍ مَحْبُوبٌ حَتَّى يُصَلِّيَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ»^(٢).

٤/ الاستشفاع بالصالحين، فعَنْ سَمَاعَةَ قَالَ: قَالَ لِي أَبُو الْحَسَنِ [الكاظم] ﷺ: «إِذَا كَانَ لَكَ يَا سَمَاعَةُ إِلَى اللَّهِ ﷻ حَاجَةٌ، فَقُلْ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَعَلِيٍّ، فَإِنَّهُمَا عِنْدَكَ شَأْنًا مِنَ الشَّأْنِ، وَقَدَرًا مِنَ الْقَدْرِ، فَبِحَقِّ ذَلِكَ الشَّأْنِ وَبِحَقِّ ذَلِكَ الْقَدْرِ، أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَأَنْ تَفْعَلَ بِي كَذَا وَكَذَا)».

فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَمْ يَبْقَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلَا مُؤْمِنٌ مُتَّحِنٌ إِلَّا وَهُوَ يَخْتَاجُ إِلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ»^(٣).

٥/ الإقرار بالذنب، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَقْرَبَ بِذَنْبِهِ أَمَامَ اللَّهِ ﷻ فَتَحَ لَهُ بَابُ الْإِجَابَةِ، ففِي الْحَدِيثِ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ ﷺ: «إِنَّمَا هِيَ الْمَدْحَةُ ثُمَّ الشَّنَاءُ ثُمَّ الْإِقْرَارُ بِالذَّنْبِ ثُمَّ الْمَسْأَلَةُ إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا خَرَجَ عَبْدٌ مِنْ ذَنْبٍ إِلَّا بِالْإِقْرَارِ»^(٤).

(١) الكافي للكليني ج ٢ ص ٥٠٣ و ٥٠٤ بَابُ التَّحْمِيدِ وَالتَّمْجِيدِ ح ٦.

(٢) كنز العمال للمتقي الهندي (ج ١ / ص ٤٩٠ و ٤٩١ / ح ٢١٥٣).

(٣) الكافي للكليني ج ٢ ص ٥٦٢ بَابُ الدُّعَاءِ لِلْكَرْبِ وَالهَمِّ وَالْحُزْنِ وَالْخَوْفِ ح ٢١.

(٤) الكافي للكليني ج ٢ ص ٤٨٤ بَابُ الشَّنَاءِ قَبْلَ الدُّعَاءِ ح ٣.

٦/ التضرع والابتهاال، فقد روي أنه كان النبي ﷺ يرفع يديه إذا ابتهل ودعا كما يستطعم المسكين، وكان ﷺ يتضرع عند الدعاء يكاد يسقط رداؤه. (١)

٧/ أن يصلي ركعتين، فإن من مظان إجابة الدعاء التي لم يخب من طلب الخير فيها هو أن يصلي الداعي ركعتين يتم ركوعهما وسجودهما، ثم يدعو.

فقد روي عن الحسن بن صالح قال: سمعت أبا عبد الله ﷺ يقول: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ التَّوَضُّوءَ وَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ فَأَتَمَّ رُكُوعَهُمَا وَسُجُودَهُمَا، ثُمَّ جَلَسَ فَأَتْنَى عَلَى اللَّهِ ﷻ وَصَلَّى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ سَأَلَ اللَّهَ حَاجَتَهُ، فَقَدْ طَلَبَ الْخَيْرَ فِي مَظَانِّهِ، وَمَنْ طَلَبَ الْخَيْرَ فِي مَظَانِّهِ لَمْ يَخِبْ». (٢)

٨/ ألا يستصغر الداعي شيئاً من الدعاء، فإن الروايات الشريفة تؤكد على أهمية طلب أي شيء من الله ﷻ مهما قل شأنه ويسر نواله حتى ملح الطعام؛ لأن ما لا يتيسر من الله ﷻ فلن يتيسر أبداً.

ولا ينحصر الدعاء في الحصول على شيء ما نحتاجه، بل يشمل طلب العون منه ﷻ، وفي هذا أيضاً لا ينبغي أن يستصغر الداعي فعلاً ما لإحرازه قدرته عليه، بل حث الروايات على الدعاء طلباً للعون منه (تبارك وتعالى) حتى في مثل إصلاح شسع النعل إذ انقطع!

فعن أمير المؤمنين ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَخْفَى أَرْبَعَةً فِي أَرْبَعَةٍ: أَخْفَى رِضَاهُ فِي طَاعَتِهِ، فَلَا تَسْتَصْغِرَنَّ شَيْئاً مِنْ طَاعَتِهِ، فَرَبِّهَا وَافِقٌ رِضَاهُ وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ. وَأَخْفَى سَخَطُهُ فِي مَعْصِيَتِهِ، فَلَا تَسْتَصْغِرَنَّ شَيْئاً مِنْ مَعْصِيَتِهِ، فَرَبِّهَا وَافِقٌ سَخَطُهُ مَعْصِيَتِهِ وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ. وَأَخْفَى إِبْجَابَتُهُ فِي دَعْوَتِهِ، فَلَا تَسْتَصْغِرَنَّ شَيْئاً مِنْ دَعَائِهِ، فَرَبِّهَا وَافِقٌ إِبْجَابَتُهُ وَأَنْتَ لَا

(١) الدعوات للراوندي ص ٢٢ ح ٢٤.

(٢) الكافي للكليني ج ٣ ص ٤٧٨ باب صَلَاةِ الْخَوَائِجِ ح ٥.

تعلم. وأخفى وليه في عبادته، فلا تستصغرن عبداً من عبيد الله، فربما يكون وليه وأنت لا تعلم»^(١).

٩/ ما دام الله ﷻ كريماً، وكرمه لا يمكن قياسه بقياسٍ ماديٍّ أو مفهوم عندنا، وبالتالي فمن آداب الدعاء المهمة أن لا يستكثر الداعي مطلوباً من الله ﷻ، بل من العيب أن نستكثر شيئاً على الله ﷻ؛ لأنه هو الكريم الغني المطلق؛ لذا روي عن الرسول ﷺ: «ذر الناس يعملون، فإن الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة وأوسطها، وفوقها عرش الرحمن، ومنها تفجر أنهار الجنة، فإذا سألتهم الله تعالى فاسألوه الفردوس»^(٢).

عن محمد بن عجلان، قال: أصابتنني فاقة شديدة ولا صديق لمضيق، ولزمني دين ثقیل وغريم يلج باقتضائه، فتوجهت نحو دار الحسن بن زيد، وهو يومئذ أمير المدينة لمعرفة كانت بيني وبينه، وشعر بذلك من حالي محمد بن عبد الله بن علي بن الحسين، وكان بيني وبينه قديم معرفة، فلقيني في الطريق فأخذ بيدي وقال لي: قد بلغني ما أنت بسبيله، فمن تؤمل لكشف ما نزل بك؟ قلت: الحسن بن زيد. فقال: إذن لا تقضى حاجتك ولا تسعف بطلبتك، فعليك بمن يقدر على ذلك، وهو أجود الأجودين، فالتمس ما تؤمله من قبله، فإني سمعت ابن عمي جعفر بن محمد يحدث عن أبيه عن جده، عن أبيه الحسين بن علي، عن أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام، عن النبي ﷺ قال: «أوحى الله إلى بعض أنبيائه في بعض وحيه إليه. وعزتي وجلالي لأقطعن أمل كل مؤمل غيري بالإياس، ولأكسونه ثوب المذلة في الناس، ولأبعدنه من فرجي وفضلي، أبؤمل عبدي في الشدائد غيري، أو يرجو سواي! وأنا الغني الجواد، بيدي مفاتيح الأبواب وهي

(١) الخصال للشيخ الصدوق (ص ٢٠٩ و ٢١٠).

(٢) كنز العمال للمتقي الهندي ج ١٤ ص ٤٥٥ ح ٣٩٢٣٨.

مغلقة وبابي مفتوح لمن دعاني، ألم يعلم أنه ما أوهنته نائبة لم يملك كشفها عنه غيري، فما لي أراه بأمله معرضاً عني، قد أعطيته بجودي وكرمي ما لم يسألني، فأعرض عني ولم يسألني وسأل في نائبة غيري! وأنا الله ابتدئ بالعطية قبل المسألة، أفأسأل فلا أجيب؟ كلا أوليس الجود والكرم لي، أوليس الدنيا والآخرة بيدي، فلو أن أهل سبع سماوات وأرضين سألوني جميعاً فأعطيت كل واحد منهم مسألته، ما نقص ذلك من ملكي مثل جناح بعوضة، وكيف ينقص ملك أنا قيمه؟ فيا بؤس لمن عصاني ولم يراقبني».

فقلت: يا بن رسول الله، أعد علي هذا الحديث، فأعاده ثلاثاً فقلت: لا والله لا سألت أحداً بعد هذا حاجة، فما لبثت أن جاءني برزق وفضل من عنده. ^(١)

وعن رسول الله ﷺ: «يدخل الجنة رجلان كانا يعملان عملاً واحداً، فيرى أحدهما صاحبه فوفقه فيقول: يا رب بَمَ أعطيته وكان عملنا واحداً؟ فيقول الله تبارك وتعالى: سألتني ولم تسألني».

ثم قال ﷺ: «اسألوا الله واجزلوا» ^(٢)، فإنه لا يتعاضمه شيء. ^(٣)

١٠/ أن يطلب عظيمًا من الله ﷻ، فلو دخل إنسانٌ على ملكٍ وأراد ذلك الملك أن يكرمه فأخبره بأن يطلب ما يشاء، فإن طلب منه شيئاً حقيراً فهو بهذا يتجرأ على الملك وربما فيه إهانة له، فكيف بمن هو عظيم العظماء؟!

على المؤمن أن يعلم أن الله ﷻ قادرٌ على كل شيءٍ وليطلب منه العظيم مما يشاء.

روي عن ربيعة بن كعب قال: قال لي ذات يوم رسول الله ﷺ: «يا ربيعة، خدمتني سبع سنين، أفلا تسألني حاجة؟» فقلت: يا رسول الله أمهلني حتى أفكر، فلما أصبحت

(١) أمالي الشيخ الطوسي ص ٥٨٤ ح ١٢٠٨ / ١٣.

(٢) أجزلت لهم في العطاء: أكثرت [هامش المصدر].

(٣) عدة الداعي لابن فهد الحلي ص ٣٦.

ودخلت عليه. قال لي: «يا ربعة هات حاجتك»، فقلت: تسأل الله ﷻ أن يدخلني معك الجنة، فقال لي: «من علمك هذا؟!» فقلت: يا رسول الله ما علمني أحد، لكن فكرت في نفسي وقلت: إن سألته ما لا كان إلى نفاذ، وإن سألته عمراً طويلاً وأولاداً كان عاقبتهم الموت.

قال ربعة: فنكس عليه السلام رأسه ساعة ثم قال: «أفعل ذلك، فأعني بكثرة السجود». ^(١)
 ١١/ تعميم الدعاء، فقد روي عن النبي ﷺ: «إذا دعا أحدكم فليعم، فإنه أوجب للدعاء، ومن قدم أربعين رجلاً من إخوانه قبل أن يدعو لنفسه، استُجيب له فيهم وفي نفسه». ^(٢)

١٢/ اختيار الأوقات المناسبة، كعقب الفريضة، وعند نزول المطر، وعند ظهور آية معجزة لله ﷻ في أرضه، وفي الأسحار قبيل الفجر، وعند زيارة المريض وفي المساجد، وفي يوم عرفة، وفي شهر رمضان، وتحت قبة الإمام الحسين عليه السلام، فلهذه الأوقات والأماكن لها مدخلية في إجابة الدعاء.

١٣/ الإلحاح على الله ﷻ، فلا تيأس من الله ﷻ، إذ لا خلل في ساحة الله ﷻ ففي الحديث عن الرسول ﷺ: «إن الله يحب السائل اللحوح». ^(٣)

وفي حديث آخر عنه ﷺ: «رَحِمَ اللهُ عَبْدًا طَلَبَ مِنْ اللهِ ﷻ حَاجَةً، فَأَلَحَّ فِي الدُّعَاءِ، اسْتُجِيبَ لَهُ أَوْ لَمْ يُسْتَجَبْ لَهُ. وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَادْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾» ^(٤). ^(٥)

(١) الدعوات للراوندي ص ٣٩ ح ٩٥.

(٢) الدعوات للراوندي ص ٢٦ ح ٤٠.

(٣) عدة الداعي لابن فهد الحلي ص ١٤٣.

(٤) مريم ٤٨.

(٥) الكافي للكليني ج ٢ ص ٤٧٥ بَابُ الْإِلْحَاحِ فِي الدُّعَاءِ وَالتَّلَبُّثِ ح ٦.

وهذه الرواية تبين أنَّ الإلحاح مطلوبٌ ليس لطلب الإجابة فقط، وإنَّما هو بنفسه مطلوب لذاته.

هل الدعاء الجماعي بدعة؟

من الإشكالات التي أوردها بعض العامة على المدرسة الإمامية: أنَّ الدعاء الجماعي بدعةٌ، وواضحٌ أنَّ الدعاء الجماعي يكون إمَّا بدعاء شخصٍ يؤمِّن عليه جماعةٌ من المؤمنين، أو أنَّ يشترك جماعةٌ بالدعاء.

ومستندهم على أنَّ الدعاء الجماعي بدعةٌ أنَّ النبي ﷺ لم يفعله، وكذلك الصحابة. وحيث إنَّ الدعاء الجماعي ظاهرةٌ بارزةٌ عند الشيعة، لذا كان من الضروري التصدي لرد هذه الشبهة عبر التالي:

الرد الأول: مناقشة استنادهم إلى عدم فعل النبي ﷺ

تقدّم أنَّ استدلالهم على أنَّ الدعاء الجماعي بدعة هو عدم فعله من قبل النبي ﷺ والصحابة، وهو مستندهم في إثارة الكثير من الشبهات والإشكالات حول الفكر الإمامي. ويمكن ردّه: بأنَّ فعل المعصوم مطلقاً يدلُّ على الإباحة بالمعنى الأعم، بمعنى عدم حرمة، فربما يكون واجباً أو مستحباً أو مباحاً، وكذلك ترك المعصوم لفعلٍ ما يدلُّ على عدم وجوبه، فقد يكون تركه لأنه حرامٌ أو مكروهٌ أو مباحٌ.

إذن عدم فعل النبي ﷺ لا يدلُّ على الحرمة فقط، فقد يكون مكروهاً أو مباحاً، بل وفقاً لرأي الجانب الآخر قد يكون مستحباً؛ لقولهم بإمكان ترك المعصوم للمستحب. وعلى أيٍّ من الأحوال المتقدمة، فإنَّ استدلالهم هذا غير صحيح.

الرد الثاني: مناقشة استنادهم إلى حجية عدم فعل الصحابة.

ومما استندوا عليه على كون الدعاء الجماعي بدعةً هو عدم فعله من قبل الصحابة،

والصحيح أن لا حجة لذلك؛ لأن الحجة تقتصر على المعصوم بفعله وقوله وتقريره، وحيث لا صحابي معصوم (غير أهل البيت عليهم السلام)، إذن لا حجة لعدم فعلهم مطلقاً. ولو تنزلنا، فيأتي فيهم ما أوردناه في الرد الأول.

الرد الثالث: الأصل في الأعمال الإباحة.

كلُّ عملٍ لم يرد نصٌّ في تحريمه، ولم يكن مصداقاً من مصاديق فعل المحرم، أي لم يدخل تحت عنوان محرم هو فعلٌ مباح؛ لأنَّ الأصل في الأفعال الإباحة، كما أنَّ الأصل في الأشياء الإباحة. وحيثُ لم يرد نصٌّ بتحريم الدعاء الجماعي، ولم يكن مصداقاً من مصاديق عملٍ محرم، فهو مباح.

الرد الرابع: أعمال جماعية مشروعة.

هناك الكثير من الأعمال العبادية المتفق عليها هي في الحقيقة نوعٌ من أنواع الدعاء الجماعي، نحو صلاة الجماعة وصلاة الاستسقاء، فهذه الصلوات تتضمن دعاء، بل إنَّهم يؤدون دعاءً جماعياً طويلاً بعد إكمالهم الركعة المائة من صلاة التراويح، وطالما جازت تلك العبادات فالدعاء الجماعي أيضاً يجوز وإلا كان تحريمهم للدعاء الجماعي من قبيل الكيل بمكيالين.

كل ما تقدّم من ردودٍ إنَّها هي ردودٌ جدلية، وأما الرد الأمثل أو الجواب الحلي فهو ما سيأتي.

الرد الخامس: الدعاء الجماعي ثابتٌ بالسنة المطهرة.

اتفقت كلمة المسلمين على أنَّ السنة النبوية المطهرة هي ثاني مصادر التشريع بعد القرآن الكريم، وهناك أحاديث كثيرة وردت عن أئمتنا عليهم السلام تدلُّ على استحباب الدعاء الجماعي، وحيثُ إنَّه ثبت أنَّهم عليهم السلام يُفتنون عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فالدعاء الجماعي

إذن ثابتٌ بالسنة النبوية المطهرة.

وهذا الدليل يكفيها في شرعية الدعاء الجماعي، فإن قنع الآخر فيها، وإلا فنحن لسنا ملزمين باتباعه ولا بإقناعه إن كان معانداً.

في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَا مِنْ رَهْطٍ أَرْبَعِينَ رَجُلًا اجْتَمَعُوا فَدَعَوْا اللَّهَ ﷻ فِي أَمْرٍ، إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُمْ، فَإِنْ لَمْ يَكُونُوا أَرْبَعِينَ فَأَرْبَعَةٌ يَدْعُونَ اللَّهَ ﷻ عَشْرَ مَرَّاتٍ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُمْ، فَإِنْ لَمْ يَكُونُوا أَرْبَعَةً فَوَاحِدٌ يَدْعُو اللَّهَ أَرْبَعِينَ مَرَّةً فَيَسْتَجِيبُ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ لَهُ». ^(١)

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام: «كَانَ أَبِي عليه السلام إِذَا حَزَنَهُ أَمْرٌ، جَمَعَ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ ثُمَّ دَعَا وَأَمَّنُوا». ^(٢)

وفي حديث آخر عنه عليه السلام: «الدَّاعِي وَالْمُؤَمِّنُ فِي الْأَجْرِ شَرِيكَانِ». ^(٣)

والخلاصة: أن ادعاءهم مجرد شبهة واهية ولا دليل علمي لها.

(١) الكافي ج ٢ ص ٤٨٧ / بَابُ الْاجْتِمَاعِ فِي الدُّعَاءِ ح ١.

(٢) الكافي ج ٢ ص ٤٨٧ / بَابُ الْاجْتِمَاعِ فِي الدُّعَاءِ ح ٣.

(٣) الكافي ج ٢ ص ٤٨٧ / بَابُ الْاجْتِمَاعِ فِي الدُّعَاءِ ح ٤.

أدعية الصحيفة السجادية

قال الشيخ رحمته الله:

«أدعية الصحيفة السجادية:

بعد واقعة الطفّ المحزنة، وتملّك بني أمية ناصية أمر الأمة الإسلامية، فأوغلوا في الاستبداد وولغوا في الدماء واستهتروا في تعاليم الدين بقي الإمام زين العابدين وسيد الساجدين عليه السلام جلس داره محزوناً ثاكلاً، وجلس بيته لا يقربه أحدٌ ولا يستطيع أن يُفضي إلى الناس بما يجب عليهم وما ينبغي لهم.

فاضطرّ أن يتخذ من أسلوب الدعاء -الذي قلنا إنّهُ أحدُ الطرق التعليمية لتهديب النفوس- ذريعةً لنشر تعاليم القرآن وآداب الإسلام وطريقة آل البيت، ولتلقين الناس روحية الدين والزهد، وما يجب من تهذيب النفوس والأخلاق وهذه طريقةٌ مُبتكرةٌ له في التلقين لا تحوم حولها شبهة المطاردين له، ولا تقوم بها عليه الحجة لهم، فلذلك أكثر من هذه الأدعية البليغة، وقد جمعت بعضها (الصحيفة السجادية) التي سُميت بـ(زبور آل محمد). وجاءت في أسلوبها ومراميها في أعلى أساليب الأدب العربي وفي أسمى مرامي الدين الحنيف وأدقّ أسرار التوحيد والنبوة، وأصح طريقة لتعليم الأخلاق المحمدية والآداب الإسلامية. وكانت في مختلف الموضوعات التربوية الدينية، فهي تعليمٌ للدين والأخلاق في أسلوب الدعاء، أو دعاءً في أسلوب تعليم الدين والأخلاق. وهي بحق بعد القرآن ونهج البلاغة من أعلى أساليب البيان العربي وأرقى المناهل الفلسفية في الإلهيات والأخلاقيات:

فمنها: ما يُعَلِّمُكُمُ كَيْفَ تُحِبُّوا اللَّهَ وَتُقَدِّسَهُ وَتُحْمَدَهُ وَتُشْكِرَهُ وَتُنُوبُ إِلَيْهِ.

ومنها: ما يُعَلِّمُكُمُ كَيْفَ تُنَاجِيهِ وَتُخَلِّوْا بِهِ بَسْرًا وَتَنْقَطِعَ إِلَيْهِ.

ومنها: ما يبسط لك معنى الصلاة على نبيه ورسله وصفوته من خلقه وكيفيتها.

ومنها: ما يُفهِمُكُمُ مَا يَنْبَغِي أَنْ تُبَرِّبَ بِهِ وَالِدِيكَ.

ومنها: ما يشرح لك حقوق الوالد على ولده أو حقوق الولد على والده أو حقوق الجيران أو حقوق الأرحام أو حقوق المسلمين عامة أو حقوق الفقراء على الأغنياء وبالعكس.

ومنها: ينبهك على ما يجب إزاء الديون للناس عليك وما ينبغي أَنْ تعمله في الشؤون الاقتصادية والمالية، وما ينبغي أَنْ تُعاملَ به أقرانك وأصدقاءك وكافة الناس ومن تستعملهم في مصالحك.

ومنها: ما يجمع لك بين جميع مكارم الأخلاق ويصلح أَنْ يكون منهاجاً كاملاً لعلم الأخلاق.

ومنها: ما يُعَلِّمُكُمُ كَيْفَ تُصْبِرَ عَلَى الْمَكَارِهِ وَالْحَوَادِثِ، وَكَيْفَ تُتَلَقَّى حَالَاتِ الْمَرَضِ وَالصَّحَّةِ. ومنها: ما يشرح لك واجبات الجيوش الإسلامية وواجبات الناس معهم.. إلى غير ذلك مما تقتضيه الأخلاق المحمدية والشرعية الإلهية، وكلُّ ذلك بأسلوب الدعاء وحده.

والظاهرة التي تطفو على أدعية الإمام عدة أمور:

الأول: التعريف بالله ﷻ، وعظمته وقدرته، وبيان توحيده، وتنزيهه بأدق التعبيرات العلمية وذلك يتكرّر في كلّ دعاءٍ بمختلف الأساليب، مثل ما تقرأ في الدعاء الأول: «الحمد لله الأول بلا أول كان قبله، والآخر بلا آخر يكون بعده، الذي قصرت عن

رؤيته أبصار الناظرين، وعجزت عن نعته أوهام الواصفين. ابتدع بقدرته الخلق ابتداءً واخترعهم على مشيته اختراعاً فتقرأ دقيق معنى الأول والآخر وتنزه الله ﷻ عن أن يُحيطُ به بصرٌ أو وهمٌ، ودقيق معنى الخلق والتكوين.

ثم تقرأ أسلوباً آخر في بيان قدرته ﷻ وتدبيره في الدعاء ٦: «الحمد لله الذي خلق الليل والنهار بقوته، وميّز بينهما بقدرته وجعل لكلّ منهما حداً محدوداً، يولجُ كُلّ واحدٍ منهما في صاحبه ويولج صاحبه فيه، بتقديرٍ منه للعباد فيما يغذوهم به وينشئهم عليه، فخلق لهم الليل ليسكنوا فيه من حركات التعب ونهضات النصب، وجعله لباساً ليلبسوا من راحته ومقامه فيكون ذلك لهم جماماً وقوةً لينالوا به لذةً وشهوةً» إلى آخر ما يُذكر من فوائد خلق النهار الليل وما ينبغي أن يشكره الانسان من هذا النعم.

وتقرأ أسلوباً آخر في بيان أن جميع الأمور بيده ﷻ في الدعاء ٧: «يا من تُحلُّ به عُقْدُ المكاره ويا من يُفثأ به حدُّ الشدائد، ويا من يُلتمَس منه المخرج إلى روح الفرج، ذلّت لقُدرتك الصعاب، وتسبّبت بلُطفك الأسباب وجرى بقُدرتك القضاء، ومضت على إرادتك الأشياء، فهي بمشيتك دون قولك مؤتمرة، وإرادتك دون نهيك منزجرة».

الثاني: بيان فضل الله ﷻ على العبد وعجز العبد عن أداء حقّه، مهما بالغ في الطاعة والعبادة والانقطاع إليه ﷻ كما تقرأ في الدعاء ٣٧: «اللهم إنَّ أحداً لا يبلغ من شكركَ غاية إلا حصل عليه من إحسانك ما يلزمه شكراً، ولا يبلغ مبلغاً من طاعتك وإن اجتهد إلا كان مقصراً دون استحقاقك بفضلك، فأشكر عبادك عاجزٌ عن شكرك، وأعبدهم مُقصرٌ عن طاعتك».

وبسبب عظم نعم الله ﷻ على العبد التي لا تنهاى يعجز عن شكره، فكيف إذا كان يعصيه مجترأً، فمهما صنع بعدئذٍ لا يستطيع أن يُكفّر عن معصية واحدة. وهذا ما تصوره الفقرات الآتية من الدعاء ١٦: «يا إلهي لو بكيتُ إليك حتى تسقط أشفار

عيني، وانتحبتُ حتى ينقطع صوتي، وقمتُ لك حتى تنتشر قدماي، وركعتُ لك حتى ينخلع صليبي، وسجدتُ لك حتى تتفقأ حدقتاي، وأكلتُ تراب الأرض طول عمري، وشربتُ ماء الرماد آخر دهري، وذكرتك في خلال ذلك حتى يكلّ لساني، ثم لم أرفع طرفي إلى آفاق السماء استحياءً منك ما استوجبت بذلك محو سيئةٍ واحدةٍ من سيئاتي».

الثالث: التعريف بالثواب والعقاب والجنة والنار، وأنَّ ثواب الله ﷻ كُلُّه تفضل، وأنَّ العبد يستحقُّ العقاب منه بأدنى معصيةٍ يجتري بها، والحجة عليه فيها لله ﷻ. وجميع الأدعية السجادية تلهج بهذه النعمة المؤثرة، للإيحاء إلى النفس الخوف من عقابه تعالى والرجاء في ثوابه. وكلها شواهد على ذلك بأساليبها البليغة المختلفة التي تبعث في قلب المتدبر الرعب والفزع من الإقدام على المعصية.

مثل ما تقرأ في الدعاء ٤٦: «حُجَّتْكَ قَائِمَةٌ، وسلطانك ثابتٌ لا يزول، فالويل الدائم لمن جنح عنك، والخبية الخاذلة لمن خاب منك، والشقاء الأشقى لمن اغتر بك. ما أكثر تصرفه في عذابك، وما أطول تردده في عقابك! وما أبعد غايته من الفرج! وما أقنطه من سهولة المخرج! عدلاً من قضائك لا تجور فيه، وإنصافاً من حكمك لا تحيف عليه، فقد ظهرت الحجاج وأبليت الأعذار». انتهى.

أشار الشيخ رحمه الله إلى عدة أمور نذكرها -أو نبينها بطريقة أخرى- في نقطتين إن شاء الله تعالى:

النقطة الأولى: الدعاء في منظومة وعقيدة أهل البيت ﷺ.

قد يرد إلى الذهن سؤال مفاده: لماذا تميّز مذهب أهل البيت ﷺ بعنصر الدعاء، هذا التميز الذي تُرجم إلى واقع عملي في صورة دعاء جماعي أو توسل بأهل البيت ﷺ، أو بكثرة كتب الأدعية وكثرة الروايات الواردة في باب الدعاء، فما هو السبب في ذلك؟

الجواب:

تقدّم في مباحث التوحيد والعدل الإلهي - وتحديدًا في مبحث (لا جبر ولا تفويض وإنّما أمرٌ بين أمرين) - أنّ في القضاء والقدر ثلاثة آراء:

١/ الجبر:

وقال به الأشاعرة المجبرة، الذين نفوا أن يكون للإنسان أيّ دورٍ في ما يجري في الكون عمومًا وفي فعله خصوصًا، وحصروا العلة للفعل في الله ﷻ، وأما الإنسان فهو مُجبرٌ ومجرد آلة.

وعلى هذا القول فما الغاية من الدعاء؟ فإنّك إن دعوت أو لم تدعُ فالأمر سيّان، إذ القدر الإلهي جارٍ على أيّ حال، لذا لا نجد مظهرًا واضحًا للدعاء في عقيدة المجبرة.

٢/ التفويض:

وقال به المعتزلة، حيث ذهبوا إلى تجريد الله ﷻ من سلطانه في هذا الكون، فكانوا على طرفِ النقيض مع المجبرة، إذ قالوا: إنّ كلّ ما في هذا الكون من فعلٍ بصورةٍ عامة وفعل الإنسان بصورةٍ خاصة هو موكلٌ إلى الإنسان، أي إنّ العلة التامة هي بيد الإنسان.

وبعبارةٍ فلسفية: إنّ الله ﷻ علّةٌ في حدوث العالم لا في استمراره، وهو هو ما قالت به اليهود كما حكاه الله تعالى عنهم بقوله عز من قائل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾^(١)

وعلى هذا الرأي فلا وجود للدعاء أو لا فائدة فيه أصلاً، إذ هم يقولون: إنّ المؤثر في هذا العالم هو الأسباب المادية فقط، وحيث إنّ الدعاء سببه غيبي، وبه يُطلب التدخل

الإلهي لتغيير مجريات الكون، أو لدفع بلاء معين، أو لرزق معين، وما شابه، فلا تأثير له في العالم، إذ لا دور لله تعالى في هذا العالم حسب معتقدتهم البائس.

٣/ الأمر بين أمرين:

وهو المذهب الحق لأهل البيت عليهم السلام، ومؤداه: أنَّ الفاعل المستقل في هذا الوجود هو فقط الله ﷻ، ولكنه أذن للإنسان أن يكون فاعلاً أيضاً، فالإنسان فاعلٌ بالإذن الإلهي. بمعنى أنَّ الإنسان يفعل الأفعال حقيقةً، لكن ضمن دائرة قدرة الله ﷻ وسلطانته وإرادته؛ وإرادته ﷻ لم تُسلب، بل هي متسلطة على هذا الكون، وفي الوقت عينه لم تسلبنا اختيارنا وتجبرنا على الاختيار، بل شاء الله تعالى أن يجعلنا مختارين في هذا العالم.

وقد تقدّم تفصيل هذا البحث في العدل الإلهي، وعليه، فإن الله ﷻ ترك لنا الخيار، لكن قدرته ما زالت جاريةً على حياة الإنسان وأفعاله ومؤثره فيها، بل في الكون كله، ولذا كان للدعاء أهميته البالغة، فالإنسان يتوسل بالأسباب المادية، ويذل جهده فيها، لكن في نفس الوقت يرفع يديه للسماء ويدعو الله ﷻ طالباً منه المدد الغيبي والتوفيق الإلهي.

والدعاء من أفعال الإنسان، وبما أنَّ سلطة الله ﷻ ما زالت موجودة، فهو قادرٌ على أن يعطيه أو يغير من مجريات الحياة.

وعليه، فإنَّ فلسفة الدعاء الحقيقية وثمراته المرجوة منحصرةٌ بعقيدة أهل البيت عليهم السلام، وغيرهم وإن شاركهم فيه، إلا أن اعتقادهم بالدعاء أقرب إلى لقلقة اللسان منه إلى حقيقته.

ولاستجابة الدعاء أسبابٌ أحدها: التوسل بأهل البيت عليهم السلام، وقد أشكل البعض على توسل الشيعة بأهل البيت عليهم السلام مُدعيًا أنَّ الشيعة قد شابهوا المشركين عندما توسلوا

بالوثن، فكلاهما يعتقد بأنَّ ما يتوسل به يُقربه إلى الله ﷻ!

على حين أنَّ الفرق واضح بين الاثنين، فالمشركون يتوسلون بالوثن مع اعتقادهم الجازم أنَّه مستقل في فعله عن الله ﷻ، وأما الشيعة فلا تعتقد بذلك، بل يعتقدون أنَّ كلَّ ما يفعله أهل البيت ﷺ إنما هو بإذن الله ﷻ وبعونه لا على نحوٍ مستقل، تمامًا كما كان نبي الله عيسى عليه السلام يُبرئ الأكمه والأبرص ويُحيي الموتى بإذن الله ﷻ.

كما أنَّ الله ﷻ هو من جعل أهل البيت ﷺ الطريق والوسيلة إليه والسبب المتصل بين السماء والأرض، وذلك على نقيض ما فعله مع الأوثان، إذ نهى عن التوسل بهم، وجعل ذلك جرمًا عظيمًا لا يغفر لمرتكبه حتى يتوب.

أضف إلى ذلك: فإنَّ الشيعة لم يتوسلوا بأهل البيت ﷺ إلى الله ﷻ عن طريق عبادتهم، بخلاف المشركين الذين كانوا يعبدون الأوثان بكلِّ ما لكلمة العبادة من معنى. والخلاصة: أنَّ قضية الدعاء لا تتبلور فلسفيًا أو عمليًا إلا في عقيدة أهل البيت ﷺ.

النقطة الثانية: الأدوار البارزة في حياة الإمام السجاد صلوات الله وسلامه عليه.

بمراجعة عامة لحياة الإمام السجاد عليه السلام تبرز ظواهرُ أربع نذكرها إجمالاً بعد الأخذ بنظر الاعتبار أمرين مهمين:

الأمر الأول: كان الإمام عليه السلام يمثل الامتداد الشرعي لصاحب أعظم ثورة انطلقت ضد طغيان بني أمية، ومن ثم فمن الطبيعي جدًا أن تتوجه أنظار السلطة الظالمة لتراقب كلَّ حركاته وسكناته.

الأمر الثاني: يذكر التاريخ أنَّ الفتوحات العسكرية قد اتسع مداها في زمن الإمام السجاد عليه السلام الذي أدى إلى تضخمٍ عظيم في الثروة عند شريحة واسعة من الناس،

بسبب كثرة الغنائم، ويمكن القول: إنه كلما زادت الرفاهية المادية كلما نقص الجانب الروحي، وإن لم يكن دائماً ولكن على الأغلب.

هنا برزت في حياة الإمام السجاد (عليه السلام) ظواهر أربعة:

الأولى: ظاهرة البكاء.

عُدَّ الإمام السجاد (عليه السلام) من البكّاء الخمسة.^(١)

وقد نقل في أحواله (عليه السلام) أنه ما قُدِّم إليه طعامٌ ولا شرابٌ إلا وبكى وتذكر عطش أبيه الإمام الحسين (عليه السلام).

الثانية: الإعتاق.

حيث ورد في سيرته (عليه السلام) أنه كان يشتري الكثير من العبيد ويُبقيهم عنده سنةً كاملةً يعلمهم فيها القرآن الكريم وأحكام الدين فإن كان عيد الفطر أعتقهم.

ومن الروايات التي دلت على كثرة إعتاقه ما روي عن محمد بن عجلان قال:

سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: «كان علي بن الحسين (عليه السلام) إذا دخل شهر رمضان لا يضرب

(١) عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: «البكاؤون خمسة: آدم، ويعقوب، ويوسف، وفاطمة بنت محمد، وعلي بن الحسين (عليه السلام)». فأما آدم فبكى على الجنة حتى صار في خديه أمثال الأودية، وأما يعقوب فبكى على يوسف حتى ذهب بصره، وحتى قيل له: (تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرصاً أو تكون من الهالكين) وأما يوسف فبكى على يعقوب حتى تأذى به أهل السجن فقالوا له: إما أن تبكي الليل وتسكت بالنهار، وإما أن تبكي النهار وتسكت بالليل، فصالحهم على واحد منهما، أما فاطمة فبكت على رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى تأذى بها أهل المدينة فقالوا لها: قد آذيتنا بكثرة بكائك، فكانت تخرج إلى المقابر مقابر الشهداء فتبكي حتى تقضي حاجتها ثم تنصرف، وأما علي بن الحسين فبكى على الحسين (عليه السلام) عشرين سنة أو أربعين سنة ما وضع بين يديه طعام إلا بكى حتى قال له مولى له: جعلت فداك يا ابن رسول الله إني أخاف عليك أن تكون من الهالكين، قال: (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون) إني ما أذكر مصرع بني فاطمة إلا خنقتني لذلك عبرة». [الخصال للشيخ الصدوق

عبداً له ولا أمة، وكان إذا أذنب العبد والأمة يكتب عنده: أذنب فلان، أذنبت فلانة، يوم كذا وكذا، ولم يعاقبه فيجتمع عليهم الأدب، حتى إذا كان آخر الليلة من شهر رمضان، دعاهم وجمعهم حوله، ثم أظهر الكتاب ثم قال: يا فلان فعلت كذا وكذا ولم أؤدبك أتذكر ذلك؟ فيقول: بلى يا بن رسول الله، حتى يأتي على آخرهم ويقررهم جميعاً.

ثم يقول وسطهم ويقول لهم: ارفعوا أصواتكم وقولوا: يا علي بن الحسين إن ربك قد أحصى عليك كل ما عملت، كما أحصيت علينا كل ما عملنا، ولديه كتاب ينطق عليك بالحق، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة مما أتيت إلا أحصاها، وتجد كل ما عملت لديه حاضراً، كما وجدنا كل ما عملنا لديك حاضراً، واصفح كما ترجو من المليك العفو وكما تحب أن يعفو المليك عنك، فاعف عنا تجده عفواً، وبك رحيماً، ولك غفوراً ولا يظلم ربك أحداً، كما لديك كتاب ينطق علينا بالحق، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة مما أتيناها إلا أحصاها.

فاذكر يا علي بن الحسين ذلّ مقامك بين يدي ربك الحكم العدل الذي لا يظلم مثقال حبة من خردل، ويأتي بها يوم القيامة، وكفى بالله حسيباً وشهيداً، فاعف واصفح يعفو عنك المليك ويصفح، فإنه يقول: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾^(١) قال: وهو ينادي بذلك على نفسه ويلقّنهم، وهم ينادون معه، وهو واقف بينهم يبكي وينوح، ويقول: ربّ إنك أمرتنا أن نعفو عمن ظلمنا فقد ظلمنا أنفسنا، فنحن قد عفونا عمن ظلمنا، كما أمرت، فاعف عنا فإنك أولى بذلك منا ومن المأمورين، وأمرتنا أن لا نرد سائلاً عن أبوانا، وقد أتيناك سؤالاً ومساكين، وقد أنخنا بفنائك وبيابك، نطلب نائلك ومعروفك وعطاءك، فامنن بذلك علينا، ولا تخيبنا فإنك أولى بذلك منا ومن المأمورين، إلهي كرممت فأكرمي، إذ كنت من سؤالك، وجدت بالمعروف فاخلطني

بأهل نوالك يا كريم.

ثم يقبل عليهم ويقول: قد عفوت عنكم فهل عفوتم عني ومما كان مني إليكم من سوء ملكة، فإني عليك سوء، لئيم ظالم، مملوك لملك كريم جواد عادل محسن متفضل. فيقولون: قد عفونا عنك يا سيدنا وما أسأت.

فيقول لهم قولوا: اللهم أعف عن علي بن الحسين كما عفى عنا، وأعتقه من النار كما أعتق رقابنا من الرق، فيقولون ذلك، فيقول: اللهم آمين يا رب العالمين، اذهبوا فقد عفوت عنكم، وأعتقت رقابكم رجاء للعفو عني وعتق رقبتني فيعتقهم.

فإذا كان يوم الفطر أجازهم بجوائز تصونهم وتغنيهم عما في أيدي الناس، وما من سنة إلا وكان يعتق فيها آخر ليلة من شهر رمضان ما بين العشرين رأساً إلى أقل أو أكثر. وكان يقول: إن الله تعالى في كل ليلة من شهر رمضان عند الإفطار سبعين ألف ألف عتيق من النار، كلاً قد استوجب النار، فإذا كان آخر ليلة من شهر رمضان أعتق فيها مثل ما أعتق في جميعه، وإني لأحب أن يراني الله، وقد أعتقت رقاباً في ملكي في دار الدنيا، رجاء أن يعتق رقبتني من النار.

وما استخدم خادماً فوق حول، كان إذا ملك عبداً في أول السنة أو في وسط السنة، إذا كان ليلة الفطر أعتق واستبدل سواهم في الحول الثاني، ثم أعتق كذلك كان يفعل حتى لحق بالله تعالى، ولقد كان يشتري السودان وما به إليهم حاجة يأتي بهم إلى عرفات، فيسد بهم تلك الفرج والخلال، فإذا أفاض أمر بعتق رقابهم وجوائز لهم من المال.^(١)

الثالثة: الإنفاق.

كان الإمام عليه السلام كثير الإنفاق سرّاً، حتى إن بعض الفقراء لم يعلموا به إلا بعد وفاته.

(١) إقبال الأعمال للسيد بن طاووس ج ١ ص ٤٤٣ - ٤٤٥.

فقد جاء في سيرة الإمام زين العابدين عليه السلام أنه كان عليه السلام ليخرج في الليلة الظلماء فيحمل الجراب على ظهره وفيه الصُّرَر من الدنانير والدراهم، وربّما حمل على ظهره الطعام أو الحطب حتّى يأتي باباً باباً فيقرعه، ثمّ يناول من يخرج إليه، وكان يُغطّي وجهه إذا ناول فقيراً لئلا يعرفه، فلمّا تُوفي عليه السلام فقدوا ذلك، فعلموا أنّه كان عليّ بن الحسين عليه السلام، ولمّا وُضع عليه السلام على المغتسل نظروا إلى ظهره وعليه مثل رُكَب الإبل ممّا كان يحمل على ظهره إلى منازل الفقراء والمساكين...^(١).

وعن محمّد بن إسحاق: أنّه كان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون [من] أين معاشهم، فلمّا مات عليّ بن الحسين فقدوا ما كانوا يؤثّون به بالليل^(٢).

الرابعة: الدعاء.

فقد ورثنا منه عليه السلام تراثاً ضخماً جدّاً من الأدعية كالصحيفة السجادية ودعاء أبي حمزة الثمالي وغيرها من الأدعية.

ولكلّ ظاهرة من الظواهر المتقدمة فلسفةٌ خاصّةٌ بها، نتعرف عليها تباعاً:

أولاً: فلسفة الإعتاق:

ورد في أحواله عليه السلام كما تقدّم، أنّه كان يشتري عبيداً يبقّيهم عنده فترة من الزمن وبعدها يعتقهم بصورةٍ لطيفةٍ جدّاً، ويعطيهم أموالاً ليقيموا بها أمورهم.

ونحن لا نعلم السبب الواقعي وراء ذلك، ولعله لأجل أن عملية شراء مجموعة عبيد يبقّيهم عنده فترة، ثم يعتقهم، هي عملية ذكيّةٌ جدّاً من الإمام السجادة عليه السلام فمن خلالها يربي عليه السلام ثلّةً من الشيعة المتقين المخلصين، عارفين بأمور دينهم، قادرين على نشر

(١) الخصال للشيخ الصدوق (ص ٥١٧ / ذكر ثلاث وعشرين خصلة من الخصال المحمودّة التي وُصِفَ بها عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام / ح ٤).

(٢) مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب (ج ٣ / ص ٢٩٢).

الدين، ما إن يعودوا إلى بلادهم حتى يعملوا على نشر التشيع. وما كان يزيد في أهمية هذا الأمر هو اختلاف بلدانهم التي قدموا منها، بل إن مجرد نقلهم في تلك البلدان لسمات الإمام (عليه السلام) وعظيم أخلاقه وكيفية تعامله معهم له عظيم الأثر في انجذاب أهل تلك البلدان إلى أهل البيت (عليهم السلام) وحبهم لهم، لا سيما أن بعض العبيد كانوا تحت أيدي بني أمية الذين يعاملونهم بقسوة وشدة، ولا يحترمونهم ولا يزوجونهم ولا يبايعونهم، بل كانوا يعتبرونهم طبقةً خادمة، أقل من سائر البشر، فإن بقي العبيد عندهم فقط فإنهم سيكرهون الإسلام حتمًا وينقلون صورةً مشوهةً عن الإسلام.

أما الإمام السجاد (عليه السلام) فقد كان يقدم الإسلام بأبهى صوره لهم ولبلدانهم بعد رجوعهم إليها؛ وذلك عبر معاملته الحسنة، حتى أنه زوّج أمّه (إحدى زوجات الإمام الحسين (عليه السلام)) لعبدٍ من عبيده.

روي أنه كان لعبد الملك بن مروان عينٌ بالمدينة يكتبُ إليه بأخبار ما يحدثُ فيها، وإنَّ عليَّ بن الحسين (عليه السلام) أعتقَ جاريةً ثم تزوّجها، فكتبَ العينُ إلى عبد الملك، فكتبَ عبد الملك إلى عليّ بن الحسين (عليه السلام): «أما بعدُ فقد بلغني تزويجك مولاتك، وقد علمتُ أنه كان في أكفائك من قُرَيْشٍ من تمجدُ به في الصّهر وتستنجدُ به في الولد، فلا لنفسك نظرت، ولا على ولدك أبقيت، والسلام».

فكتبَ إليه عليّ بن الحسين (عليه السلام): «أما بعدُ، فقد بلغني كتابك تُعَنِّفني بتزويجي مولاتي، وتزعمُ أنه كان في نساء قُرَيْشٍ من أتمجدُ به في الصّهر وأستنجدُ به في الولد، وأنه ليس فوق رسول الله (صلى الله عليه وآله) مُرتقاً في مجد ولا مُستزاداً في كرم، وإِنَّمَا كَانَتْ مَلِكٌ يَمِينِي خَرَجَتْ مَتَى أَرَادَ اللهُ ﷻ مِنِّي بِأَمْرِ أَلْتَمَسُ بِهِ ثَوَابَهُ، ثُمَّ ارْتَجَعْتُهَا عَلَى سُنَّتِهِ، وَمَنْ كَانَ رَكِيئاً فِي دِينِ اللهِ فَلَيْسَ يُحِلُّ بِهِ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِهِ، وَقَدْ رَفَعَ اللهُ بِالإِسْلَامِ الْخُسَيْسَةَ، وَتَمَّ بِهِ النَّقِصَةَ، وَأَذْهَبَ اللَّؤْمَ، فَلَا لُؤْمَ عَلَى أَمْرِي مُسْلِمٍ، إِنَّمَا اللَّؤْمُ لُؤْمُ الْجَاهِلِيَّةِ، وَالسَّلَامُ».

فَلَمَّا قَرَأَ الْكِتَابَ رَمَى بِهِ إِلَى ابْنِهِ سُلَيْمَانَ فَقَرَأَهُ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ... لَشَدَّ مَا فَخَرَ عَلَيْكَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ (ع)! فَقَالَ: يَا بُنَيَّ لَا تَقُلْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ أَلَسَنُ بَنِي هَاشِمٍ الَّتِي تَفْلُقُ الصَّخْرَ وَتَغْرِفُ مِنْ بَحْرٍ، إِنَّ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ (ع) يَا بُنَيَّ يَرْتَفِعُ مِنْ حَيْثُ يَتَضَعُ النَّاسُ. ^(١)

وينقل في أحواله (ع) إن مولى له (ع) كان يتولى له عمارة ضيعة، فجاء ليطلعها، فأصاب منها فساداً وتضييعاً كثيراً أغاضه من ذلك ما رآه، فغمه، فقرع المولى بسوط كان في يده وكان ذلك ما لم يكن منه إلى أحد قبله مثله، وندم على ما كان منه ندامة شديدة، فلما انصرف إلى منزله أرسل يطلب المولى، فأثاه فوجده مقارباً والسوط بين يديه، فظن يريد عقوبته، فاشتد خوفه. فأخذ علي بن الحسين (ع) السوط، ومد يده إليه، وقال: «يا هذا قد كان مني إليك ما لم يتقدم لي مثله، وكانت هفوة وزلة. فدونك السوط اقتص مني».

فقال المولى: يا مولاي والله إن ظننت إلا أنك تريد عقوبتي، وأنا مستحق العقوبة فكيف أقتص منك؟! قال (ع): «ويحك اقتص». قال: معاذ الله أنت في حل وسعة. فكرر عليه مراراً والمولى في ذلك يتعاضم قوله ويجلله، فلما لم يره يقتص قال له (ع): «أما إذا أبيت، فالضيعة صدقة عليك، فأعطاه إياه». ^(٢)

بهذه الصورة المنقطعة النظير يعودون إلى بلدانهم حاملين معهم تعاليم الدين الإسلامي الصحيح فينشرونها هناك، من دون أن يُثير حفيظة أو أنظار السلطة إليه؛ فكما قلنا: إِنَّ مسألة شراء العبيد مسألة هينة في ذلك الوقت، وأما إعتاقهم فهو أمرٌ مستحب في الإسلام، وبذا انتشر التشيع في بلدان العالم.

(١) الكافي للكليني ج ٥ ص ٣٤٤ ح ٤.

(٢) شرح الأخبار للقاظمي النعمان المغربي ج ٣ ص ٢٦٢ ح

ثانيًا: فلسفة الإنفاق:

الإنفاق واضحٌ استحبابه في الإسلام، فينبغي على المؤمن أن يكون منفقًا، وهو نوعٌ من أنواع التعبد، ولا حاجة إلى الغور به كثيرًا.

ثالثًا: فلسفة البكاء:

يُنقل في أحوال الإمام (عليه السلام) أنه كان يستثمر كلَّ فرصةٍ لتذكير الناس بقضية أبيه الإمام الحسين (عليه السلام). ولعله -والله العالم- من أجل إحياء فاجعة الإمام الحسين (عليه السلام) بصورةٍ مستمرة، حتى أصبحت ثورته (عليه السلام) فيما بعد مفتاحًا لثوراتٍ عديدة ضد السلطة الظالمة، بعد أن كان المسلمون لا يخرجون على السلطان وإن كان ظالمًا أو فاسقًا ويخافون منه، ولكن الإمام الحسين (عليه السلام) أسقط نظرية التصنيم لمن يُسمي نفسه بخليفة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وبالتالي فتح الباب للوقوف بوجه الطاغية.

وتحتاج هذه الشعلة إلى وقودٍ مستمر، والإمام السجاد (عليه السلام) كان دومًا يُثير قضية الإمام الحسين (عليه السلام) حتى تبقى هذه الشعلة متوهجةً في نفوسهم، وخصوصًا أن التوجه الروحي عند الناس يقلُّ إذا زادت الرفاهية في الجملة، فكان البكاء على الإمام الحسين (عليه السلام) وكذا الإنفاق والإعتاق تُرجع الإنسان إلى الجنبه الروحية، فكان الإمام (عليه السلام) يستهدف -والله العالم- أن يُرجع الناس إلى تلك العلاقة الروحية ويحاول أن يخفف علاقتهم بالمادة.

رابعًا: فلسفة الدعاء:

وهو من أبرز الظواهر الواضحة في حياة الإمام السجاد (عليه السلام)، فلم ركز الإمام كثيرًا على مسألة الدعاء؟

ربما لأنَّ الدعاء يمثل حركةً محورية في التوحيد مع الله (صلى الله عليه وآله)، قال (عليه السلام): ﴿قُلْ مَا يَعْبُورُ

بِكُمْ رَبِّي لَوْ لَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزِمَامٍ^(١)

بالإضافة إلى هذا فإن الدعاء من الممكن أن يضم بين جنبتيه الكثير من المعارف، تبث إلى المسلمين من دون أن تكون ملفتة للأنظار، فهي رسالة مشفرة يفهمها الذي له علاقة مع الإمام السجاد^(ع)، فقد يرسل رسالة تشير إلى مطلب عقائدي أو مطلب فقهي أو سياسي أو اقتصادي أو ثقافي من خلال الدعاء.

وبذلك يعمل الإمام السجاد سلام الله عليه على بث المعارف إلى المؤمنين وسط جو مشحون بالجواسيس والعيون التي تتقصى الإمام^(ع).

ومن أبرز تلك الأدعية أدعية الصحيفة السجادية، ولأهميتها وعمقها المعرفي، أولاهها العلماء أهمية عظمى تجلّت بكثرة الشروح لها - كما تقدمت الإشارة إليه -، حتى بلغت في بعض الإحصائيات أكثر من سبعين شرحاً تحت عناوين مختلفة^(٢).

وهي تحتوي على أربعة وخمسين دعاءً مختلفاً مشتملاً على أكثر المجالات التي يحتاجها المؤمن بدعائه.

هذا وقد رويت هذه الصحيفة بأسانيد عديدة ومنها: سندها الذي ينتهي إلى يحيى بن زيد الشهيد بن علي السجاد^(ع)، حيث نقل يحيى عن أبيه زيد بن علي أنه أخذ هذه الأدعية إملاءً من الإمام الباقر^(ع)، وأن الإمام الصادق^(ع) أخبره أنها أدعية أبيه الإمام السجاد^(ع).^(٣)

وعلى كل حال، فقد كانت ولا زالت الصحيفة السجادية موضوع الكثير من

(١) الفرقان ٧٧.

(٢) الذريعة - آقا بزرگ الطهراني - ج ١٣ ص ٣٤٥ وما بعدها، حيث ذكر عناوين تلك الشروح، ولا شك أنه بعد إحصائية الطهراني^(ع) كتبت شروح أخرى للصحيفة.

(٣) انظر: مدينة المعاجز للسيد هاشم البحراني ج ٦ ص ١٣٨ وما بعدها، والرواية طويلة.

البحوث والكتب، بل تم تبويبها من قبل بعض العلماء تبويماً موضوعياً على غرار التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، فتشكلت بعض المطالب الاقتصادية والسياسية والثقافية والعسكرية والحربية وغيرها.

وما يعيننا هو الجانب العقائدي فيها، لذا نذكر مثلاً عنه.

قال مولانا الإمام السجّاد (عليه السلام) في دعائه عند ختم القرآن: «اللَّهُمَّ وَكَمَا نَصَبْتَ بِهِ مُحَمَّدًا عَلِمًا لِلدَّلَالَةِ عَلَيْكَ، وَأَنْهَجْتَ بِهِ سُبُلَ الرِّضَا إِلَيْكَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاجْعَلِ الْقُرْآنَ وَسِيلَةً لَنَا إِلَى أَشْرَفِ مَنَازِلِ الْكَرَامَةِ، وَسَلِّمًا نَعْرُجُ فِيهِ إِلَى مَحَلِّ السَّلَامَةِ»^(١).

كلُّ سفر من أسفار بني آدم، لا بدَّ فيه من ثلاثة أمور ضرورية، لأجل الوصول بسلامة إلى الغاية والهدف، فحتّى تكون الرحلة ناجحة، مربحة، مريحة، فلا بدَّ من توفير الوسائل المهمة لهذه الأمور.

وخلاصتها ثلاثة أمور:

١ - الدليل، وكان الدليل سابقاً شخصاً له معرفة بطرق الصحراء ومداخلها ومخارجها، يستعمل النجوم والعلامات الطبيعية من تضاريس أرضية وغيرها للتوصّل إلى الغاية، وكان نادراً ما يخطأ.

وأما في العصر الحديث، فتحوّل الدليل إلى علامات تُنصب على الطرق، وإلى خرائط ترسم الطرق ومخارجها، وإلى اتّصالات عبر الأقمار الصناعية، وغيرها من الأمور. وعلى كلّ حال، لا بدَّ من دليل يدلُّك على هدفك الذي تريد أن تصل إليه.

٢ - السبيل، بمعنى طريق تمشي عليه، ومن المعلوم أنّه كلّما كان الطريق جيّداً من

(١) الصحيفة السجّادية: ١٧٨ / الدعاء رقم ٤٢. وراجع: قطاف شهر رمضان / القسم الثالث:

قبسات من الصحيفة السجّادية - الشيخ حسين عبد الرضا الأسدي - المقال رقم (١٥) / ص ١٧٩

حيث المسالك ووضوح الخطّة، وكلّما كان أكثر اختصاراً بالنسبة إلى الهدف، كلّما كان النجاح بسلوكه أوفق، والنجاة في سبيله أوثق.

٣ - الوسيلة، وقد اختلفت وسيلة التنقل عبر العصور، فلقد كانت هي ما ذكرته الآية الكريمة: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ثم تطوّرت إلى ما وصلت إليه اليوم من سيارات وطائرات وغير ذلك.

إذن، هذا ما يحتاجه الإنسان في سفره الدنيوي.

أمّا عن السفر الأخروي، فيحدّد الإمام السجّاد (عليه السلام) هذه الأمور الثلاثة فيه بالتالي:

١ - الدليل والعلم:

وذكر الإمام السجّاد (عليه السلام) أنّه هو رسول الله الأعظم محمد (عليه السلام)، حيث قال: «اللَّهُمَّ وَكَمَا نَصَبْتَ بِهِ مُحَمَّدًا عَلِمًا لِلدَّلَالَةِ عَلَيْكَ».

فهو (عليه السلام) النور الذي أخرج الناس من ظلمات الجاهلية، إلى نور التوحيد، وأخرج الناس من ظلام الظلم والجهل وقتل الأولاد خشية الإملاق وواد البنات وضياع القيم وغياب الفضيلة... فهو معلّم الناس الأوّل، وقد روي أنّه (عليه السلام) مرّ بمجلسين في مسجده، فقال: «كلاهما على خير، وأحدهما أفضل من صاحبه. أمّا هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه، فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم. وأمّا هؤلاء فيتعلّمون الفقه والعلم ويُعلّمون الجاهل، فهم أفضل. وإنّا بُعِثْتُ معلّماً»، قال: ثمّ جلس فيهم^(١).

٢ - سبيل الآخرة وطريقها:

وقد ذكر الإمام السجّاد (عليه السلام) أنّ طريق الآخرة المستقيم هم أهل البيت (عليهم السلام): «وَأُنْهَجَتْ بِآلِهِ سُبُلُ الرِّضَا إِلَيْكَ»، فهم الصراط المستقيم الذي ندعو الله تعالى أن يهدينا

إليه كل يوم في صلواتنا: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١)

عن محمد بن مسلم، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «ليس عند أحد من الناس حق ولا صواب، ولا أحد من الناس يقضي بقضاء حق إلا ما خرج منا أهل البيت، فإذا تشعبت بهم الأمور كان الخطأ منهم والصواب من قبل علي عليه السلام»^(٢).

٣ - الوسيلة:

ويذكر الإمام السجاد عليه السلام أن أفضل وسيلة لطريق الآخرة هو القرآن الكريم، حيث يقول عليه السلام: «وَاجْعَلِ الْقُرْآنَ وَسِيلَةً لَنَا إِلَى أَشْرَفِ مَنَازِلِ الْكَرَامَةِ، وَسَلْمًا نَعْرُجُ فِيهِ إِلَى حَلِّ السَّلَامَةِ».

وهذا ما ذكره صريحاً رسول الله الأعظم عليه السلام في ما روي عن أبي عبد الله، عن آبائه عليهم السلام، قال: قال رسول الله عليه السلام: «أيها الناس، إنكم في دار هدنة، وأنتم على ظهر سفر، والسير بكم سريع، وقد رأيتم الليل والنهار والشمس والقمر يلبيان كل جديد ويُقربان كل بعيد ويأتیان بكل موعود، فأعدّوا الجهاز لبعد المجاز، قال: فقام المقداد بن الأسود الكندي فقال: يا رسول الله، وما دار الهدنة؟ فقال: دار بلاغ وانقطاع، فإذا التبت عليكم الأمور كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن، فإنه شافع مشفع وماحل مصدق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار»^(٣).

وهنا ملاحظتان:

الأولى: في قوله عليه السلام «وكما نصبت به»، إشارة إلى أن قضية النبوة قضية تنصيب إلهي وكذلك قضية خلافة الرسول الأعظم عليه السلام. وقد أشار إلى هذا المطلب العقائدي الضخم

(١) الفاتحة: ٦.

(٢) بصائر الدرجات للصفار: ٥٣٩ / الجزء ١٠ / باب ١٩ / ح ٤.

(٣) الكافي للكليني ٢: ٥٩٨ و ٥٩٩ / باب في تمثيل القرآن وشفاعته لأهله / ح ٢.

بكلمة واحدة.

الثانية: إن النبي ﷺ قد دمج بين السبيل والوسيلة وجعلها شيئاً واحداً، بحيث إن الإنسان إذا أراد أن يصل إلى الهدف - وهو رضا الله ﷻ - فإنه لا يستغني عن أحدهما. وعليه، فمقولة «حسبنا كتاب الله» مقولة باطلة تخالف ما نصّ عليه الرسول ﷺ بقوله: إني تارك فيكم أمرين: أحدهما أطول من الآخر: كتاب الله جبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي، ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض...^(١)

فالتمسك بواحد فقط فمؤداه إلى الضلالة لا محالة.

إشارة: تراث الإمام السجاد عليه السلام.

خلف الإمام السجاد عليه السلام تراثاً عظيماً تمثل بـ:

١/ الصحيفة السجادية.

٢/ رسالة الحقوق.

٣/ دعاء أبي حمزة الثمالي.

٤/ روايات كثيرة في مختلف الأبواب الفقهية والعقائدية والوصايا وغيرها.

(١) الخصال للشيخ الصدوق ص ٦٥ ح ٩٧. وانظر مسند أحمد بن حنبل ج ٣ ص ١٤ وسنن الترمذي ج ٥ ص ٣٢٩ وغيرها من المصادر.

عقيدتنا في زيارة القبور

قال الشيخ رحمه الله:

«عقيدتنا في زيارة القبور:

ومما امتازت به الإمامية العناية بزيارة القبور (قبور النبي والأئمة عليهم الصلاة والسلام)) وتشبيدها وإقامة العمارات الضخمة عليها، ولأجلها يضحون بكُلِّ غالٍ ورخيص عن إيمانٍ وطيب نفس.

ومردُّ كُلِّ ذلك إلى وصايا الأئمة، وحثِّهم شيعتهم على الزيارة، وترغيبهم فيها لها من الثواب الجزيل عند الله ﷻ، باعتبار أنها من أفضل الطاعات والقربات بعد العبادات الواجبة، وباعتبار أنَّ هاتيك القبور من خير المواقع لاستجابة الدعاء والانقطاع إلى الله ﷻ. وجعلوها أيضاً من تمام الوفاء بعهود الأئمة، «إذ أنَّ لكلِّ إمامٍ عهداً في عنق أوليائه وشيعته، وأنَّ من تمام الوفاء بالعهد وحسن الأداء زيارة قبورهم، فمن زارهم رغبة في زيارتهم وتصديقاً بما رغبوا فيه كان أئمتهم شفعاءهم يوم القيامة».

وفي زيارة القبور من الفوائد الدينية والاجتماعية ما تستحق العناية من أئمتنا، فإنَّها في الوقت الذي تزيد من رابطة الولاء والمحبة بين الأئمة وأوليائهم، وتجدد في النفوس ذكر مآثرهم وأخلاقهم وجهادهم في سبيل الحق تجمع في مواسمها أشتات المسلمين المتفرقين على صعيدٍ واحدٍ؛ ليتعارفوا ويتآلفوا، ثم تطبع في قلوبهم روح الانقياد إلى الله ﷻ والانقطاع إليه وطاعة أوامره، وتلقنهم في مضامين عبارات الزيارات البليغة الواردة عن آل البيت حقيقة التوحيد والاعتراف بقدسية الإسلام والرسالة المحمدية، وما يجب على

المسلم من الخلق العالي الرصين والخضوع إلى مدبر الكائنات وشكر آلائه ونعمه، فهي من هذه الجهة تقوم بنفس وظيفة الأدعية الماثورة التي تقدّم الكلام عليها، بل بعضها يشتمل على أبلغ الأدعية وأسماها كزيارة (أمين الله) وهي الزيارة المروية عن الإمام زين العابدين عليه السلام حينما زار قبر جده أمير المؤمنين عليه السلام.

كما تفهّم هذه الزيارات الماثورة مواقف الأئمة عليهم السلام وتضحياتهم في سبيل نصره الحق وإعلاء كلمة الدين وتجردهم لطاعة الله تعالى، وقد وردت بأسلوبٍ عربيّ جزل، وفصاحةٍ عالية، وعباراتٍ سهلةٍ يفهمها الخاصّة والعامة، وهي مُحتويةٌ على أسمى معاني التوحيد ودقائقه والدعاء والابتهاال إليه تعالى. فهي بحق من أرقى الأدب الديني بعد القرآن الكريم ونهج البلاغة والأدعية الماثورة عنهم؛ إذ أودعت فيها خلاصة معارف الأئمة عليهم السلام فيما يتعلق بهذه الشؤون الدينية والتهديبية.

ثم إنّ في آداب أداء الزيارة أيضاً من التعليم والإرشاد ما يؤكد من تحقيق تلك المعاني الدينية السامية: من نحو رفع معنوية المسلم وتنمية روح العطف على الفقير، وحمله على حسن العشرة والسلوك والتحبب إلى مخالطة الناس. فإنّ من آدابها: ما ينبغي أن يصنع قبل البدء بالدخول في المرقد المطهر وزيارته.

ومنها: ما ينبغي أن يصنع في أثناء الزيارة وفيما بعد الزيارة. ونحن هنا نعرض بعض هذه الآداب للتنبيه على مقاصدها التي قلناها:

١. من آدابها أن يغتسل الزائر قبل الشروع بالزيارة ويتطهر، وفائدة ذلك فيما نفهمه واضحة، وهي أن ينظف الإنسان بدنه من الأوساخ ليقية من كثير من الأمراض والأدواء، ولئلا يتأفّف من روائحه الناس، وأن يُطهّر نفسه من الرذائل. وقد ورد في المأثور أن يدعو الزائر بعد الانتهاء من الغسل لغرض تنبيهه على تلكم الأهداف العالية فيقول: «اللهم اجعل لي نوراً وطهوراً وحرزاً كافياً من كلّ داءٍ وسقمٍ ومن كلّ آفةٍ وعاهةٍ، وطهر به

قلبي وجوارحي وعظامي ولحمي ودمي وشعري وبشري، ونحي وعظمي وما أقلت الأرض مني، واجعل لي شاهداً يوم حاجتي وفقري وفاقتي).

٢. أن يلبس أحسن وأنظف ما عنده من الثياب، فإن في الأناقة في الملبس في المواسم العامة ما يجلب الناس بعضهم إلى بعض، ويُقرب بينهم ويزيد في عزة النفوس والشعور بأهمية الموسم الذي يشترك فيه.

ومما ينبغي أن نلفت النظر إليه في هذا التعليم أنه لم يفرض فيه أن يلبس الزائر أحسن الثياب على العموم، بل يلبس أحسن ما يتمكن عليه؛ إذ ليس كل أحد يستطيع ذلك وفيه تضيق على الضعفاء لا تستدعيه الشفقة فقد جمع هذا الأدب بين ما ينبغي من الأناقة وبين رعاية الفقير وضعيف الحال.

٣. أن يتطيب ما وسعه الطيب، وفائدته كفايدة أدب لبس أحسن الثياب.

٤. أن يتصدق على الفقراء بما يعن له أن يتصدق به. ومن المعلوم فائدة التصدق في مثل هذه المواسم، فإن فيه معاونته المعوزين وتنمية روح العطف عليهم.

٥. أن يمشي على سكينته ووقار غاضاً من بصره. وواضح ما في هذا من توقير للحرم والزيارة، وتعظيم للمزور، وتوجه إلى الله ﷻ وانقطاع إليه، مع ما في ذلك من اجتناب مزاحمة الناس ومضايقتهم في المرور وعدم إساءة بعضهم إلى بعض.

٦. أن يكبر بقول: «الله أكبر»، ويكرر ذلك ما شاء. وقد تحدّد في بعض الزيارات إلى أن تبلغ المائة. وفي ذلك فائدة إشعار النفس بعظمة الله وأنه لا شيء أكبر منه. وأن الزيارة ليست إلا لعبادة الله وتعظيمه وتقديسه في إحياء شعائر الله وتأييد دينه.

٧. وبعد الفراغ من الزيارة للنبي أو الإمام يصلي ركعتين على الأقل تطوعاً وعبادة لله ﷻ؛ ليشكره على توفيقه إياه، ويهدي ثواب الصلاة إلى المزور. وفي الدعاء المأثور الذي

يدعو به الزائر بعد هذه الصلاة ما يفهم الزائر أنّ صلاته وعمله إنّما هو لله وحده وأنّه لا يعبد سواه، وليست الزيارة إلّا نوع التقرب إليه ﷺ زلفى؛ إذ يقول: «اللهم لك صليت ولك ركعت ولك سجدة وحدك لا شريك لك؛ لأنّه لا تكون الصلاة والركوع والسجود إلّا لك، لأنّك أنت الله لا إله إلّا أنت. اللهم صلّ على محمّد وآل محمّد، وتقبّل منّي زيارتي وأعطني سُؤلي بمحمّد وآله الطاهرين».

وفي هذا النوع من الأدب ما يوضّح لمن يريد أن يفهم الحقيقة عن مقاصد الأئمة وشيعتهم تبعاً لهم في زيارة القبور، وما يُلقم المتجاهلين حجراً حينما يزعمون أنّها عندهم من نوع عبادة القبور والتقرّب إليها والشرك بالله. وأغلب الظن أنّ غرض أمثال هؤلاء هو التزهيد فيما يجلب لجماعة الإمامية من الفوائد الاجتماعية الدينيّة في مواسم الزيارات؛ إذ أصبحت شوكة في أعين أعداء آل بيت محمّد، وإلّا فما نظنهم يجهلون حقيقة مقاصد آل البيت فيها. حاشا أولئك الذين أخلصوا لله نيّاتهم وتجرّدوا له في عباداتهم، وبذلوا مهجهم في نصرة دينه أن يدعو الناس إلى الشرك في عبادة الله.

٨. ومن آداب الزيارة أن يلزم للزائر حسن الصحبة لمن يصحبه وقلة الكلام إلّا بخير، وكثرة ذكر الله، والخشوع وكثرة الصلاة والصلاة على محمّد وآل محمّد، وأن يغضّ من بصره، وأن يعدو إلى أهل الحاجة من إخوانه إذا رأى منقطعاً، والمواساة لهم، والورع عما نهى عنه وعن الخصومة وكثرة الإيذان والجدال الذي فيه الإيذان.

ثم إنّّه ليست حقيقة الزيارة إلّا السلام على النبيّ أو الإمام باعتبار أنّهم «أحياءٌ عند ربّهم يُرزقون»؛ فهم يسمعون الكلام ويردّون الجواب، ويكفي أن يقول فيها مثلاً: «السلام عليك يا رسول الله» غير أنّ الأولى أن يقرأ فيها المأثور الوارد من الزيارات عن آل البيت؛ لما فيها كما ذكرنا من المقاصد العالية والفوائد الدينيّة، مع بلاغتها وفصاحتها، ومع ما فيها من الأدعية العالية التي يتّجه بها الإنسان إلى الله تعالى وحده». انتهى

هناك عدة عناوين تُبحث في هذا المجال، خلاصتها التالي:

الأول: الاستشفاع بالأئمة والتوسل بهم لقضاء الحوائج، وفيه أخذ ورد وله أدلته.

الثاني: الصلاة عند القبور.

الثالث: بناء القبور.

الرابع: القسم بالأولياء والصالحين.

الخامس: القسم على الله بالأولياء والصالحين، (اللهم إني أقسمُ عليك بنبيك ﷺ).

السادس: الإسراج على القبور.

السابع: التبرك بالقبور، من تقبيل الأضرحة وأخذ شيءٍ منها للبركة مثلاً.

الثامن: زيارة القبور.

التاسع: زيارة النساء للقبور.

وقد اقتصر المصنف رحمه الله على زيارة القبور، وجرياً على ما ذكره تقتصر على ما ذكره

فقط.

وفي زيارة القبور عدة نقاط:

الأولى: الآراء في زيارة القبور.

لم يُنقل عن أحدٍ من المسلمين الخلاف في استحباب زيارة قبور الصالحين، وهذا أمرٌ اتفق عليه جميع المسلمين، قال صاحب كتاب الفقه في المذاهب الأربعة (زيارة القبور مندوبة للاتعاظ وتذكر الآخرة، وتتأكد يوم الجمعة، ويوما قبلها، ويوما بعدها، عند الحنفية، والمالكية، وخالف الحنابلة، والشافعية، فانظر مذهبيهما تحت الخط وينبغي للزائر الاشتغال بالدعاء والتضرع والاعتبار بالموتى وقراءة القرآن للميت، فإن ذلك

ينفع الميت على الأصح، ومما ورد أن يقول الزائر عند رؤية القبور: «اللهم رب الأرواح الباقية والأجسام البالية، والشعور المتمزقة، والجلود المتقطعة، والعظام النخرة التي خرجت من الدنيا وهي بك مؤمنة، أنزل عليها روحاً منك، وسلاماً مني» ومما ورد أيضاً أن يقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» ولا فرق في الزيارة بين كون المقابر قريبة أو بعيدة، وخالف الحنابلة، فانظر مذهبهم تحت الخط، بل يندب السفر لزيارة الموتى خصوصاً مقابر الصالحين: أما زيارة قبر النبي ﷺ، فهي من أعظم القرب، وكما تندب زيارة القبور للرجال تندب أيضاً للنساء العجائز اللاتي لا يخشى منهم الفتنة إن لم تؤد زيارتهن إلى الندب أو النياحة، وإلا كانت محرمة..»^(١)

فزيارة القبور مسألة متفقٌ عليها بين المسلمين، إلا أنه وكعاداته خالف ابن تيمية ونقل عنه أن شدَّ الرحال إلى المشاهد من الشرك الذي تهدر معه الدماء والأموال. والخلاصة إنَّ عامة المسلمين قالوا باستحباب زيارة القبور إلا ابن تيمية فقد خالفهم والوهابية تبعاً له.

الثانية: مشروعية زيارة القبور.

من الواضح إنَّ الكلام مع المسلمين، والمسلم عموماً يعتمد على دليلين أساسيين: القرآن الكريم وسنة النبي الأكرم ﷺ، والعامة يُضيفون فعل الصحابة، فإذا وجدوا صحابياً يفعل أمراً ما، فإنهم يقولون بمشروعيته، كقولهم بمشروعية عبارة (الصلاة خيرٌ من النوم) في أذان الفجر؛ استناداً على قول صحابي.

وعليه، فإذا أردنا أن نتكلم عن مشروعية زيارة القبور، فليس علينا إلا أن نرجع إلى الروايات الشريفة لنجد أفعال النبي ﷺ وأفعال الصحابة، هل كانوا يزورون القبور

(١) الفقه على المذاهب الأربعة ومذهب أهل البيت ﷺ - الجزيري، الغروي، مازح - ج ١ ص ٦٩٤

أو لا؟

وقد يقول قائل: لا إشكال في الاستدلال بفعل الرسول ﷺ؛ لأنه هو المشرع، وفعله يدل - على أقل التقادير - على الإباحة، وأما الاستدلال بفعل صحابي من الصحابة، فهو أمر غير صحيح.

والجواب:

إنَّ السائل لا يخلو: إما أن يقبل بفعل الصحابي - كعبد الله بن عمر أو الزهراء ع - حجةً ودليلاً، ويقبل بفعل التابعين وتابعيهم كالشافعي أو أحمد بن حنبل، كذلك، أو لا.

فإن قبل، قلنا هذا ما نقبله من فعل المعصومين ع، ونحن يكفينا أن الزهراء ع كانت تزور قبر عم أبيها الحمزة ع، فحتى لو لم تكن هناك رواية عن الرسول ﷺ يكفينا فعلها على الأقل من جهة كونها صحابية ع.

وإلا، أي لم يقبل بفعل الصحابي حجةً بذاته، فنقول حينها: إنَّ زيارة القبور في ذلك الزمن كانت سيرةً (بمعنى أن المتدينين في ذلك الوقت كانوا يزورون القبور)، فإن كان فعلهم هذا محرماً لزم على خليفة رسول الله ﷺ أن ينه الناس ويبين لهم الحلال والحرام، فكيف كان يفعل هذا الفعل أمثال عبد الله بن عمر، وخليفة المسلمين في ذلك الوقت لم يردعه عن هذا الفعل؟ إذن يكشف ذلك عن رضا الخليفة بهذا الفعل، ومن ثم فإنَّ هذا يُدلل على مشروعيته.

وخلاصة القول: أنَّ زائر هذه القبور إما أن نعتقد بحجية فعله كالرسول الأعظم ﷺ، أو لا، فإن كان فعله بنفسه حجةً كفي به دليلاً، وإلا، فقد كان فعله على

(١) نحن نعتقد أن الزهراء ع حجة الله تعالى، وقولها حجة بلا أدنى تردد، وإنما ذكرناها هنا كصحابية من باب الإلزام.

مرأى ومسمع من الحاكم خليفة رسول الله ﷺ، وحيث إنَّ الخليفة لم ينه أو يردع أو ينهى عنه، إذن هو فعلٌ مشروع ولا إشكال فيه.

شواهد على مشروعية زيارة القبور:

إن الشواهد على مشروعية زيارة القبور عند المسلمين في الصدر الأول للإسلام كثيرة، ونحن نذكر هنا بعضاً منها مما ورد في كتب القوم:

عن عبد الله بن بريدة الأسلمي عن أبيه بريدة بن الحصيب عن رسول الله ﷺ قال: «إني كنت قد نهيتكم عن ثلاث: عن زيارة القبور، فزوروها فإن زيارتها عظة وعبرة...»^(١)

وعن ابن أبي مليكة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «اتتوا موتاكم فسلموا عليهم وصلوا عليهم، فإن لكم فيهم عبرة قال ابن أبي مليكة: ورأيت عائشة تزور قبر أخيها عبد الرحمن بن أبي بكر، ومات بالحبيشي»^(٢)، وقبره بمكة»^(٣).

وعن النبي ﷺ أنه قال: «ألا فزوروا القبور، فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة»^(٤) وعن أبي الجوزاء أوس بن عبد الله قال: قحط أهل المدينة قحطاً شديداً، فشكوا إلى عائشة فقالت: انظروا قبر النبي ﷺ فاجعلوا منه كوى إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف. قال: ففعلوا فمطرنا مطراً حتى نبت العشب، وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم، فسمي عام الفتق»^(٥).

(١) المعجم الأوسط للطبراني ج ٥ ص ١٤٧.

(٢) جبل بأسفل مكة على ستة أميال [هامش المصدر]

(٣) المصنف - عبد الرزاق الصنعاني ج ٣ ص ٥٧٠ ح ٦٧١٠.

(٤) المستدرک للحاكم النيسابوري ج ١ ص ٣٧٥.

(٥) سنن الدرامي بعد الله بن الرحمن الدرامي ج ١ ص ٤٣ و ٤٤.

وهذا يعني أنهم زاروا القبر الشريف واستشفعوا به [سنن الدارمي].

وعن عبد الجبار بن الورد قال: سمعت ابن أبي مليكة يقول: ركبت عائشة فخرج إلينا غلامها فقلت: أين ذهبت أم المؤمنين؟ قال: ذهبت إلى قبر أخيها عبد الرحمن تسلم عليه. (١)

وفي نقل البيهقي: عن عبد الله بن أبي مليكة أن عائشة أقبلت ذات يوم من المقابر فقلت لها: يا أم المؤمنين، من أين أقبلت؟ قالت: من قبر أخي عبد الرحمن بن أبي بكر. فقلت لها: أليس كان رسول الله ﷺ نهى عن زيارة القبور؟ قالت: نعم، كان نهى ثم أمر بزيارتها. (٢)

ونُقِلَ أنَّ الإمام الشافعي عندما كان ببغداد كان يتوسل بضريح الإمام أبي حنيفة ويحيى إلى ضريحه ويزوره ويسلم عليه ويتوسل إلى الله ﷻ به في قضاء حوائجه.

فقد نقل الخطيب البغدادي: عن علي بن ميمون قال: سمعت الشافعي يقول: إني لأتبرك بأبي حنيفة وأجئ إلى قبره في كل يوم - يعني زائراً - فإذا عرضت لي حاجة صليت ركعتين وجئت إلى قبره وسألت الله تعالى الحاجة عنده، فما تبعد عني حتى تقضى. (٣)

وكذلك ورد أنَّ أحمد شيخ الحنابلة كان يتوسل بقبر الإمام الشافعي في طلب العافية وقضاء الحوائج، «وقد كان الإمام أحمد يزور قبر الشافعي ويتوسل به إلى الله تعالى، بل روي أنه غسل قميص الشافعي وشرب ماءه...». (٤)

(١) التمهيد لابن عبد البر ج ٣ ص ٢٣٥.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي ج ٤ ص ٧٨.

(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١ ص ١٣٥.

(٤) الانتصار للعالمي ج ١ ص ٢١٨.

وقال العيني: «وكان الشارع [يقصد النبي الأعظم ﷺ] يأتي قبور الشهداء عند رأس الحول فيقول: «السلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار»، وكان أبو بكر وعمر وعثمان... يفعلون ذلك، وزار الشارع قبر أمه، يوم الفتح في ألف مقنع ذكره ابن أبي الدنيا، وذكر ابن أبي شيبة عن علي وابن مسعود وأنس، رضي الله تعالى عنهم، إجازة الزيارة، وكانت فاطمة عليها السلام تزور قبر حمزة عليه السلام عنه، كل جمعة. وكان عمر... يزور قبر أبيه فيقف عليه ويدعو له، وكانت عائشة... تزور قبر أخيها عبد الرحمن وقبره بمكة، ذكره أجمع عبد الرزاق. وقال ابن حبيب: لا بأس بزيارة القبور والجلوس إليها والسلام عليها عند المرور بها، وقد فعل ذلك رسول الله ﷺ، وسئل مالك عن زيارة القبور؟ فقال: قد كان نهى عنه ثم أذن فيه، فلو فعل ذلك إنسان ولم يقل إلا خيراً لم أر بذلك بأساً. وفي (التوضيح) أيضاً: والأمة مجمعة على زيارة قبر نبينا ﷺ وأبي بكر وعمر... وكان ابن عمر إذا قدم من سفر أتى قبره المكرم فقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتاه»^(١)

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ كانت تزور قبر حمزة عليه السلام ترمه وتصلحه، وقد تعلمته بحجر»^(٢)

وفي رواية أخرى: أن فاطمة ابنة رسول الله ﷺ كانت تزور قبور الشهداء بين اليومين والثلاثة، إذ روي: «وكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تأتيهم بين اليومين والثلاثة. فتبكي عندهم وتدعو»^(٣).

(١) عمدة القاري للعيني ج ٨ ص ٧٠.

(٢) تاريخ المدينة لابن شبة النميري ج ١ ص ١٣٢.

(٣) المغازي للواقدي ج ١ ص ٣١٣.

النقطة الثالثة: الأهداف من زيارة القبور، وما يترتب على زيارة قبور الصالحين والأئمة عليهم السلام من منافع.

إنَّ البحث عن أهداف هذه الشعيرة الإلهية لا يعني البحث عن العلة التامة لتشريع استحبابها، وإنَّما هي محاولة للبحث عن الحكم والمنافع والفوائد في الروايات الشريفة وفي الواقع المعاش للزائرين لقبور الأئمة عليهم السلام، وقد تقدّم الحديث عن الفرق بين العلة والحكمة.

وقد أشار الشيخ المظفر رحمته الله إلى أهداف معينة من زيارة القبور، وهي كالتالي:

١/ إنَّ زيارة القبور تمثل امتثالاً لحثَّ أهل البيت عليهم السلام على الزيارة، فهناك روايات كثيرة تحثُّ على ذلك.

فَعَنْ زَيْدِ الشَّحَّامِ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: مَا لِمَنْ زَارَ أَحَدًا مِنْكُمْ؟ قَالَ عليه السلام: «كَمَنْ زَارَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله». (١)

وروي أنه قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: «يَا عَلِيُّ، مَنْ زَارَنِي فِي حَيَاتِي أَوْ بَعْدَ مَوْتِي، أَوْ زَارَكَ فِي حَيَاتِكَ أَوْ بَعْدَ مَوْتِكَ، أَوْ زَارَ ابْنَيْكَ فِي حَيَاتِهِمَا أَوْ بَعْدَ مَوْتِهِمَا، ضَمِنْتُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ أُخَلِّصَهُ مِنْ أَهْوَالِهَا وَشَدَائِدِهَا حَتَّى أَصِيرَ بِهِ مَعِيَ فِي دَرَجَتِي». (٢)

وَعَنْ يُونُسَ بْنِ أَبِي وَهْبٍ الْقَصْرِيِّ قَالَ: دَخَلْتُ الْمَدِينَةَ فَأَتَيْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، أَتَيْتُكَ وَلَمْ أَزُرْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام. قَالَ عليه السلام: «بِئْسَ مَا صَنَعْتَ، لَوْلَا أَنَّكَ مِنْ شِيعَتِنَا مَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ! أَلَا تَزُورُ مَنْ يَزُورُهُ اللَّهُ مَعَ الْمَلَائِكَةِ وَيَزُورُهُ الْأَنْبِيَاءُ وَيَزُورُهُ الْمُؤْمِنُونَ!»

قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ مَا عَلِمْتُ ذَلِكَ. قَالَ عليه السلام: «اعْلَمْ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أَفْضَلُ

(١) الكافي للكليني ج ٤ ص ٥٧٩ بَابُ فَضْلِ الزِّيَارَاتِ وَثَوَابِهَا ح ١.

(٢) الكافي للكليني ج ٤ ص ٥٧٩ بَابُ فَضْلِ الزِّيَارَاتِ وَثَوَابِهَا ح ٢.

عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْأَئِمَّةِ كُلِّهِمْ، وَلَهُ ثَوَابُ أَعْمَالِهِمْ وَعَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فَضَّلُوا»^(١).

٢/ إنَّ الإنسان بطبعه يحب أن يُستجاب دعاؤه، وإجابة الدعاء لها شروط، ومن تلك الشروط هو أن يتحرى الداعي الأوقات والأماكن التي هي مظنة إجابة الدعاء، كمن يدعو في ليلة القدر ووقت السحر، هناك أماكن فيها مظنة استجابة الدعاء ومن تلك الأماكن هو قبور الأئمة عليهم السلام.

عن محمد بن مسلم، قال: سمعت أبا جعفر وجعفر بن محمد عليهما السلام يقولان: «إن الله ﷻ عوض الحسين عليه السلام من قتله: أن جعل الإمامة في ذريته، والشفاء في تربته، وإجابة الدعاء عند قبره، ولا تعد أيام زائريه جائئاً وراجعاً من عمره».

قال محمد بن مسلم: فقلت لأبي عبد الله عليه السلام: هذا الجلال ينال بالحسين عليه السلام فما له في نفسه؟ قال: إن الله ﷻ ألحقه بالنبي ﷺ فكان معه في درجته ومنزلته، ثم تلا أبو عبد الله ﷻ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ﴾^(٢).^(٣)

٣/ ورد في الروايات الشريفة أنَّ من تمام الوفاء بالعهد للأئمة عليهم السلام عدة أمور، منها أنَّ من يذهب للحج فإن من تمام حجه أن يزور الأئمة عليهم السلام، والروايات في هذا المجال عديدة، فعن الفضيل عن أبي جعفر عليه السلام قال: نَظَرَ إِلَى النَّاسِ يَطُوفُونَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ فَقَالَ عليه السلام: «هَكَذَا كَانُوا يَطُوفُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، إِنَّمَا أُمِرُوا أَنْ يَطُوفُوا بِهَا ثُمَّ يَنْفِرُوا إِلَيْنَا فَيُعَلِّمُونَا وَلَا يَتَّبِعُهُمْ وَمَوَدَّتْهُمْ، وَيَعْرِضُوا عَلَيْنَا نُصَرِّمَهُمْ» ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فَاجْعَلْ

(١) الكافي للكليني ج ٤ ص ٥٧٩ و ٥٨٠ بَابُ فَضْلِ الزِّيَارَاتِ وَثَوَابِهَا ح ٣.

(٢) الطور ٢١

(٣) الأمالي للشيخ الطوسي ص ٣١٧ ح ٦٤٤ / ٩١.

أَفْتِدَّةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ»^(١).^(٢)

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إِذَا حَجَّ أَحَدُكُمْ فَلْيَخْتِمِ حَبَّةً بِزِيَارَتِنَا؛ لَنَ ذَلِكَ مِنْ تَمَامِ الْحَجِّ»^(٣).

٤ / إنَّ زيارة قبور الأئمة عليهم السلام من شأنها أن تقوّي الرابطة المعنوية بين المؤمن وبين إمامه، وهذه المسألة وجدانية وواضحة جداً، فعند زيارة المؤمن الإمام البعيد رغم التكليف المادية التي من الصعب توفيرها على البعض، لكنه بالوجدان أنّا يشعر بأنَّ علاقته تقوى بالإمام عليه السلام وأنَّ هناك جانباً مادياً أضيف إلى إيمانه المعنوي، وأنَّ هناك انجذاباً بين روحه وبين تلك الاعتبار الطاهرة، وهذا ما يستشعره كلُّ غريب عن أئمتّه.

٥ / إنَّ المؤمن عندما يذهب إلى زيارة قبور أئمتّه عليهم السلام فإنَّه يتذكر مآثرهم وأخلاقهم وتعبهم وجهادهم الذي بذلوه من أجل تثبيت أركان الدين، ويتذكر ورعهم وزهدهم في الدنيا وكيف أنَّهم كانوا قد زهدوا بالدنيا بتمام معنى الكلمة، الأمر الذي يستلزم أنَّ يتمثل المؤمن بتلك الأخلاق، وأنَّ يحولها إلى سلوكٍ عملي في حياته.

ينقل عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّ بيته كان من البساطة بمكان حتى كان إذا رفع يده عليه السلام فإنَّها تضرب بالسقف، واليوم ينظر المؤمن إلى قبر أمير المؤمنين عليه السلام كيف يحيط به الذهب من كلِّ مكان، والمؤمن سيعرف حينها أنه عليه السلام عندما ترك الدنيا، فقد جاءته مرغمة لتسجد عند أعتابه.

٦ / إنَّ مواسم الزيارة تعمل كما يعمل الحج في جمع أشتات المسلمين من جميع أنحاء

(١) إبراهيم ٣٧

(٢) الكافي للكليني ج ١ ص ٣٩٢ باب أنَّ الواجب على النَّاسِ بَعْدَ مَا يَقْضُونَ مَنَاسِكَهُمْ أَنْ يَأْتُوا الْإِمَامَ فَيَسْأَلُوهُ عَنْ مَعَالِمِ دِينِهِمْ وَيُعَلِّمُوهُمْ وَلَا يَتَّخِذُوا مَوَدَّةً لَهُ - ح ١.

(٣) علل الشرائع للشيخ الصدوق ج ٢ ص ٤٥٩ باب ٢٢١ ح ١.

العالم ليؤدوا شعيرة إلهية.

٧/ إنَّ زيارة قبور الأئمة عليهم السلام بما فيها من بذل جهد ومال ومفارقة أهل وأولاد تعمل على ترويض النفس الإنسانية المؤمنة بالانقياد إلى الأئمة عليهم السلام وبالانقطاع إلى الله ﷻ وتنفيذ أوامره.

٨/ إنَّ الزيارات الواردة عن الأئمة عليهم السلام تحوي مضامين عالية وإشارات بليغة في التوحيد والنبوة ومقامات النبي ﷺ، وتكشف عن مقامات أهل البيت عليهم السلام والصالحين من أتباعهم.

مثال ذلك: ما ورد في زيارة أبي الفضل عليه السلام أنَّ الإمام الصادق عليه السلام يخاطبه بأنَّ قتله استُحلت فيه حرمة الإسلام «ولعن الله أمة استحلت منك المحارم، وانتهكت حرمة الاسلام»^(١)، وهذا يكشف عن مقام عظيم لأبي الفضل عليه السلام، فهو لم يكن مجرد قائد عسكري في جيش الإمام الحسين عليه السلام وإنَّما كان من العلماء في ركب الحسين عليه السلام؛ لأنَّنا نعلم أنَّ حرمة الإسلام حسب ما ورد في الروايات الأخرى تنتهك بقتل العالم.

ومما يشير إلى ذلك ما روي عن أبي عبد الله عليه السلام قَالَ: «إِذَا مَاتَ الْمُؤْمِنُ الْفَقِيهُ ثُلِمَ فِي الْإِسْلَامِ ثُلْمَةٌ لَا يَسُدُّهَا شَيْءٌ»^(٢).

٩/ إنَّ تلك الزيارات تحكي عن مواقف الأئمة عليهم السلام وتضحياتهم في سبيل الدين ونشر الإسلام والدعوة إلى طاعة الله ﷻ.

(١) المزار لمحمد بن جعفر المشهدي ص ٣٩١.

(٢) الكافي للكليني ج ١ ص ٣٨ بَابُ فَقْدِ الْعُلَمَاءِ - ح ٢.

عقيدتنا في معنى التشيع عند آل البيت عليهم السلام

قال الشيخ رحمه الله:

«عقيدتنا في معنى التشيع عند آل البيت:

إنّ الأئمة من آل البيت عليهم السلام لم تكن لهم همّة بعد أن انصرفوا عن أن يرجع أمر الأمة إليهم إلّا تهذيب المسلمين وتربيتهم تربيةً صالحةً كما يريدّها الله ﷻ منهم، فكانوا مع كلّ من يواليهم ويأتمنونه على سرّهم يبذلون قصارى جهدهم في تعليمه الأحكام الشرعية وتلقينه المعارف المحمّديّة، ويعرفونه ما له وما عليه.

ولا يعتبرون الرجل تابعاً وشيعَةً لهم إلّا إذا كان مطيعاً لأمر الله، مجانباً لهواه، آخذاً بتعاليمهم وإرشاداتهم. ولا يعتبرون حبّهم وحده كافياً للنجاة كما قد يمتني نفسه بعض من يسكن إلى الدعة والشهوات ويلتمس عذراً في التمرد على طاعة الله ﷻ. إنهم لا يعتبرون حبّهم وولاءهم منجاةً إلّا إذا اقترن بالأعمال الصالحة وتحلّى الموالي لهم بالصدق والأمانة والورع والتقوى.

«يا خيثمة! أبلغ موالينا أنّه لا نغني عنهم من الله شيئاً إلّا بعمل، وأنهم لن ينالوا ولايتنا إلّا بالورع، وإنّ أشدّ الناس حسرةً يوم القيامة من وصف عدلاً ثم خالفه إلى غيره».

بل هم يريدون من أتباعهم أن يكونوا دعاةً للحقّ وأدلاءً على الخير والرشاد، ويرون أنّ الدعوة بالعمل أبلغ من الدعوة باللسان: «كونوا دعاةً للناس بالخير بغير ألسنتكم، ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع».

ونحن نذكر لك الآن بعض المحاورات التي جرت لهم مع بعض أتباعهم، لتعرف مدى تشديدهم وحرصهم على تهذيب أخلاق الناس:

١. محاورة أبي جعفر الباقر عليه السلام مع جابر الجعفي: «يا جابر! أيكفى من ينتحل التشيع أن يقول بحبنا أهل البيت! فوالله ما شيعتنا إلا من أتقى الله وأطاعه.

وما كانوا يعرفون إلا بالتواضع، والتخضع، والأمانة، وكثرة ذكر الله، والصوم والصلاة، والبرّ بالوالدين، والتعاهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام، وصدق الحديث، وتلاوة القرآن، وكف الألسن عن الناس إلا من خير، وكانوا أمناء عشائريهم في الأشياء.

فاتقوا الله واعملوا لما عند الله! ليس بين الله وبين أحدٍ قرابة، أحبّ العباد إلى الله ﷻ أتقاهم وأعملهم بطاعته.

يا جابر والله ما نتقرب إلى الله ﷻ إلا بالطاعة، وما معنا براءة من النار، ولا على الله لأحدٍ من حُجّة. من كان لله مطيعاً فهو لنا وليّ، ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدوّ. وما تُنال ولايتنا إلا بالعمل والورع».

٢. محاورة أبي جعفر أيضاً مع سعيد بن الحسن:

أبو جعفر: «أيحيء أحدكم إلى أخيه فيدخل يده في كيسه فيأخذ حاجته فلا يدفعه؟»
سعيد: ما أعرف ذلك فينا.

أبو جعفر: «فلا شيء إذن».

سعيد: فالهلاك إذن.

أبو جعفر: «إنّ القوم لم يعطوا أحلامهم بعد».

٣. محاوره أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) مع أبي الصباح الكناني:

الكناني لأبي عبد الله: ما نلقى من الناس فيك؟!

أبو عبد الله: «وما الذي تلقى من الناس؟»

الكناني: لا يزال يكون بيننا وبين الرجل الكلام، فيقول: جعفري خبيث.

أبو عبد الله: «يعيركم الناس بي؟!»

الكناني: نعم!

أبو عبد الله: «ما أقلّ والله من يتبع جعفرًا منكم! إنّما أصحابي من اشتدّ ورعه، وعمل لخالقه، ورجا ثوابه. هؤلاء أصحابي!»

٤ ولأبي عبد الله (عليه السلام) كلمات في هذا الباب نقتطف منها ما يلي:

أ. «ليس منّا ولا كرامة. من كان في مصرٍ فيه مائة ألف أو يزيدون، وكان في ذلك المصر أحدٌ أروع منه».

ب. «إنّا لا نعدّ الرجل مؤمناً حتّى يكون لجميع أمرنا متّبِعاً ومريداً، ألا وإن من اتّباع أمرنا وإرادته الورع، فتزيّنوا به يرحمكم الله».

ج. «ليس من شيعتنا من لا تتحدث المخدّرات بورعه في خدورهن، وليس من أوليائنا من هو في قريةٍ فيها عشرة آلاف رجلٍ فيهم خلقٌ لله أروع منه».

د. «إنّما شيعة (جعفر) من عفّ بطنه وفرجه واشتدّ جهاده وعمل لخالقه ورجا ثوابه وخاف عقابه. فإذا رأيت أولئك فأولئك شيعة جعفر». انتهى.

رغم أنّ هذه العقيدة العديد من المداخل التي يمكن للباحث أن يدخل من خلالها، إلا أنّ الشيخ تهرّ في عبارة متن كتابه اكتفى بالإشارة إلى الجانب التربوي للتشيع، وحتى تتم الفائدة نخرج قليلاً عن عبارة الكتاب، ونُدرج النقاط الآتية:

النقطة الأولى: معنى التشيع لغةً واصطلاحاً.

قال علماء اللغة: شيعة الرجل أتباعه وأنصاره، وقالوا: شايعة إذا تابعه ووالاه على الأمر، فالشيعة في اللغة تعني الأتباع والأنصار.^(١)

وقد استعمل القرآن الكريم لفظ التشيع في عدة آيات، منها ما جاء في وصف إبراهيم عليه السلام بأنه كان من أتباع لوط عليه السلام أي على ديانته قال: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾^(٢) ومنها ما ورد في قصة نبي الله موسى (عليه وعلى نبينا وآله السلام) ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾^(٣)

فمن شيعته يعني ممن شايعه وتابعه على دينه من بني إسرائيل، وأصل الشيعة هي الفرقة من الناس.

أما المعنى الاصطلاحي فهو اسمٌ يُطلق على كلٍّ من يتولى أمير المؤمنين عليه السلام، حتى صار اسم (الشيعة) خاصاً بأتباعه عليه السلام.

النقطة الثانية: الآراء في نشأة الشيعة:

هل التشيع ووجود جماعة باسم الشيعة يوالون علياً وأولاده أجمعين عليه السلام كان من زمن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، أو هو أمرٌ وظاهرةٌ طارئة جاءت بعد زمن النبي صلى الله عليه وآله، أفرزتها بعض الضغوط والعوامل على مجموعة من الناس، أو ماذا؟

وبعبارة أخرى: هل التشيع فعلٌ أو ردة فعلٌ؟

(١) الصحاح للجوهري ج ٣ ص ١٢٤٠.

(٢) الصافات ٨٣.

(٣) القصص ١٥.

هل إنَّ التشيع ظاهرة متأصلة في الإسلام أو طارئة عليه؟

هناك عدة أقوال في هذه المسألة، نستعرضها لنعرف الحق منها:

الأول: إنَّ التشيع ولد في الفترة التي أعقبت وفاة الرسول الأكرم ﷺ، حيث تخلَّف مجموعة من المهاجرين والأنصار عن بيعة أبي بكر، أي كان التشيع ردة فعل. ومن يذهب إلى هذا الرأي اليعقوبي، حيث قال: «وتخلف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار، ومالوا مع علي بن أبي طالب، منهم: العباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، والزبير بن العوام بن العاص، وخالد بن سعيد، والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، والبراء بن عازب، وأبي بن كعب...»^(١)

وأحمد أمين المصري إذ يقول: «وكانت البذرة الأولى للشيعنة الجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبي ﷺ أن أهل بيته أولى الناس أن يخلفوه».^(٢)

الثاني: إنَّ التشيع بدأ أيام خلافة أمير المؤمنين (عليه السلام)، فبعد أن رجعت الخلافة الظاهرية لأمير المؤمنين (عليه السلام) سنحت لمحبيه وأتباعه فرصة ليبرزوا حبهم وولاءهم له، خصوصاً عندما انشق طلحة والزبير عليه (عليه السلام)، ومنذ حرب الجمل أطلق على من قاتلوا مع أمير المؤمنين (عليه السلام) اسم (الشيعنة).

ويذهب إلى هذا الرأي بن إسحاق حيث قال ابن النديم: «قال محمد بن إسحاق. لما خالف طلحة والزبير على علي (عليه السلام). وأبى الا الطلب بدم عثمان بن عفان، وقصدهما علي (عليه السلام) ليقاتلها حتى يفينا إلى أمر الله جل اسمه، تسمى من اتبعه على ذلك، الشيعة. فكان يقول شيعتي، وسهامهم (عليه السلام)».^(٣)

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٢٤.

(٢) أحمد أمين فجر الإسلام ص ٢٦٦ ط بيروت.

(٣) فهرست ابن النديم - ابن النديم البغدادي ص ٢٢٣.

وذهب البعض إلى نشأة التشيع بعد حرب صفين لا الجمل، ومنهم عبد العزيز الدهلوي حيث قال: «ظهر لقب الشيعة في سنة ٣٧ هجرية وفي هذه السنة حصلت واقعة صفين»^(١).

وعلى كلا القولين فإن التشيع إنما نشأ كردة فعل.

الثالث: إنَّ التشيع ظهر نتيجة لما أفرزته واقعة كربلاء من تطورات على الساحة السياسية في الإسلام، وذهب إلى هذا الرأي الدكتور كامل مصطفى الشبيبي في كتابه التصوف والتشيع، حيث قال: «على أننا نرى أن التشيع السياسي، وإن كان ظهر في الفترة التي افترضها الباحثون السابقون، إلا أن دلالة الاصطلاح (شيعة) على الكتلة التي ندرسها من المسلمين وانصرافه إليهم دون غيرهم، قد بدأ بحركة التواوين التي ظهرت سنة ٦١ هـ، وانتهت بالفشل سنة ٦٤ هـ، وكان قائد الحركة يلقب بشيخ الشيعة»^(٢).

وكذلك بروكلمان في تاريخ الشعوب الإسلامية، حيث يعتبر أن نشأة التشيع كردة فعل بعد واقعة عاشوراء، فقال: «والحق أن ميتة الشهداء التي ماتها الحسين والتي لم يكن لها أي أثر سياسي، قد عجلت في التطور الديني للشيعة حزب علي، الذي أصبح في ما بعد ملتقى جميع النزعات المناوئة للعرب»^(٣).

(١) الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي ج ١ ص ٣٦٠ / ط. دمشق - نقله عنه: آية الله العلامة السيد عبد الله الغريفي - التشيع نشوؤه، مراحل، مقوماته ص ٢٠ / ط التاسعة ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م / دار الإسلام.

(٢) الشبيبي: الصلة بين التصوف والتشيع ج ١ ص ٢٢ / ط. بيروت - نقله عنه: آية الله العلامة السيد عبد الله الغريفي - التشيع نشوؤه، مراحل، مقوماته ص ٢١ / ط التاسعة ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م / دار الإسلام.

(٣) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص ١٢٨ / ط. بيروت - نقله عنه: آية الله العلامة السيد عبد الله الغريفي - التشيع نشوؤه، مراحل، مقوماته ص ٢١ / ط التاسعة ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م / دار

الرابع: إنَّ التشيع أنَّما ولد في زمن الإمام الصادق عليه السلام، حيث ظهرت مقولة النص على خلافة النبي صلى الله عليه وآله التي كان يروج لها هشام بن الحكم. ومن يقول بهذا الرأي الدكتور محمد عمارة حيث يقول: «تأريخ نشأة الشيعة مقترن بالفترة الزمنية التي نشأت فيها عقيدة النص ودعوى الوصية من الرسول صلى الله عليه وآله إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، ومن هنا كان صواب ما ذهب إليه المعتزلة عندما قالوا: إن فترة إمامة جعفر الصادق عليه السلام وهي التي نهض فيها هشام بن الحكم بدور واضع قواعد التشيع ومهندس بنائه الفكري، هي الفترة التي يؤرخ بها لهذه النشأة...»^(١).

من الملاحظ أنَّ كلَّ هذه الآراء تجتمع في نقطةٍ هي: أنَّ التشيع حالةٌ طارئة على الإسلام، أيَّ لم تُكْ معروفةً في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وإنَّما نشأ بعد وفاته سواء مباشرةً أو بعد ثلاثين سنة في حكم أمير المؤمنين أو بعد واقعة عاشوراء أو في زمن الإمام الصادق عليه السلام. والصحيح أنَّ التشيع ليس معنى آخر غير الإسلام، فالإسلام هو التشيع والتشيع هو الإسلام، فليس هناك اثنيية، ومن يرى الاثنيية هو من يعتقد أنَّ التشيع طارئٌ على الإسلام. أما نحن ففي اعتقادنا أنَّ التشيع ولد منذ اللحظة الأولى التي ولد فيها الإسلام، فهو نفس الإسلام، ويدلُّ على هذه الحقيقة عدة أمور، وسنكتفي بذكر اثنين منها:

الأول: آية التبليغ:

قال ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ

الإسلام.

(١) محمد عمارة: الإسلام وفلسفة الحكم ص ١٥٨ / ط. بيروت - نقله عنه: آية الله العلامة السيد عبد الله الغريفي - التشيع نشوؤه، مراحل، مقوماته ص ٢٢ / ط التاسعة ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م / دار الإسلام.

وَاللَّهُ يَعِصُكُمْ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١﴾

ومعلومٌ سبب نزول هذه الآية، حيثُ توقف الرسول ﷺ في غدير خم أمرًا جميع الحجاج بالاجتماع هناك، بعودة من تقدم منهم ولحق من تأخر منهم، وما إن اجتمعوا جميعًا حتى عُمِلَ له منبر فرقاه خاطبًا فيهم خطبة التبليغ التي تضمنت تبليغ المسلمين بمن يخلفه بعده قائلًا: «من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه»، فنزلت الآية الكريمة في قوله ﷺ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (٢).

فالإسلام الذي ارتضاه هو الإسلام المكتمل ببيعة أمير المؤمنين ﷺ، فيكون اتباعه ﷺ هو اتباعٌ للإسلام، مما يعني أنَّ التشيع ولد مع الإسلام، فلا إسلام بلا تشيع ولا تشيع بلا إسلام. وأما الإسلام الذي يخلو من ولايته ﷺ فهو إسلامٌ ناقص، ليس بمرضي من قبله ﷺ.

الثاني: الأحاديث الكثيرة:

صرَّح النبي الأكرم ﷺ بأنَّ هناك شيعةً للإمام علي ﷺ في العديد من أحاديثه المباركة، وتناول ذكرهم فيها بالمديح والثناء، مما يدلُّ على وجود شيعة الإمام علي ﷺ في زمن النبي ﷺ، كما يدلُّ على أنَّهم مرضيون أيضًا.

روي عن جابر بن عبد الله، قال: كنا عند النبي ﷺ فأقبل علي بن أبي طالب ﷺ فقال النبي ﷺ: «قد أتاكم أخي، ثم التفت إلى الكعبة فضر بها بيده، ثم قال: والذي نفسي بيده، إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة، ثم قال: إنه أولكم إيمانًا معي، وأوفاكم بعهد الله، وأقومكم بأمر الله، وأعدلكم في الرعية، وأقسمكم بالسوية، وأعظمكم عند الله

(١) (٦٧) من سورة المائدة.

(٢) المائدة: ٣

مزية، قال: فنزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾^(١) قال: وكان أصحاب محمد رسول الله ﷺ إذا أقبل علي ﷺ قالوا: قد جاء خير البرية.^(٢) فالنبي ﷺ عبّر «إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة» مادحاً إياهم، مما يعني وجودهم في زمنه ﷺ.

وفي حديث آخر ينقله ابن حجر عن ابن عباس أيضاً في نزول هذه الآية: أخرج الحافظ جمال الدين الزرندي عن ابن عباس ﷺ أن هذه الآية لما نزلت قال النبي لعلي: «هو أنت وشيعتك تأتي أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين ويأتي عدوك غضاباً مقمحين». قال: «ومن عدوي؟» قال: «من تبرأ منك ولعنك».^(٣)

النقطة الثالثة: المراحل التي مر بها التشيع، أو السير التاريخي للتشيع.

وسنختصر خطوطاً عامة لسير التشيع من زمن النبي الأكرم ﷺ إلى الغيبة الكبرى. إنَّ البذرة الأولى للتشيع ولدت مع الإسلام، ولكن رغم هذا نجد أنَّ التشيع مرَّ بمراحل عديدة نذكرها على نحو الإجمال:

المرحلة الأولى: في زمن النبي الأكرم ﷺ.

حيث أسس النبي ﷺ للمذهب الحق عبر التصريح في عدة مناسباتٍ وبعده أساليب، ومنها بالإخبار بوقوع الاختلاف بعده ﷺ وأنَّ المنجى من هذا الاختلاف يكمن في مذهبٍ واحدٍ لا غير، وأنَّ ذلك المذهب هو مذهب العترة الطاهرة كما تُصرِّح به الكثير من الأحاديث مثل حديث السفينة والثقلين والنجوم وغيرها.

(١) البينة ٧.

(٢) أمالي الشيخ الطوسي ص ٢٥١ و ٢٥٢ ح ٤٤٨ / ٤٠.

(٣) الصواعق المحرقة لأحمد بن حجر الهيتمي المكي ص ١٦١.

وقد تقدم الكلام تفصيلاً حول دلالات هذه الأحاديث، وفي هذه المرحلة أيضاً بدأ المذهب يبرز في بعض الصحابة كما في أبي ذر وسلمان وعمار والمقداد وغيرهم.

المرحلة الثانية: في زمن الخلفاء.

وفي هذه المرحلة التزم الشيعة بأوامر أمير المؤمنين عليه السلام في خدمة الدين وبيان الحقّ بالإضافة إلى قيام بعض الشيعة بالدفاع عن ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وعن الحقّ عمومًا كمواقف أبي ذر وسلمان وعمار.

والشيعة في هذه المرحلة كانوا يعملون وفق ما أسسه أمير المؤمنين عليه السلام من تقديم مصلحة الإسلام العامة على المصلحة الخاصة، وهو ما عبر عنه أمير المؤمنين عليه السلام من خطبة له عليه السلام لما عزموا على بيعته عثمان: «لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا مِنْ غَيْرِي، وَوَاللَّهِ لَا أُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً، التَّيَّاساً لِأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِبْرَجِهِ»^(١).

وبهذا المعنى يمكن أن نجد التبرير المناسب لما كان يفعله أمير المؤمنين عليه السلام من تقديم النصيحة للخلفاء أو إجابته عن أسئلتهم أو حل المعضلات التي كانت تواجههم، فقد كان كل ذلك نابعاً من حرصه على مصلحة الإسلام العامة، فهي مرحلة تمشية الأمور العامة للمسلمين وإن كان فيها جورٌ خاصٌّ على الشيعة فضلاً عن إمامهم عليه السلام.

المرحلة الثالثة: زمن الخلافة الظاهرية لأمر المؤمنين عليه السلام.

وفي هذه المرحلة من الواضح جداً أن المؤمنين قد جهروا بحبهم لأمر المؤمنين عليه السلام وجاهدوا وقاتلوا بين يديه في صفين والجمل ونهروان، وهذه المرحلة كانت قصيرة نسبياً؛ إذ لم تتجاوز الأربع سنوات.

(١) نهج البلاغة ج ١ ص ١٢٤.

المرحلة الرابعة: في زمن الإمام الحسن (عليه السلام).

حيث الظروف الموضوعية القاسية التي أحاطت بالإمام الحسن (عليه السلام)، من خذلان الجيش له، وكثرة الخيانات، وتكتل الجبهة الأموية بقيادة معاوية ضده، وفقدان الأنصار وندرتهم إلا الثلة القليلة؛ لذلك آثر الإمام الحسن (عليه السلام) أن يحافظ على تلك الثلة القليلة للمؤمنين ولا يعرضهم للقتل، الأمر الذي عبّر عنه الإمام الباقر (عليه السلام): بأنّ الذي فعله الإمام الحسن (عليه السلام) لهذه الأمة أفضل لها مما طلعت عليه شمس.

حيث روي عن أبي جعفر (عليه السلام) أنه قال: «والله، للذي صنعه الحسن بن علي (عليه السلام) كان خيراً لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس، والله لقد نزلت هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾^(١) إِنَّمَا هِيَ طَاعَةُ الْإِمَامِ، وَطَلَبُوا الْقِتَالَ، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ مَعَ الْحُسَيْنِ (عليه السلام): ﴿قَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْ لَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ ﴿نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾^(٢) أَرَادُوا تَأْخِيرَ ذَلِكَ إِلَى الْقَائِمِ (عليه السلام)». ^(٣)

المرحلة الخامسة: في زمن الإمام الحسين (عليه السلام).

حيث أفرزت كربلاء ثلّة من الأصحاب لم ولن يأتي شبيههم؛ لقول الإمام الحسين (عليه السلام) في حقهم: «فإني لا أعلم أصحاباً ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أصحابي وأهل بيتي»^(٤)

فقد قاموا تلبيةً لأمر الإمام الحسين (عليه السلام) وناهضوا بني أمية عقائدياً وعسكرياً؛

(١) النساء ٧٧.

(٢) مأخوذ من الآية السبعة والسبعين في سورة النساء والآية الأربعة والأربعين في سورة إبراهيم.

(٣) الكافي للكليني ج ٨ ص ٣٣٠ ح ٥٠٦.

(٤) روضة الواعظين للفتال النيسابوري ص ١٨٣.

ليُثبتوا الكثير من الركائز التي أسست لجماعة الشيعة فيما بعد.

المرحلة السادسة: في إمامة الإمام السجاد عليه السلام.

وفي هذه المرحلة انقسم الشيعة إلى قسمين:

الأول: من كان يعمل سرًا حسب مقتضيات المرحلة من قضاء الحوائج للمؤمنين وتسهيل أمورهم وغيرها، وكان الإمام زين العابدين عليه السلام قد عمل على فتح الأبواب لذلك عبر الظواهر الأربعة المشهورة في حياته كما تقدم وهي (البكاء والدعاء والإنفاق والإعتاق). فمن خلال هذه الطرق الأربعة كان الإمام عليه السلام يوصل الرسائل العقائدية والفكرية وغيرها إلى من يريد أن يوصل كلامه إليه.

الثاني: من كان يعمل جهارًا مثل عبد الله بن حنظلة، الذي سُمي أبوه حنظلة بـ(غسيل الملائكة)؛ لحادثة معروفة في زمن الرسول الأكرم عليه السلام.^(١) وكان عبد الله بن

(١) روي أنه كان حنظلة بن أبي عامر رجل من الخزرج، قد تزوج في تلك الليلة التي كان في صبيحتها حرب أحد، بنت عبد الله بن أبي سلول ودخل بها في تلك الليلة، واستأذن رسول الله عليه السلام أن يقيم عندها فأنزل الله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لَنْ شِئْتُمِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور ٦٢] فأذن له رسول الله عليه السلام، فهذه الآية في سورة النور واخبار أحد في سورة آل عمران فهذا دليل على أن التأليف على خلاف ما أنزله الله، فدخل حنظلة باهله وواقع عليها فأصبح وخرج وهو جنب، فحضر القتال فبعث امرأته إلى أربعة نفر من الأنصار لما أراد حنظلة أن يخرج من عندها وأشهدت عليه انه قد واقعها فقبل لها لم فعلت ذلك؟ قالت رأيت في هذه الليلة في نومي كأن السماء قد انفرجت فوق وقع فيها حنظلة ثم انظمت، فعلمت انها الشهادة فكرهت ان لا اشهد عليه، فحملت منه. فلما حضر القتال نظر حنظلة إلى أبي سفيان على فرس يجول بين العسكرين فحمل عليه فضرب عرقوب فرسه فاكسعت الفرص وسقط أبو سفيان إلى الأرض وصاح يا معشر قريش أنا أبو سفيان وهذا حنظلة يريد قتلي وعدا أبو سفيان ومر حنظلة في طلبه فعرض له رجل من المشركين فطعنه فمشى إلى المشرك في طعنه فضربه فقتله، وسقط حنظلة إلى الأرض بين حمزة وعمر بن الجموح وعبد الله بن حزام وجماعة من الأنصار، فقال رسول الله عليه السلام

حنظلة بعد واقعة عاشوراء قد ذهب إلى يزيد في قصره، فرآه كيف يلعب القردة ويشرب الخمر فأنكر ذلك وأعلن التمرد على ملك يزيد، حيث روي: لما وثب أهل المدينة ليالي الحرة فأخرجوا بني أمية عن المدينة وأظهروا عيب يزيد بن معاوية وخلافه أجمعوا على عبد الله بن حنظلة فأسندوا أمرهم إليه فبايعهم على الموت وقال يا قوم اتقوا الله وحده لا شريك له فوالله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمي بالحجارة من السماء، إن رجلاً ينكح الأمهات والبنات والأخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة، والله لو لم يكن معي أحد من الناس لأبليت لله فيه بلاء حسناً. فتوائب الناس يومئذ يبائعون من كل النواحي، وما كان لعبد الله بن حنظلة تلك الليالي مبيت إلا المسجد.^(١)

فوقعت على إثر ذلك وقعة الحرة التي قُتل فيها خيرة الشيعة ومنهم ابن حنظلة وثمانية من أولاده، كما قُتل من وجوه قريش حوالي ٧٠٠ رجلاً! وكانت وقعةً عجيبةً غريبةً ومن أسوأ ما مرَّ على المسلمين في ذلك الوقت.

وكذلك ثورة يزيد بن علي الذي قام بالثورة ضد الغاصبين لحقَّ أهل البيت عليهم السلام.

المرحلة السابعة: في إمامة الإمامين الباقرين عليهما السلام.

وفي هذه المرحلة عمل الإمامان الباقران عليهما السلام على طرح أفكار ومفاهيم وتصورات لبناء الجماعة الصالحة، وبناء التشيع بناءً فكرياً وعقائدياً وسلوكياً رصيناً؛ لذلك نجد أن المذهب اليوم يُسمى بـ(المذهب الجعفري)، ليس لأنه تأسس في زمن الإمام الصادق عليه السلام، وإنما لأن الإمام الصادق والباقر عليهما السلام قد بيّنا الركائز الأساسية للتشيع، وكأنما صرّحوا بتلك الركائز التي كانت مغمورة قبلهم من جهة، ولتأكيدهما عليهما السلام على

رأيت الملائكة يغسلون حنظلة بين السماء والأرض بهاء المزن في صحائف من ذهب، فكان يسمى

غسيل الملائكة. [تفسير القمي ج ١ ص ١١٨]

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٥ ص ٦٦.

ضرورة التواصل والانفتاح والحضور الدائم في داخل الأمة من جهة أخرى. حتى أنها كانا يأمران شيعتهما بالصلاة على جنائز سائر المسلمين، والحضور في جماعتهم، بل وتولي الأذان في مساجدهم؛ ليروا من الشيعة الورع والعمل.

حيث روى زيد الشحام عن الإمام جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال: «يا زيد، خالقوا الناس بأخلاقهم، صلُّوا في مساجدهم، وعودوا مرضاهم، واشهدوا جنائزهم، وإن استطعتم أن تكونوا الأئمة والمؤذنين فافعلوا، فإنكم إذا فعلتم ذلك قالوا: هؤلاء الجعفرية، رحم الله جعفرًا، ما كان أحسن ما يؤدّب أصحابه، وإذا تركتم ذلك قالوا: هؤلاء الجعفرية، فعل الله بجعفر، ما كان أسوء ما يؤدّب أصحابه»^(١).

ففي الوقت الذي بين الإمامان الباقر عليه السلام ركائز التشيع وأدلته، أمروا شيعتهم بعدم الانعزال عن المجتمع بالتفوق حول الذات، بل بالدخول في أحشاء المجتمع، وأن يمارسوا حياتهم الاجتماعية بصورة لا تنقطع عن التواصل مع الآخر حتى لو كان الآخر على ضلال.

لذلك روي عن ابن مسكان، قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «إني لأحسبك إذا شتم عليّ بين يديك لو تستطيع أن تأكل أنف شاتمك لفعلت»، فقلت: إني والله جُعلت فداك، إني لهكذا وأهل بيتي، فقال لي: «فلا تفعل، فوالله لربّما سمعتُ من يشتم عليًّا وما بيني وبينه إلا أسطوانة فأستتر بها، فإذا فرغت من صلاتي فأمر به فأسلم عليه وأصافحه»^(٢).

وقد كان هذا في وقت كانت فيه التقية مكثفة والضغط السياسي مشددًا على الإمام عليه السلام، ولكن في نفس الوقت فإن الإمام عليه السلام يريد من الشيعة أن يتواصلوا مع الآخر...

(١) من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق (ج ١ / ص ٣٨٣ / ح ١١٢٨).

(٢) المحاسن ١: ٢٥٩ و ٢٦٠ / ح ٣١٣.

وقد خَلَفَ انفتاح الشيعة على سائر المسلمين فوائد كثيرة، منها: انغلاق باب التهمة الذي كان سيبقى مفتوحاً لو التزم الشيعة بالتقوقع، ومن تلك التهم: اتهام الشيعة بقول: (خان الأمين) بعد صلاتهم، ومنها اتهامهم بوجود الاختلاط المحرم في زياراتهم للمراقد المقدسة، وغيرها من التهم التي مَكَّنَ الانفتاح على سائر المسلمين اطلاعهم على كذب وزور تلك التهم والدعاوى الباطلة التي ما فتى أعداء الشيعة يلصقونها بهم، لما رأوا عن كُتُب أن أعمال الشيعة لا تخرج عن المبادئ الأساسية للإسلام.

أضف إلى ذلك فإن تغلغل الشيعة مع الآخر ربما يكون سبباً في اهتداء واستبصار الآخر، وهي فائدة مرجوة ويقصدها أهل البيت عليهم السلام.

المرحلة الثامنة: في حياة الإمام الكاظم عليه السلام.

حيث قضى الكثير من سنوات إمامته في السجن، ولكي يضمن تواصله مع شيعته ولئلا تتوقف الأمور الإدارية والاقتصادية والحسبية عموماً وما تتوقف عليه حياة الناس والمجتمع، قام الإمام الكاظم عليه السلام بتفعيل مبدأ الوكالة بصورة واسعة جداً، فأقام عليه السلام وكلاء عنه يقومون باستلام الحقوق الشرعية وإيصالها إلى مستحقيها، بالإضافة إلى قيامهم بحل النزاعات والإجابة عن الأسئلة وما شابه ذلك من أمور.

والظاهر أن مبدأ الوكالة كان موجوداً منذ زمن الإمامين الباقرين عليهم السلام، فقد كانوا يُشيرون إلى بعض أصحابهم عندما يُسألون من أين نأخذ ديننا؟ وقد تقدم الكلام في ذلك. بل وحتى في زمن أمير المؤمنين عليه السلام بل وزمن الرسول عليه السلام إذ كان يرسل الولاة إلى المدن، بيد أن هذا المبدأ في زمن الإمام الكاظم عليه السلام تفعل بشكل أكثر؛ بسبب الظرف الموضوعي الذي عاشه الإمام عليه السلام.

وقد كان للإمام الكاظم عليه السلام العديد من الوكلاء، ولكن -وللأسف- انقلب

البعض منهم على أعقابهم بعد استشهاد الإمام الكاظم (عليه السلام)؛ طمعاً فيما وقع تحت أيديهم من أموالٍ وحقوقٍ شرعية، وابتلاءً من الله (تعالى) لتمحيص الشيعة وامتحانهم. فقد ادعوا أنَّ الإمام الكاظم (عليه السلام) لم يمت بل غاب، وأنَّه هو الإمام المهدي! وبذا أنكروا إمامة الإمام الرضا (عليه السلام)، فأطلق عليهم اسم (الواقفية)؛ لوقفهم على إمامة الإمام الكاظم (عليه السلام).

ومن أشهر الواقفية: علي بن حمزة البطائني، الذي كان محل ثقة الإمام (عليه السلام) ووكيلاً له، لكنه خان الأمانة بعد وفاة الإمام الكاظم (عليه السلام)، وقد وقع بسبب خيانتة للإمام خلافٌ في رواياته بين علماء الرجال، فمنهم من يرفض رواياته تماماً، ومنهم من يقبلها تماماً، ومنهم من يفصل، فيأخذ بما روي عنه قبل انحرافه، أي قبل وفاة الإمام الكاظم (عليه السلام)، ويرد ما سواها من روايات.

وهكذا استمر التشيع من مرحلةٍ إلى أخرى يتعايش مع الظرف الموضوعي الذي يفرض نفسه بقوة السلطة وبالقبضة الحديدية عليه، وبالتالي استمر التشيع من زمن النبي (صلى الله عليه وآله) وأخذ أدواراً ومراحل عديدة، ولم ينقطع هذا المدد من إمامٍ إلى إمامٍ حسب الظرف الموضوعي المعاش حتى وصل إلى زمن الإمامين العسكريين (عليه السلام)، حيث أخذ الإمامان (عليه السلام) على عاتقهما التمهيد لغيبة الإمام الحجة (عليه السلام)؛ وذلك بتعويد الناس على عدم اللقاء المباشر بهما، وأخذاً بالابتعاد شيئاً فشيئاً عن اللقاء المباشر بهم بغيباتٍ متقطعة وبفترات قصيرة.

أضف إلى ذلك أنَّهم كانوا يدفعون بالناس إلى مراجعة من ينصبونه لهم وكيلاً عنهم، فعن أحمد بن إسحاق، قال: سألت أبا الحسن (عليه السلام) وقلت: من أعامل، أو عمَّن آخذ، وقول من أقبل؟ فقال له: «العمرى ثقتي، فما أدَّى إليك عني فعني يؤدِّي، وما قال لك عني فعني يقول، فاسمع له وأطع، فإنَّه الثقة المأمون»^(١).

(١) الكافي للكليني ١: ٣٢٩ و ٣٣٠ / باب في تسمية من رآه (عليه السلام) / ح ١.

وهكذا عوّد الإمام الهادي عليه السلام الذهنية الشيعية على أخذ الحكم الشرعي لا من الإمام مباشرة بل بواسطة منه، أي ممن ينصبه الإمام عليه السلام رغم أن الإمام موجودٌ وظاهرٌ. وقد سار الإمام العسكري عليه السلام على نهج أبيه عليه السلام، فعن أحمد بن إسحاق أنه سأل أبا محمد عليه السلام عن مثل ذلك^(١)، فقال له: «العمري وابنه ثقتان، فما أديا إليك عني فعني يؤديان، وما قال لك فعني يقولان، فاسمع لهما وأطعهما، فإنهما الثقتان المأمونان...»^(٢).

وهما السفيران الأول والثاني للإمام المهدي عليه السلام، فجعل قولهما حجة، وبذلك بدأت الذهنية الشيعية تدريجياً تألف أخذ الحكم الشرعي ممن يُنصبه الإمام عليه السلام أكثر من ذي قبل، أي إنه رغم تعود الشيعة الأخذ عن ثقات المعصومين عليه السلام، إلا أن الفكرة ترسخت أكثر في زمن الإمامين الهاديين عليه السلام.

وعندما وصلت الإمامة إلى الإمام المهدي عليه السلام كانت الذهنية الشيعية قد تعودت غياب الإمام وأخذ الأحكام الشرعية عن طريق الوكلاء، فغاب الإمام عليه السلام، ونقل مهمة بيان الأحكام الشرعية إلى السفراء أو النواب الخاصين بتأسيس منه ومن قبله الإمامان العسكريان عليه السلام.

إلا أنه بعد انتهاء الغيبة الصغرى بوفاة السفير الرابع انتهت فترة السفارة الخاصة للإمام عليه السلام، ووقعت الغيبة الكبرى، والتي كان من أبرز سماتها أن الوكلاء هذه المرة لا يُعيّنون بشخصهم من قبل الإمام، وإنما يُعيّنون بصفاتهم التي وردت في بعض الروايات، من قبيل ما روي عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً على هواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلدوه...»^(٣)

(١) أي ما ورد في الرواية السابقة.

(٢) الكافي للكليني ١: ٣٢٩ و ٣٣٠ / باب في تسمية من رآه عليه السلام / ح ١.

(٣) الاحتجاج للشيخ الطبرسي ج ٢ ص ٢٦٣.

وما ورد عن الإمام المهدي عليه السلام: «وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنهم حجّتي عليكم وأنا حجّة الله عليهم»^(١).

وهكذا أخذ التشيع منحىً جديداً، يغيب فيه الإمام المعصوم عليه السلام عن شيعته، ولكن تبقى تربطهم به واسطة، تارةً بشكل مباشر كما في السفراء الأربعة، وتارةً أخرى بشكل غير مباشر، عن طريق ما يعبر عنه اليوم بالمجتهد الجامع لشرائط التقليد، فإن كان بهذا المستوى من العلم فيمكن لغير المجتهد أن يأخذ الأحكام الشرعية منه.

ولا يخفى على الشيعي والمطلع على أحوال الشيعة، الدور البارز في المرحلة الأخيرة للعلماء والمجتهدين.

النقطة الرابعة: منزلة ولاية أهل البيت عليهم السلام في الإسلام.

إذا رجعنا إلى الأدلة الإسلامية من آياتٍ ورواياتٍ، نجد أن لا شيء في الإسلام أهم من ولاية أهل البيت عليهم السلام، فمتى ما آمنت بالله تعالى وآمنت برسوله الأكرم عليه السلام فلا أهم حينئذٍ من ولاية أهل البيت عليهم السلام، وهذا له عدة مؤشرات:

الأول: إن الولاية وحسب الروايات الشريفة هي الأمانة التي عرضها الله تعالى على الموجودات وتحملها الإنسان في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^(٢).

تكشف هذه الآية أن هذه الأمانة من العظمة بمكان بحيث لم يتحملها إلا الموجود العاقل وهو الإنسان، وأما الجبال والسموات والأرض -على كبر حجم جثتها إن صحَّ التعبير- فإنها لم تتحمل حمل هذه الأمانة.

(١) كمال الدين وتمام النعمة للشيخ الصدوق: ج ٢، ص ٤٤٠، ب ٤٥، ح ٤.

(٢) الأحزاب: ٧٢

وقد فسرت الروايات الشريفة هذه الأمانة بأنها إمامة وولاية أهل البيت عليهم السلام.

فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾: «هي ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام»^(١).

وعن الحسين بن خالد، قال: سألت أبا الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾، فقال: «الأمانة: الولاية، من ادّعاها بغير حق فقد كفر»^(٢).

وهذا يكشف عن عظيم منزلة الولاية في الإسلام بل عند الله تعالى؛ فهي أمانة من الله تعالى عند الإنسان، فإذا لم يؤد حقها كان ظلوماً جهولاً.

الثاني: بولاية أهل البيت عليهم السلام تمّ الإسلام وارتضاه الله تعالى لنا ديناً، وهو ما صرحت به آية إكمال الدين وإتمام النعمة التي نزلت في واقعة الغدير، حيث كان جهاد وعناء ونصب النبي صلى الله عليه وآله طيلة ثلاث وعشرين سنة، منها ثلاث عشرة سنة في مكة وفيها قال صلى الله عليه وآله: «ما أُوذِيَ نبيٌّ مثل ما أُوذِيَ»^(٣)، وعشر سنين في المدينة وما تضمنتها من حروبٍ وقتالٍ وأكثر من ٨٠ غزوة ومعركة قادها الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، وفي حجة الوداع وقبل التحاق الرسول صلى الله عليه وآله إلى الرفيق الأعلى بأيام قلائل لا تتجاوز ثمانين يوماً ينزل عليه الوحي: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(٤).

(١) بصائر الدرجات للصفار (ص ٩٦).

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام للشيخ الصدوق (ج ٢ / ص ٢٧٣ و ٢٧٤).

(٣) مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ٣: ٤٢.

(٤) المائدة: ٦٧.

وكان كل ذلك الجهاد والعناء الذي تقدّم لا يكتمل إلا بتبليغ هذا الأمر، وإلا كان هباءً منثوراً، فيمثل النبي ﷺ الأمر الإلهي، «حيث أوقف النبي ﷺ مائة ألف من المسلمين أو أكثر حجّوا معه حجة الوداع وعادوا معه، فلمّا بلغوا غدير خُمّ حيث مفترق طرقهم إلى مواطنهم، نادى مناديه أن يرد المتقدّم، و ينتظر المتأخّر حتّى يلحق، ثمّ قام فيهم خطيباً وهو أخذ بيد علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فقال: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟»، قالوا: بلى، قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهمّ وال من والاه وعاد من عاداه»^(١).

ويأمر المسلمين بمبايعته (عليه أزكى الصلاة والسلام) فيبايعونه، وكان ممّن أظنّب في تهنّته بالمقام عمر بن الخطّاب، فأظهر له المسرّة به وقال فيما قال: «بخ بخ يا علي، أصبحت مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة»^(٢).

وبعد أن بلغ النبي الأكرم ﷺ رسالة ربّه هذه، نزل عليه الخطاب الإلهي صادحاً: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٣).

فبولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) تمّ الإسلام ورضيه الله ﷻ لنا ديناً.

الثالث: إنّ الولاية هي حصن الله الآمن، وهي شرط التوحيد الذي ينجي من أهوال يوم القيامة، في حديث السلسلة الذهبية للإمام الرضا (عليه السلام)، حيث روي عن إسحاق بن راهويه، قال: لما وافى أبو الحسن الرضا (عليه السلام) نيسابور، وأراد أن يرحل منها إلى المأمون، اجتمع إليه أصحاب الحديث، فقالوا له: يا بن رسول الله، ترحل عنا ولا تحدثنا بحديث فنستفيده منك، وقد كان قعد في العمارية فأطلع رأسه، وقال: «سمعت

(١) دلائل الإمامة: ١٨ / تقديم الناشر؛ وراجع: كمال الدين: ٢٣٨ / باب ٢٢ / ح ٥٥.

(٢) الإرشاد: ١٧٦ و ١٧٧.

(٣) المائدة: ٣.

أبي موسى بن جعفر يقول: سمعت أبي جعفر بن محمد يقول: سمعت أبي محمد بن علي يقول: سمعت أبي علي بن الحسين يقول: سمعت أبي الحسين بن علي يقول: سمعت أبي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: سمعت جبرئيل عليه السلام يقول: سمعت الله تعالى يقول: لا إله إلا الله حصني، فمن دخل حصني أمن عذابي. فلما مرت الراحلة نادانا: بشروطها، وأنا من شروطها»^(١).

وللمزيد من الإيضاح نذكر التالي:

١. إن الروايات تُصرح بأنَّ التوحيد يقودُ إلى الجنة لا محالة، فقد روي عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله: «والذي بعثني بالحق بشيرا، لا يعذب الله بالنار موحدا أبدا، وإن أهل التوحيد ليشفعون فيشفعون...»^(٢)

٢. هذا التوحيد الذي يقود إلى الجنة مشروطٌ بأمْرٍ خاص، وهو الإخلاص، فعنه صلى الله عليه وآله: «إن (لا إله إلا الله) كلمة عظيمة كريمة على الله تعالى، من قالها مخلصاً استوجب الجنة، ومن قالها كاذباً عصمت ماله ودمه، وكان مصيره إلى النار»^(٣).

٣. حقيقة الإخلاص الذي هو شرط التوحيد ويؤدي إلى الجنة هو تولي أهل البيت عليهم السلام، فعن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، هل للجنة من ثمن؟ قال: «نعم». قال: ما ثمنها؟ قال: «(لا إله إلا الله) يقولها العبد الصالح مخلصاً بها». قال: وما إخلاصها؟ قال: «العمل بما بعثت به في حقه، وحب أهل بيتي». قال: وحب أهل بيتك لمن حقها؟ قال: «أجل، إن

(١) الأُمالي للشيخ الصدوق ص ٣٠٥ و ٣٠٦ ح ٣٤٩ / ٨.

(٢) أُمالي الشيخ الصدوق ص ٣٧٢ ح ٤٦٩ / ١٠.

(٣) التوحيد للشيخ الصدوق ص ٢٣ ح ١٨.

حبهم لأعظم حقها»^(١).

وفي صحيحة أبان بن تغلب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: من شهد أن لا إله إلا الله فليدخل الجنة. قال: قلت: فعلى مَن تحاصم الناس إذا كان من شهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة؟! فقال: إنه إذا كان يوم القيامة نسوها»^(٢).

وفي صحيحته الثانية عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «يا أبان، إذا قدمت الكوفة فارو هذا الحديث: مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصاً وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ. قَالَ: قُلْتُ لَهُ: إِنَّهُ يَأْتِينِي مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنَ الْأَصْنَافِ، أَفَأُرْوِي لَهُمْ هَذَا الْحَدِيثَ؟! قَالَ: نَعَمْ يَا أَبَانُ، إِنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَجَّعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فَتُسَلَّبُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) مِنْهُمْ، إِلَّا مَنْ كَانَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ»^(٣).

النقطة الخامسة: مقتضيات الولاية

ما هي الأمور التي يلزم على من يدعي التشيع أن يلتزم بها؟
إن لكل عقيدة نظريات تبني عليها تمثل المنهجية العامة لها، وهذه النظريات ليست مقصودة بالذات، وإنما المقصود منها هو تطبيقها على أرض الواقع.
والتشيع كمذهب له أصوله وله أساسياته وله تاريخه العريق وله أئمة ومتخصصوه ورواده...

هذا المذهب له نظرياته، والمطلوب في هذه النظريات هو تحويلها إلى سلوك خارجي وتطبيق عملي، وقد أخذ أهل البيت عليهم السلام على عاتقهم بيان كل تلك النظريات التي تحدد المذهب وتميز أتباعه، وبعد هذا البيان يبقى على الأتباع والشيعَة أن يترجموا ما سمعوه من أئمتهم عليهم السلام إلى واقع وأفعال خارجية، وهذا ما أكد عليه أئمة أهل البيت عليهم السلام في

(١) أمالي الشيخ الطوسي ص ٥٨٣ / ح ١٢٠٧ / ١٢.

(٢) المحاسن للبرقي ج ١ ص ١٨١ باب ٤٢ ح ١٧٣.

(٣) الكافي للكليني ج ٢ ص ٥٢١ باب مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصاً ح ١.

العشرات من الأحاديث الواردة عنهم عليهم السلام.

وبعبارة أخرى:

إنَّ كلَّ مؤسسةٍ تضع شروطاً للانتساب إليها، وتُلزم بها من يريد ذلك، أي إنَّ هناك شروطاً يجب على من يريد الانتساب إليها الالتزام بها، ولا يكفي مجرد الرغبة من دون الالتزام بتلك الشروط والمقتضيات.

ومن هنا ورد أمر أهل البيت عليهم السلام شيعتهم ومحبيهم بالالتزام بشروط الانتماء للمذهب، ويُنوِّاهم عليهم السلام أن من أراد أن يحسب نفسه من أتباعهم عليهم السلام فإن عليه أن يلتزم بالتعليمات والأدبيات التي ذكروها عليهم السلام، ولا يكفي مجرد الرغبة والحب النظري لأهل البيت (عليهم الصلاة والسلام).

وقد أشار الشيخ رحمته الله في عبارة الكتاب إلى تلك المقتضيات، نذكر عناوينها باختصار:

الأول: حبهم عليهم السلام.

إنَّ حب أهل البيت عليهم السلام يمثل الخطوة الأولى للنجاح وللنجاة، وتبقى بعد هذه الخطوة خطواتٌ عديدة لا بُدَّ أن يخطوها المؤمن.

الثاني: الورع.

دائماً ما كان يحثُّ أهل البيت عليهم السلام شيعتهم على أن يكونوا ورعين.

والورع هو الابتعاد عن المحرمات، في قبال الاجتهاد الذي يعني هنا فعل الواجبات).

وهو ما عبَّر عنه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ»^(١)،

يعني بترك المحرمات وفعل الواجبات.

(١) نهج البلاغة: ٤١٧ / ح ٤٥.

ومن هنا، روى البنزطي، عن صفوان الجمال قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قد عرفتني بعلمي^(١)، تأتيني المرأة أعرفها بإسلامها وحبها إياكم وولايتها لكم ليس لها محرم، قال عليه السلام: «إذا جاءت المرأة المسلمة فاحملها، فإن المؤمن محرم المؤمنة»^(٢)، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾^(٣).^(٤)

وكانه عليه السلام يقول له: إن هذه المرأة جاءت إليك ووثقت بك، فعليك أن تتمثل الورع وتبتعد عن كل حالة تشوش الحالة الإيمانية.

وعن الحسين بن المختار، عن أبي بصير، قال: كنت أقرئ امرأة كنت أعلمها القرآن، فهازحتها بشيء، فقدمت على أبي جعفر عليه السلام، فقال لي: «أي شيء قلت للمرأة؟»، فغطيت وجهي، فقال: «لا تعودنَّ إليها»^(٥).

فالإمام عليه السلام لم يرتض بهذا الشيء، وعاتبه مباشرة، لكي لا يعود لمثلها. وقد ذكر الشيخ عليه السلام في الكتاب رواية أبي جعفر عليه السلام حيث قال لخثمة: «يا خثمة، أبلغ موالينا أننا لا نغني عنهم من الله شيئاً إلا بعمل، وأنهم لن ينالوا ولايتنا إلا بالورع،

(١) أي كنت عرفت أني جمال. [هامش المصدر].

(٢) أي يجوز لك كرايتها والتولي لأمرها. وقال في المدارك: الظاهر أن المراد من قوله عليه السلام: «المؤمن محرم المؤمنة» أن المؤمن كالمحرم في جواز مرافقته للمرأة، ومقتضى هذه الروايات الاكتفاء في المرأة بوجود الرفقة المأمونة وهي التي يغلب ظنها بالسلامة معها فلو انتفى الظن المذكور بان خافت على النفس أو البضع أو العرض فلم يندفع ذلك إلا بالمحرم اعتبر وجوده قطعاً لما في التكليف بالحج مع الخوف من فوات شيء من ذلك من الحرج والضرر.

(٣) التوبة ٧١.

(٤) من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق ج ٢ ص ٤٣٩ ح ٢٩١٢.

(٥) اختيار معرفة الرجال للشيخ الطوسي (ج ١ / ص ٤٠٤ / ح ٢٩٥)؛ ووسائل الشيعة للحر العاملي (ج ٢٠ / ص ١٩٨).

وَأَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ وَصَفَ عَدْلًا ثُمَّ خَالَفَهُ إِلَى غَيْرِهِ»^(١).
 فإلى هذا المستوى يريد الأئمة عليهم السلام من شيعتهم أَنْ يتمثلوا بالورع.

الثالث: الدعوة إلى الحق.

وبعبارة حديثة (ممارسة التغيير).

كثيراً ما كان أهل البيت عليهم السلام يدعون شيعتهم إلى أَنْ يكونوا دعاةً للحق ولا يكونوا دعاةً للباطل، وقد أمروا شيعتهم أَنْ تكون دعواهم بالأفعال وليس فقط بالأقوال، كما روي عن أبي عبد الله عليه السلام: «كونوا دعاة للناس بغير أَلْسِنَتِكُمْ، ليرَوْا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير، فَإِنَّ ذَلِكَ دَاعِيَةٌ»^(٢).

أي: دعوا فعلكم يحكي عن الحق، ويمكن أَنْ يعبر عنه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الرابع: التزام مكارم الأخلاق.

ويكفي وضوح العنوان عن التفصيل فيه، وأما الروايات التي ذُكرت في هذا المجال فكثيرة، وقد وضحت المفردات التي يجب على الشيعي أَنْ يلتزم بها.

الخامس: التكافل الاجتماعي.

لكي يكون المسلم مؤمناً شيعياً تابعاً لأهل البيت عليهم السلام عليه أَنْ يُمارس التكافل الاجتماعي، والتكافل الاجتماعي له مفردتان:

الأولى: التكافل الاجتماعي على نحو الوجوب.

وهذا يتمثل بالخمس والزكاة وزكاة الفطرة، والنفقات الواجبة، كوجوب إنفاق

(١) الكافي للشيخ الكليني (ج ٢/ ص ١٧٥ و١٧٦/ باب زيارة الإخوان/ ح ٢).

(٢) الكافي للشيخ الكليني (ج ٢/ ص ٧٨/ باب الورع/ ح ١٤).

الولد على أبويه إذا كان غنياً وهما فقيران، وكوجوب إنفاق الأب على أولاده بنفس الشرط، وكوجوب إنفاق الزوج على زوجته مطلقاً، إلا إذا أسقطت هي حقها.

وعن عليّ بن مهزيار أنّ الإمام الجواد عليه السلام عندما جاء إلى بغداد في عام (٢٢٠هـ) فرض خمساً آخر غير الخمس الواجب المتعارف عليه في قسم عظيم من الأموال، ولمرة واحدة فقط^(١)، ولعلّ ذلك (أنّه لما جاء الإمام الجواد عليه السلام إلى بغداد، كان الشيعة يعانون الفاقة والضعف، ولذا فرض الإمام عليه السلام الخمس تلك السنة لحلّ هذه المشكلة الخاصّة)^(٢).

وهذا حكمٌ خاصٌّ، ميّز الإمام عليه السلام من خلاله أنّ للضرورة مدخلية في اقتضاء الحكم.

الثانية: التكافل الاجتماعي المستحب.

ويتمثل بالصدقات والعطاء وإطعام الطعام وكسوة المؤمن وتزويج المحتاج ومنها إعارة الأشياء، وهو أيضاً مما دعا إليه أهل البيت عليهم السلام.

فقد ورد عن أبي بصير، قال: كنّا عند أبي عبد الله عليه السلام ومعنا بعض أصحاب الأموال، فذكروا الزكاة فقال أبو عبد الله عليه السلام:

«إنّ الزكاة ليس يُحمّد بها صاحبها، وإنّما هو شيء ظاهر، إنّما حقّق بها دمه، وسُمّي بها مسلماً، ولو لم يؤدّها لم تُقبَل له صلاة، وإنّ عليكم في أموالكم غير الزكاة».

فقلت: أصلحك الله وما علينا في أموالنا غير الزكاة؟

فقال: «سبحان الله، أما تسمع الله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ. لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾^(٣)».

(١) تهذيب الأحكام للطوسي ٤: ١٤١ / ح (٢٠ / ٣٩٨).

(٢) انظر: نفحات القرآن للشيخ ناصر مكارم الشيرازي ١٠: ٨٣.

(٣) المعارج: ٢٤ و ٢٥.

قال: قلت: ماذا الحقُّ المعلوم الذي علينا؟

قال: «هو الشيء يعملُه الرجل في ماله يُعطيه في اليوم أو في الجمعة أو في الشهر قَلَّ أو كثر، غير أنَّه يدوم عليه. وقوله ﷺ: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾^(١)»، قال: «هو القرض يُقرضه، والمعروف يصطنعه، ومتاع البيت يُعيره، ومنه الزكاة».

فقلت له: إنَّ لنا جيراناً إذا أعرناهم متاعاً كسروه وأفسدوه، فعلينا جناح أن نمنعهم؟

فقال: «لا، ليس عليكم جناح أن تمنعوهم إذا كانوا كذلك».

عقيدتنا في الجور والظلم

قال الشيخ رحمه الله:

«عقيدتنا في الجور والظلم:

من أكبر ما كان يعظمه الأئمة عليهم السلام على الإنسان من الذنوب العدوان على الغير والظلم للناس، وذلك اتباعاً لما جاء في القرآن الكريم من تهويل الظلم واستنكاره، مثل قوله ﷺ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾.

وقد جاء في كلام أمير المؤمنين عليه السلام ما يبلغ الغاية في بشاعة الظلم والتنفير منه، كقوله وهو الصادق المصدّق من كلامه في نهج البلاغة برقم ٢١٩: «والله لو أُعطيَت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملةٍ أسلبها جلب شعيرةٍ ما فعلت». وهذا غاية ما يمكن أن يتصوّره الإنسان في التعفّف عن الظلم والحذر من الجور واستنكار عمله، أنّه لا يظلم (نملة) في قشرة شعيرةٍ وإن أُعطي الأقاليم السبعة. فكيف حال من يبلغ في دماء المسلمين وينهب أموال الناس ويستهن في أعراضهم وكراماتهم؟ كيف يكون قياسه إلى فعل أمير المؤمنين؟ وكيف تكون منزلته من فقهه عليه السلام؟ إنّ هذا هو الأدب الإلهي الرفيع الذي يتطلّبه الدين من البشر.

نعم، إنّ الظلم من أعظم ما حرّم الله ﷻ، فلذا أخذ من أحاديث آل البيت وأدعيتهم المقام الأوّل في ذمّه وتنفير أتباعهم عنه.

وهذه سياستهم عليهم السلام وعليها سلوكهم حتّى مع من يعتدي عليهم ويجترئ

على مقامهم. وقصة الإمام الحسن عليه السلام معروفة في حلمه عن الشامي الذي اجترأ عليه وشتمه، فلاطفه الإمام وعطف عليه، حتى أشعره بسوء فعلته. وقد قرأت أنفا في دعاء سيد الساجدين من الأدب الرفيع في العفو عن المعتدين وطلب المغفرة لهم. وهو غاية ما يبلغه السمو النفسي والإنسانية الكاملة، وإن كان الاعتداء على الظالم بمثل ما اعتدى جائزاً في الشريعة وكذا الدعاء عليه جائزٌ مُباحٌ، ولكن الجواز شيءٌ والعفو الذي هو من مكارم الأخلاق شيءٌ آخر، بل عند الأئمة أنَّ المبالغة في الدعاء على الظالم قد تعدّ ظلماً، قال الصادق عليه السلام: «إنَّ العبد ليكون مظلوماً فما يزال يدعو حتى يكون ظالماً». أي حتى يكون ظالماً في دعائه على الظالم بسبب كثرة تكراره. يا سبحان الله! أيكون الدعاء على الظالم إذا تجاوز الحدّ ظلماً؟ إذن ما حال من يتدّى بالظلم والجور، ويعتدي على الناس، أو ينهش أعراضهم، أو ينهب أموالهم أو يمشي عليهم عند الظالمين، أو يخدعهم فيورّطهم في المهلكات أو ينزهم ويؤذيهم، أو يتجسس عليهم؟ ما حال أمثال هؤلاء في فقه آل البيت عليهم السلام؟ إنَّ أمثال هؤلاء أبعد الناس عن الله تعالى، وأشدّهم إثماً وعقاباً، وأقبحهم أعمالاً وأخلاقاً». انتهى.

يريد الشيخ (رحمه الله وطيب ثراه) أن يُبين في هذه العقيدة أنَّ مسألة الظلم -بالإضافة إلى تأكيد القرآن الكريم على أنَّها من الذنوب العظيمة وأنَّ على الإنسان أن يجتنبها- تمثل عقيدة سلوكية من عقائد أهل البيت عليهم السلام؛ لذلك جاءت في روايات أهل البيت عليهم السلام تعليمات وتوصيات تحذر الإنسان من الاقتراب من الظلم وإن كان صغيراً جداً.

وقد يُتساءل:

نحن نعلم أنَّ الله تعالى عادلٌ في مملكته، فهو ليس محايداً، وإنَّما هو ينصر المظلوم ضد الظالم، وهذا من مقتضيات العدل، ولكننا نرى الكثير من الظلمة لا ينالون جزاء

ظلمهم في الدنيا، بل ويعيش بعضهم عيشاً مرفهاً، فكيف يتناسب هذا مع عدل الله ﷻ؟
فيُجاب:

إنَّ الله ﷻ يمهّل ولا يمهّل، فإنّه قد يُمهّل الظالم فيؤخر عقوبته، وربما يؤخرها إلى يوم القيامة، ولكنّه لا يمهّل عقابه قط، فيعاقبه لاحقاً في الدنيا وإلا ففي يوم القيامة، حيثُ العذاب الأليم وربما المقيم، قال ﷻ: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا. اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾^(١)

وفي آية أخرى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(٢).

كما ورد في الروايات أنَّ على الصراط عقبة تسمى المِرصاد لا يجوزها عبدٌ بمظلمة، فقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾^(٣) قَالَ: «فَنُطْرَةٌ عَلَى الصَّرَاطِ لَا يَجُوزُهَا عَبْدٌ بِمَظْلَمَةٍ»^(٤).

وأما لماذا لا يعاجل الله ﷻ الظالمين بالعقوبة في الدنيا؛ فذلك لجملة من الأسباب، نذكر منها التالي:

هناك عدّة أسباب تُبرّر هذا الإمهال، وهي^(٥):

١ - لأنّه تعالى لا يخاف الفوت، وإنّما يعجل من يخاف الفوت، فإنّ الذي يستعجل

(١) الإسراء ١٣ و١٤.

(٢) الكهف ٤٩.

(٣) الفجر ١٤.

(٤) الكافي للكليني ج ٢ ص ٣٣١ باب الظلم ح ٢.

(٥) انظر: الهدى والضلال في القرآن الكريم - الشيخ حسين عبد الرضا الأسدي - س ١٠٨ - ١١١.

بالعقوبة أو بالأخذ هو من يخاف أن تفوته الفرصة لو لم يستعجل، أمّا الله ﷻ فإنه محيط بكل شيء، ولا يعزب عنه شيء، ولا يهرب منه شيء، فحتى لو لم يعاجل المذنب بالعقوبة فإنه لن يهرب منه. وهل يستطيع أحد أن يهرب من الموت؟! والموت خلق من خلق الله تعالى، قال ﷻ: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾^(١)

وقال أمير المؤمنين ﷺ: «وَأَعْلَمَ يَا بُنَيَّ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا، وَلِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ، وَلِلْمَوْتِ لَا لِلْحَيَاةِ، وَأَنَّكَ فِي قُلْعَةٍ وَدَارِ بُلْعَةٍ وَطَرِيقٍ إِلَى الْآخِرَةِ، وَأَنَّكَ طَرِيدُ الْمَوْتِ الَّذِي لَا يَنْجُو مِنْهُ هَارِبُهُ، وَلَا يَفُوتُهُ طَالِبُهُ، وَلَا بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ...»^(٢).

٢ - لأن رحمة تعالى سبقت غضبه، وهذا الأمر شمل حتى المجرمين!

قيل للإمام السجاد ﷺ يوماً: قال الحسن البصري: ليس العجب ممن هلك كيف هلك، وإنما العجب ممن نجا كيف نجا، فقال ﷺ: «أنا أقول: ليس العجب ممن نجا كيف نجا، إنما العجب ممن هلك كيف هلك مع سعة رحمة الله»^(٣).

وروي أنه قدّم على النبي ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسقي إذا وجدت صبيّاً من السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟»، قلنا: لا وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: «الله أرحم بعباده من هذه بولدها»^(٤).

كل ذلك لأن رحمة الله تعالى سبقت غضبه^(٥)، قال تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ

(١) الملك: ٢.

(٢) نهج البلاغة: ٤٠٠ / ح ٣١.

(٣) أمالي المرتضى: ١: ١١٣.

(٤) صحيح البخاري ٧: ٧٥.

(٥) قال العلامة المجلسي: في بحار الأنوار (ج ٧٠ / ص ٣٤٠) في معنى: «إن رحمتي سبقت غضبي»:

أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴿١﴾.

٣ - ويمكن أن يكون إمهال الله تعالى لبعض المجرمين لعلمه بأنهم سيتوبون ويُصلحون ما أفسدوا، كما حصل للفضيل بن عياض، قاطع الطريق المعروف، حيث تاب وأصلح وصار من عبّاد وزهّاد أهل زمانه.

حيث روي أن سبب توبته أنه عشق جارية، فواعدته ليلاً، فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع قارئاً يقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾^(٢)، فرجع القهقري وهو يقول: بلى والله قد آن. فأواه الليل إلى خربة، وفيها جماعة من السابلة^(٣)، وبعضهم يقول لبعض: إنّ فضيلاً يقطع الطريق، فقال الفضيل: أواه! أراني بالليل أسعى في معاصي الله، قوم من المسلمين يخافونني! اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت

«هذا يحتمل وجوها:

الأول: أن يكون المراد بالسبق الغلبة، أي رحمتي غالبية على غضبي وزائدة عليه، فإنه إذا اشتدّ سبب الغضب وكان هناك سبب ضعيف للرحمة يتعلّق الرحمة بفضله تعالى.

الثاني: أن يكون المراد به سبق المعنوي أيضاً على وجه آخر، فإنّ أسباب الرحمة من إقامة دلائل الربوبية في الآفاق والأنفس وبعثة الأنبياء والأوصياء وإنزال الكتب وخلق الملائكة وبعثهم لهداية الخلق وإرشادهم ودفع وساوس الشياطين وغير ذلك من أسباب التوفيق أكثر من أسباب الضلالة من القوى الشهوانية والغضبية وخلق الشياطين وعدم دفع أئمة الضلالة وأشباه ذلك من أسباب الخذلان.

الثالث: أن يُراد به سبق الزماني، فإنّ تقدير وجود الإنسان وإيجاده وإعطاء الجوارح والسمع والبصر وسائر القوى ونصب الدلائل والحجج وغير ذلك، كلّها قبل التكليف، والتكليف مقدّم على الغضب والعقاب. ويمكن إرادة الجميع، بل هو الأظهر».

(١) الأعراف: ١٥٦.

(٢) الحديد: ١٦.

(٣) المارون على الطريق المسلوك.

توبتي إليك جوار بيتك الحرام»^(١).

٤ - لأنه تعالى يُمهِّل المجرمين في بعض الأحيان لا لكرامة لهم عليه، بل من أجل استدراجهم بالنعم، فلعلَّ المجرم عنده بعض الحسنات فيريد تعالى أن يجازيه بها في الدنيا، فيستدرجه إلى أن تصل لحظة القسم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ خَيْرَ لَافْسِهِمْ إِنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾^(٢).

٥ - وقد يكون إمهالهم لا لكرامتهم هم، بل لأنَّ الله تعالى يعلم أنه سيخرج من ذريتهم مؤمنون مخلصون، لذلك يُمهِّلهم حتَّى تتاح الفرصة للمؤمنين بالوصول إلى عالم الدنيا.

ومن هنا ورد أن من بعض علل غيبة الإمام المهدي عليه السلام هو أن لا تضع ودائع الله ﷻ، أي المؤمنين الذين يظهرون من أصلاب الكافرين، فعن أبي عبد الله عليه السلام في حديث ابن أبي عمير، عمَّن ذكره، قال: قلت له - يعني أبا عبد الله عليه السلام - : ما بال أمير المؤمنين عليه السلام لم يقاتل مخالفه في الأوَّل؟ قال: «لَا يَافِي فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٣)»، قال: قلت: وما يعني بتزاييلهم؟ قال: «ودائع مؤمنون في أصلاب قوم كافرين، وكذلك القائم عليه السلام لم يظهر أبداً حتَّى تخرج ودائع الله ﷻ، فإذا خرجت ظهر على من ظهر من أعداء الله ﷻ فقتلهم»^(٤).

قال الشيخ رحمته الله:

«بل عند الأئمة أن المبالغة في الدعاء على الظالم قد تعد ظلمًا، قال الصادق عليه السلام: «إِنَّ

(١) تفسير القرطبي ١٧: ٢٥١.

(٢) آل عمران: ١٧٨.

(٣) الفتح: ٢٥.

(٤) كمال الدين للصدوق: ٦٤١.

الْعَبْدَ لِيَكُونَ مَظْلُومًا فَمَا يَزَالُ يَدْعُو حَتَّى يَكُونَ ظَالِمًا»^(١) أي حتى يكون ظالماً في دعائه على الظالم بسبب كثرة تكراره.

وللعلماء عدة توجيهات لهذه الرواية، ومنها:

التوجيه الأول:

ذُكر في مستثنيات الغيبة أنه يجوز للمظلوم أن يذكر الظالم في مقام الشكوى، ففي ذلك المورد فقط يجوز للمظلوم أن يتكلم عنه ويدعو عليه، ولكن لا يجوز أن يتعدى عن الجانب الذي ظلمه فيه.

فلو أن الظالم سرق أموال المظلوم، فللمظلوم أن يذكر ذلك، ولا يجوز له أن يذكر شرب الظالم للخمر مثلاً، بل إن هذا في نظر المتشعبة سنخ من التعدي الذي قد يسلكه المظلوم في مقام الانتقام.

وعليه، فالحديث يحمل دلالة على شدة اهتمام الشارع في عدم التعدي على الحق فيتحول المرء من مظلوم إلى ظالم.

التوجيه الثاني^(٢):

أنه يفرط في الدعاء على الظالم حتى يصير ظالماً بسبب هذا الدعاء كأن ظلمه بظلم يسير كشتم أو أخذ دراهم يسيرة، فيدعو عليه بالموت والقتل والفناء أو العمى أو الزمن، وأمثال ذلك، أو يتجاوز في الدعاء إلى من لم يظلمه كانقطاع نسله أو موت أولاده وأحبائه أو استيصال عشيرته، وأمثال ذلك، فيصير في هذا الدعاء ظالماً.

(١) الكافي للكليني ج ٢ ص ٣٣٣ - ٣٣٤ باب الظلم ح ١٧.

(٢) هذا التوجيه وما بعده ذكرها صاحب البحار في بحاره ج ٧٢ ص ٣٣٣ ٣٣٤.

التوجيه الثالث:

أن يكون المعنى: أنه يدعو كثيراً على العدو المؤمن ولا يكتفي بالدعاء لدفع ضرره، بل يدعو بابتلائه، وهذا مما لا يرضى الله به، فيكون في ذلك ظالماً على نفسه، بل على أخيه أيضاً، إذ مقتضى الاخوة الايمانية أن يدعو له بصلاحه، وكف ضرره عنه، كما ذكره سيد الساجدين (عليه السلام) في دعاء دفع العدو، وما ورد ومن الدعاء بالقتل والموت والاستيصال فالظاهر أنه كان للدعاء على المخالفين وأعداء الدين، بقرينة أن أعداءهم كانوا كفاراً لا محالة كما يومئ إليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالُهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾^(١) وسيأتي عن علي بن الحسين (عليه السلام) أن الملائكة إذا سمعوا المؤمن يذكر أخاه بسوء ويدعو عليه قالوا له: بئس الأخ أنت لأخيك، كف أيها المستر على ذنوبه وعورته وأربع على نفسك، واحمد الله الذي ستر عليك، واعلم أن الله ﷻ أعلم بعبده منك.

التوجيه الرابع:

ما قيل: إنه يدعو كثيراً ولا يعلم الله صلاحه في إجابته، فيؤخرها فيئس من روح الله، فيصير ظالماً على نفسه، وهو بعيد.

التوجيه الخامس:

أن يكون المعنى: أنه يلح في الدعاء حتى يستجاب له فيسلط على خصمه فيظلمه فينعكس الأمر، وكانت حالته الأولى أحسن له من تلك الحالة.

التوجيه السادس:

أن يكون المراد به: لا تدعوا كثيراً على الظلمة، فإنه ربما صرتم ظلمة فيستجيب فيكم ما دعوتكم على غيركم.

التوجيه السابع:

ما قيل: كأن المراد من يدعو للظالم يكون ظالماً لأنه رضي بظلمه كما روي عن النبي ﷺ: «من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه». وأقول: هذا أبعد الوجوه. (انتهى ما عن البحار)

عقيدتنا في التعاون مع الظالمين

قال الشيخ رحمه الله:

«عقيدتنا في التعاون مع الظالمين:

ومن عظم خطر الظلم وسوء مغبته أن نهى الله ﷻ عن معاونة الظالمين والركون إليهم، ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾.

هذا هو أدب القرآن الكريم وهو أدب آل البيت عليه السلام، وقد ورد عنهم ما يبلغ الغاية من التنفير عن الركون إلى الظالمين، والاتصال بهم ومشاركتهم في أي عمل كان، ومعاونتهم ولو بشقّ تمرّة.

ولا شك أن أعظم ما مني به الإسلام والمسلمون هو التساهل مع أهل الجور، والتغاضي عن مساوئهم، والتعامل معهم، فضلاً عن ممالاتهم ومناصرتهم وإعانتهم على ظلمهم، وما جرّ الويلات على الجامعة الإسلامية إلا ذلك الانحراف عن جدد الصواب والحق، حتّى ضعف الدين بمرور الأيام، فتلاشت قوّته، ووصل إلى ما عليه اليوم، فعاد غريباً، وأصبح المسلمون أو ما يسمّون أنفسهم بالمسلمين، وما لهم من دون الله أولياء ثم لا ينصرون حتّى على أضعف أعدائهم وأرذل المجترئين عليهم، كاليهود الأذلاء فضلاً عن الصليبيين الأقوياء.

لقد جاهد الأئمة عليهم السلام في إبعاد من يتصل بهم عن التعاون مع الظالمين، وشدّدوا على أوليائهم في مسaire أهل الظلم والجور وممالاتهم، ولا يحصى ما ورد عنهم في هذا

الباب، ومن ذلك ما كتبه الإمام زين العابدين عليه السلام إلى محمد بن مسلم الزهري بعد أن حذّره عن إعانة الظلمة على ظلمهم: «أو ليس بدعائهم إياك حين دعوك جعلوك قطباً أداروا بك رحي مظالمهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلاياهم، وسلماً إلى ضلالتهم، داعياً إلى غيهم، سالكاً سبيلهم، يُدخلون بك الشكّ على العلماء ويقتادون بك قلوب الجهال إليهم، فلم يبلغ أخصّ وزرائهم ولا أقوى أعوانهم إلّا دون ما بلغت من إصلاح فسادهم واختلاف الخاصّة والعامة إليهم، فما أقلّ ما أعطوك في قدر ما أخذوا منك، وما أيسر ما عمّروا لك في جنب ما خرّبوا عليك. فانظر لنفسك فإنّه لا ينظر لها غيرك، وحاسبها حساب رجلٍ مسؤول...».

ما أعظم كلمة «وحاسبها حساب رجلٍ مسؤولٍ» فإنّ الإنسان حينما يغلبه هواه يستهين في أغوار مكنون سرّه بكرامة نفسه، بمعنى أنّه لا يجده مسؤولاً عن أعماله، ويستحقر ما يأتي به من أفعال، ويتخيّل أنّه ليس بذلك الذي يحسب له الحساب على ما يرتكبه ويقترفه، أنّ هذا من أسرار النفس الإنسانيّة الأمّارة، فأراد الإمام أن يُنبّه الزهري على هذا السرّ النفساني في دخيلته الكامنة؛ لئلا يغلب عليه الوهم فيفترط في مسؤوليته عن نفسه.

وأبلغ من ذلك في تصوير حرمة معاونة الظالمين حديث صفوان الجمال مع الإمام موسى الكاظم عليه السلام وقد كان من شيعته ورواة حديثه الموثقين قال حسب رواية الكشي في رجاله بترجمة صفوان-: دخلت عليه فقال لي: «يا صفوان كلّ شيء منك حسنٌ جميلٌ، خلا شيئاً واحداً».

قلتُ: جُعِلْتُ فداك! أيّ شيء؟

قال: «إكراؤك جمالك من هذا الرجل (يعني هارون)».

قلت: والله، ما أكريته أشراً ولا بطراً، ولا للصيّد، ولا للهو، ولكن أكريته لهذا

الطريق «يعني طريق مكة» ولا أتولاه بنفسي ولكن أبعث معه غلاماني.

قال: «يا صفوان أيقع كراك عليهم؟»

قلت: نعم جُعِلْتُ فداك.

قال: «أَتَحِبُّ بقاءهم حتّى يخرج كراك؟»

قلت: نعم.

قال: «فمن أحبّ بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم فهو كان ورد النار».

قال صفوان: فذهبت وبعثت جمالي عن آخرها.

فاذا كان نفس حُبِّ حياة الظالمين وبقائهم بهذه المنزلة، فكيف بمن يستعينون به على الظلم أو يؤيدهم في الجور؟ وكيف حال من يدخل في زميرهم أو يعمل بأعمالهم أو يواكب قافلته أو يأتمر بأمرهم؟ انتهى.

قد يبدو لأول وهلة أن هذه المسألة فقهية لا عقائدية، فكيف ذكرها الشيخ كعقيدة؟ يظهر أن تأكيده على ذلك من أجل أن يؤكد على اختلاف عقيدتنا عما يعتقد العامة، حيث ينظرون إلى الحاكم نظرةً مقدسةً وإن كان ظالماً وإن كان فاسقاً! إذ طالما أظهر الإسلام بلسانه فهو مقدسٌ لديهم ولا يمكن الخروج عليه أو الاعتراض عليه، وبالتالي يلزم الاعتقاد به كإمام مفترض الطاعة، وهذا الاعتقاد بهذه الصيغة يُنتج:

١- أن يعيشوا حالةً من الركون والانقياد الأعمى للحاكم وإن كان ظالماً.

٢- أن يلتزموا بعدم التحرك ضده في أية محاولة لتغييره وإن كان ظالماً.

وهذا ما لا نجده في عقيدة أهل البيت عليهم السلام، ولذلك كان مناسباً للمصنف رحمته الله بيان حدود علاقة المسلمين مع السلطان، ولتوضح تلك الحدود أكثر نذكر نقطتين بشكلٍ إجمالي، وإلا ففي المسألة مفردات خلافية كلٌّ يراجع فيها مقلده:

النقطة الأولى: ضرورة الحاكم.

هناك ضرورة واقعية إلى سلطان يحكم البلاد تفرضها طبيعة نظام الحياة، فإن من الواضح أن المفسدين يعيشون في الأرض فسادًا لولا وجود الدولة والنظام والحاكم، وهذا هو معنى ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «وإنَّه لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ، وَيَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ، وَيُبَلِّغُ اللَّهُ فِيهَا الْأَجَلَ وَيُجْمَعُ بِهِ الْفِيءُ، وَيُقَاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ، وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ، حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ وَيُسْتَرَّاحَ مِنْ فَاجِرٍ»^(١)

النقطة الثانية: حدود التعامل مع الحاكم الظالم.

صحيح أن وجود الحاكم ضرورة، ولكن هذا لا يعني ضرورة الرضوخ له إذا كان ظالمًا، إذ إن وجود الحاكم كضرورة سياسية لا يستلزم الرضا بأفعاله والركون إليه. وعليه؛ فإذا كان الحاكم عادلاً منصَّباً من الله ﷻ - كالمعصوم أو من نصَّبه المعصوم علينا تنصيباً عينياً كالسفير، أو عبر صفاتٍ حددها كالمجتهد الجامع للشرائط - حينئذٍ فقط تجب طاعته علينا. أما إذا كان الحاكم ظالمًا، فعندئذٍ تتأطر العلاقة مع هذا الحاكم بأطرٍ جديدة، فهناك حدودٌ تُرسم إذا كان الحاكم ظالمًا، وتلك الحدود هي التالي:

١. لا يجوز الركون إلى الظالم والرضا بأفعاله.

وهذا أمرٌ لا نجده عند غير المدرسة الإمامية، فغيرنا ذهبوا إلى عدم جواز الخروج على السلطان وإن كان ظالمًا، وهذا يستند إلى عقيدة الإرجاء التي نادى بها المرجئة بقولهم: (الإيمان قولٌ بلا عمل). ولكي يشرعنوا دعواهم هذه فقد رووا روايات بهذا المجال، ومنها ما رواه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا

(١) نهج البلاغة ج ١ ص ٩١.

وإن استعمل حبشي كأن رأسه زبيبة»^(١).

وروا عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه من خالف الجماعة شبراً فمات فميتته جاهلية»^(٢).

وفي رواية أخرى: «أيما رجل كره من أميره أمراً فليصبر، فإنه ليس أحد من الناس يخرج من السلطان شبراً فمات الامات ميتة جاهلية»^(٣).

وهي - بلا شك - روايات موضوعة على الرسول ﷺ، وبصمة الكذب فيها واضحة جداً.

٢. عدم التحاكم إليه مع وجود الحاكم العادل.

فلا يجوز الرجوع إلى الحاكم الظالم في فض المنازعات والفصل في الخصومات مع وجود الحاكم العادل. وعدم جواز التحاكم إلى الظالم وإن كان قاعدة عامة، بيد أن الفقهاء يذكرون جملة من الاستثناءات التي ترد عليها، كانحصار استنقاذ الحق بالترافع إلى الحاكم الظالم، مطلقاً كما يذهب إلى ذلك بعض الفقهاء، أو مع تقييدها ببعض القيود كما يذهب إليه آخرون.

والمسألة يُرجع فيها إلى الفقه.

وقد يتبادر إلى الذهن سؤال مفاده ما حكم التحاكم إلى رئيس العشيرة عند حصول بعض النزاعات؟

وجواباً على ذلك نقول: عادة لا يكون هذا الأمر حكماً أو تحاكماً، وإنما هو من باب المصالحة، فإن بعض الوجهاء وكبار العشيرة يحاولون حل النزاعات عبر التوصل إلى

(١) صحيح البخاري ج ١ ص ١٧٠.

(٢) مسند أحمد، ج ١، ص ٢٧٥.

(٣) مسند أحمد، ج ١، ص ٣١٠.

مصالحة بين الأطراف.

مع الالتفات إلى ضرورة عدم مساس تلك المصالحات بحقوق القاصرين مثلاً، كما في حالة الدية الشرعية، حيث يحاول رئيس عشيرة القاتل أو من يمثله غالباً تخفيف الدية، فهنا يجوز لعشيرة القتيل التصالح على ذلك التخفيف برضا البالغين من أهل القتيل، وأما لو كان هناك قاصرون، فليس له ذلك؛ فيجب الحفاظ على حصتهم كاملةً عند الولي أو الوصي الشرعي عليهم.

٣. عدم محبة دوام الظالم ولو على حساب المصلحة الشخصية.

ربما يميل قلب الإنسان إلى حب بقاء الظالم في بعض الأحيان حفاظاً على مصالحه، وهو حبٌّ أو ميلٌ ليس في محله؛ لأنَّ المرءَ يُحشَرُ مع من أحب. كما منعت الروايات من ذلك، كما في رواية لطيفة عن صفوان الجمال وهو من خُلَص أصحاب الإمام الكاظم (عليه السلام)، فعن صفوان بن مهران الجمال، قال: دخلت على أبي الحسن الأول (عليه السلام)، فقال لي: «يا صفوان، كلُّ شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً»، قلت: جُعِلَت فداك، أيُّ شيء؟ قال: «كراؤك جمالك من هذا الرجل - يعني هارون -»، قلت: والله ما أكريته أشراً ولا بطراً ولا لصيد ولا للهو، ولكنني أكريه لهذا الطريق - يعني طريق مكة -، ولا أتولاه بنفسي ولكن أنصب غلماي. فقال لي: «يا صفوان، أيقع كراؤك عليهم؟»، قلت: نعم جُعِلَت فداك، قال: فقال لي: «أُحِبُّ بقاءهم حتَّى يخرج كراؤك؟»، قلت: نعم، قال: «فمن أحبَّ بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم كان ورد النار».

قال صفوان: فذهبت وبعثت جمالي عن آخرها، فبلغ ذلك إلى هارون، فدعاني فقال لي: يا صفوان، بلغني أنَّك بعثت جمالك؟ قلت: نعم، فقال: لِمَ؟ قلت: أنا شيخ كبير وإنَّ الغلمان لا يفون بالأعمال. فقال: هيهات هيهات أنِّي لأعلم من أشار عليك بهذا موسى بن جعفر، قلت: مالي ولموسى بن جعفر؟ فقال: دع هذا عنك، فوالله لو لا حسن

صحبتك لقتلتك^(١).

وهذه حركة إيمانية لا يقوى على فعلها أي شخصٍ مالم يكن إيمانه حقيقياً.

٤. عدم تشويه صورة المذهب أو التنازل عن الثوابت من قبل الأشخاص الذين يؤثر

كلامهم في الناس.

بمعنى أن الشيعي الذي يكون مسموع الكلمة ليس من الصحيح أن يذل نفسه أمام الظالم بحيث تضعف معه هيبة المذهب عند الناس.

ينقل أن ابن السكيت كان عالماً ومربياً لأبناء المتوكل، وقد نقل في سبب قتله أنه دخل يوماً عليه وكان عنده ولداه المعتز والمؤيد فقال: يا ابن السكيت، أهدان عندك أفضل أم الحسن والحسين عليهما السلام، فشرع ابن السكيت في نقل فضائل الحسينين عليهما السلام وقال: والله، إن قبر غلام علي عليه السلام عندي خير منك ومن ولديك، فغضب المتوكل لعنه الله وأمر غلمانه من الترك أن يطأوه تحت أرجلهم، وداسوا بطنه بعد أن سلوا لسانه من قفاه، فاستشهد رحمه الله في الخامس من شهر رجب سنة ٢٤٤. (٢)

إن ابن السكيت كان ذا مكانة علمية مرموقة وشأن منيف، لذا فقد عرف أن اللازم أن يكون موقفه قوياً؛ فلا يناسبه أن يذل نفسه ولا أن يتقي، بل ولا يناسب المذهب ذلك؛ لما له من كلمة مؤثرة فيه، فتتأثر به هيبة المذهب ككل سلباً أو إيجاباً. وفعلاً فقد اتخذ الموقف القوي الذي يرفع به شأن المذهب بأسره ويُعلي مكانته بين المذاهب ويدخل الرفعة والعزة على نفوس أصحابه؛ لذا بقي موقفه محفوظاً إلى يومنا هذا.

وكذلك عندما بعث الحجاج إلى قبر وأمره أن يتبرأ من أمير المؤمنين علي عليه السلام، إذ روي أن الحجاج بن يوسف الثقفي قال ذات يوم: أحب أن أصيب رجلاً من أصحاب

(١) اختيار معرفة الرجال للشيخ الطوسي (ج ٢ / ص ٧٤٠ / ترجمة رقم ٨٢٨).

(٢) هامش بحار الأنوار ج ١٠ ص ١.

أبي تراب فأتقرب إلى الله بدمه! فقيل له: ما نعلم أحداً كان أطول صحبة لأبي تراب من قنبر مولاه، فبعث في طلبه فأتي به فقال له: أنت قنبر؟ قال: نعم، قال: أبو همدان؟ قال: نعم، قال: مولى علي بن أبي طالب؟ قال: الله مولاي، وأمير المؤمنين علي ولي نعمتي، قال: أبرأ من دينه. قال: فإذا برئت من دينه تدلني على دين غيره أفضل منه؟ فقال: إني قاتلك فاختر أي قتلة أحب إليك، قال: قد صيرت ذلك إليك، قال: ولم؟ قال: لأنك لا تقتلني قتلة إلا قتلتك مثلها، ولقد خبرني أمير المؤمنين عليه السلام أن منيتي تكون ذبحاً ظملاً بغير حق، قال: فأمر به فذبح.^(١)

وهكذا ميثم التمار وكميل بن زياد، فهؤلاء الطبقة المعروفة مسموعة الكلمة لا يتنازلون عن مبدئهم؛ لأن كلمتهم تؤثر في هيبة المذهب، وبناءً على موقفهم قد تضعف عقيدة أو تقوى عقيدة مقابلة.

٥. القيام بوجه الظالم متى ما سنحت الفرصة.

وهذا الأمر يحتاج إلى دقة في تشخيص الظروف الموضوعية، والبحث في مدى صحة القيام من عدمه، وفي مدى تحقق النتائج المرجوة من عدمه، إذ ربما يؤدي القيام إلى إبادة الشيعة فيكون الموقف المناسب حينئذ هو المهادنة والابتعاد عن المواقف المسلحة، كما فعل الإمام الحسن عليه السلام، فقد أشارت بعض كلماته إلى أنه لو قاتل معاوية لوقعت إبادة جماعية لكل الشيعة المخلصين؛ لذلك أثر الإمام الحسن عليه السلام الحفاظ على هذه الثلة الطيبة.

فقد روي عن أبي سعيد عقيصا قال: قلت: للحسن بن علي بن أبي طالب: يا بن رسول الله، لم داهنت معاوية وصالحته وقد علمت أن الحق لك دونه وإن معاوية ضال باغ؟ فقال: «يا أبا سعيد، ألسنتُ حجة الله تعالى ذكره على خلقه وإماماً عليهم بعد

أبي (عليه السلام)؟» قلت: بلى. قال: «ألست الذي قال رسول الله ﷺ لي ولأخي: الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا؟» قلت: بلى. قال: «فأنا إذن إمام لو قمت، وأنا إمام إذ لو قعدت، يا أبا سعيد، علة مصالحتي لمعاوية علة مصالحة رسول الله ﷺ لبني ضمرة وبني أشجع ولأهل مكة حين انصرف من الحديبية، أولئك كفار بالتنزيل ومعاوية وأصحابه كفار بالتأويل، يا أبا سعيد، إذا كنت إماماً من قبل الله تعالى ذكره لم يجب أن يُسفه رأيي فيما أتيته من مهادنة أو محاربة، وإن كان وجه الحكمة فيما أتيته ملتبساً، ألا ترى الخضر (عليه السلام) لما خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار سخط موسى (عليه السلام) فعلة لا شتباه وجه الحكمة عليه، حتى أخبره فرضي، هكذا أنا، سخطتم عليّ بجهلكم بوجه الحكمة فيه، ولولا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض أحد إلا قتل»^(١).

أما إذا كان الدفاع عن الدين أهم من النفوس، فيكون الأمر خلاف ذلك، وهو ما قام به الإمام الحسين (عليه السلام) حيث قال (عليه السلام): «أما بعد، فقد علمتم أن رسول الله ﷺ قد قال في حياته: «من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان ثم لم يُغَيَّرْ بقول ولا فعل، كان حقيقاً على الله أن يُدخله مدخله». وقد علمتم أن هؤلاء القوم قد لزموا طاعة الشيطان، وتولوا عن طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وإنّي أحقُّ بهذا الأمر لقرايتي من رسول الله ﷺ»^(٢).

وقد كان الحفاظ على الدين الإسلامي من أهم أهداف الإمام الحسين (عليه السلام).

إذاً، إذا كانت الفرصة مناسبة للقيام ضد الظالم فلا يسوغ الجلوس حينئذ وعدم القتال، كما حصل في فتوى الجهاد الكفائي التي أصدرها سماحة المرجع السيد

(١) علل الشرائع للشيخ الصدوق ج ١ ص ٢١١ باب ١٥٩ ح ٢.

(٢) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج ٤٤، ص ٣٨٢.

السيستاني، وقام الحشد الشعبي بدحض الدواعش، إذ كانت مقدسات الشيعة وبيضة الإسلام في خطر.

٦. عدم إعاقته في ظلمه ولو ببيع إبرة له!

وهو ما سنتناوله في العقيدة القادمة..

عقيدتنا في الوظيفة في الدولة الظالمة.

قال تعالى:

«عقيدتنا في الوظيفة في الدولة الظالمة:

إذا كان معاونة الظالمين ولو بشقّ تمرّة بل حُبّ بقائهم من أشدّ ما حذّر عنه الأئمة عليهم السلام، فما حال الاشتراك معهم في الحكم والدخول في وظائفهم وولاياتهم؟! بل ما حال من يكون من جملة المؤسسين لدولتهم، أو من كان من أركان سلطانتهم والمنغمسين في تشييد حكمهم؟! «وذلك أنّ ولاية الجائر دروس الحقّ كلّ، وإحياء الباطل كلّ، وإظهار الظلم والجور والفساد» كما جاء في حديث تحف العقول عن الصادق عليه السلام.

غير أنّه ورد عنهم عليهم السلام جواز ولاية الجائر إذا كان فيها صيانة العدل وإقامة حدود الله، والإحسان إلى المؤمنين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «إنّ الله في أبواب الظلمة من نور الله به البرهان ومكّن له في البلاد، فيدفع بهم عن أوليائه ويصلح بهم أمور المسلمين.... أولئك هم المؤمنون حقّاً. أولئك منار الله في أرضه، أولئك نور الله في رعيته...» كما جاء في الحديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام.

وفي هذا الباب أحاديث كثيرة توضّح النهج الذي ينبغي أن يجري عليه الولاة والموظفين، مثل ما في رسالة الصادق عليه السلام إلى عبد الله النجاشي أمير الأهواز (راجع الوسائل: كتاب البيع، الباب ٧٨). انتهى.

تقدّم أنّ للتعامل مع الحاكم الظالم حدوداً في العقيدة الإمامية على خلاف سائر

المذاهب الأخرى، يمكن جمعها في ستة حدودٍ لأبدٍ للمؤمنين التقيد بها في تعاملهم مع الحاكم الظالم، تناولنا خمسة منها بشيءٍ من التوضيح، فيما أرجأنا الحديث عن السادسة؛ لمناسبة تناولها في هذه العقيدة..

٦. عدم أعانته في ظلمة ولو ببيع إبرة.

فقد روي عن ابن أبي يعفور قال: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِنَا فَقَالَ لَهُ: أَصْلَحَكَ اللَّهُ، إِنَّهُ رُبَّمَا أَصَابَ الرَّجُلَ مِنَ الضَّيْقِ أَوْ الشَّدَّةِ فَيُدْعَى إِلَى الْبِنَاءِ يَبْنِيهِ أَوْ النَّهْرَ يَكْرِيه أَوْ الْمُسْنَةَ يُصْلِحُهَا، فَمَا تَقُولُ فِي ذَلِكَ؟ فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: «مَا أُحِبُّ أَنِّي عَقَدْتُ لَهُمْ عُقْدَةً أَوْ وَكَيْتُ لَهُمْ وَكَاءً وَإِنَّ لِي مَا بَيْنَ لَابِتَيْهَا، لَا، وَلَا مَدَّةً بِقَلَمٍ، إِنَّ أَعْوَانَ الظُّلْمَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي سَرَادِقٍ مِنْ نَارٍ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَ الْعِبَادِ»^(١).

هذا إذا كانت الإعانة للظالم في ظلمه، أما إذا كانت الإعانة من أجل حفظ المؤمنين، أي من أجل مصالح المسلمين، فلا بأس بها، ومع ذلك يقيد بها بعض الفقهاء بالاضطرار. فقد روي عن زياد بن أبي سلمة قال: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي الْحَسَنِ مُوسَى عليه السلام فَقَالَ لِي: «يَا زِيَادُ، إِنَّكَ لَتَعْمَلُ عَمَلَ السُّلْطَانِ؟»

قَالَ: قُلْتُ: أَجَلْ. قَالَ لِي: «وَلَمْ؟» قُلْتُ: أَنَا رَجُلٌ لِي مُرُوءَةٌ^(٢) وَعَلَيَّ عِيَالٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ظَهْرِي شَيْءٌ.

فَقَالَ لِي: «يَا زِيَادُ، لَأَنْ أَسْقُطَ مِنْ حَالَتِي»^(٣) فَاتَّقَطَّ قِطْعَةً قِطْعَةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَوَلَّى لِأَحَدٍ مِنْهُمْ عَمَلًا، أَوْ أَطَأَ بِسَاطِ أَحَدِهِمْ، إِلَّا لِمَاذَا؟»
قُلْتُ: لَا أَدْرِي جُعِلْتُ فِدَاكَ.

(١) الكافي للكليني ج ٥ ص ١٠٧ باب عَمَلِ السُّلْطَانِ وَجَوَائِزِهِمْ ح ٧.

(٢) أي اني رجل ذو احسان ومودة وفضل عودت الناس ولا يمكنني تركه. [هامش المصدر].

(٣) الخالق: الجبل المرتفع. [هامش المصدر].

فَقَالَ ﷺ: «إِلَّا لِتَفْرِجَ كُرْبَةَ عَنْ مُؤْمِنٍ، أَوْ فَكَّ أَسْرَهُ أَوْ فَضَاءَ دِينَهُ، يَا زِيَادُ إِنْ أَهْوَنَ مَا يَصْنَعُ اللَّهُ بِمَنْ تَوَلَّى لَهُمْ عَمَلًا: أَنْ يُضْرَبَ عَلَيْهِ سُرَادِقٌ مِنْ نَارٍ إِلَى أَنْ يَفْرُغَ اللَّهُ مِنْ حِسَابِ الْخَلَائِقِ.

يَا زِيَادُ، فَإِنْ وُلِّيتَ شَيْئًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ فَأَحْسِنْ إِلَى إِخْوَانِكَ، فَوَاحِدَةٌ بِوَاحِدَةٍ، وَاللَّهُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ.

يَا زِيَادُ أَيُّمَا رَجُلٍ مِنْكُمْ تَوَلَّى لِأَحَدٍ مِنْهُمْ عَمَلًا، ثُمَّ سَاوَى بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ، فَقُولُوا لَهُ: أَنْتَ مُتَحِلٌّ كَذَابٌ.

يَا زِيَادُ إِذَا ذَكَرْتَ مَقْدَرَتَكَ عَلَى النَّاسِ، فَادْكُرْ مَقْدَرَةَ اللَّهِ عَلَيْكَ غَدًا، وَنَفَادَ مَا أَتَيْتَ إِلَيْهِمْ عَنْهُمْ وَبَقَاءَ مَا أَتَيْتَ إِلَيْهِمْ عَلَيْكَ..»

وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ يَقْطِينٍ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي الْحَسَنِ ﷺ: مَا تَقُولُ فِي أَعْمَالِ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ ﷺ: «إِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ فَاعِلًا فَاتَّقِ أَمْوَالَ الشَّيْعَةِ».

قَالَ: «فَأَخْبَرَنِي عَلِيُّ أَنَّهُ كَانَ يُجَبِّهَا مِنَ الشَّيْعَةِ عَلَانِيَةً، وَيَرُدُّهَا عَلَيْهِمْ فِي السِّرِّ».

عقيدتنا في الدعوة إلى الوحدة الإسلامية

قال الشيخ رحمه الله:

«عقيدتنا في الدعوة إلى الوحدة الإسلامية:

عُرِف آل البيت ﷺ بحرصهم على بقاء مظاهر الإسلام، والدعوة إلى عزّته، ووحدة كلمة أهله، وحفظ التآخي بينهم، ورفع السخيمة من القلوب، والأحقاد من النفوس. ولا يُنسى موقف أمير المؤمنين ﷺ مع الخلفاء الذين سبقوه، مع توجّده عليهم واعتقاده بغضبهم لحقّه، فجاراهم وسالمهم بل حبس رأيه في أنّه المنصوص عليه بالخلافة، حتّى أنّه لم يجهر في حشدٍ عامٍ بالنصّ إلّا بعد أن آل الأمر إليه فاستشهد بمن بقي من الصحابة عن نصّ (الغدير) في يوم (الرحبة) المعروف. وكان لا يتأخر عن الإشارة عليهم فيما يعود على المسلمين أو للإسلام بالنفع والمصلحة وكم كان يقول عن ذلك العهد: «فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً».

كما لم يصدر منه ما يؤثر على شوكة ملكهم أو يُضعف من سلطانهم أو يقلل من هيبتهم، فانكمش على نفسه وجلس حلس البيت، بالرغم مما كان يشهده منهم. كلّ ذلك رعايةً لمصلحة الإسلام العامة، ورعاية أن لا يرى في الإسلام ثلماً أو هدماً، حتّى عُرِف ذلك منه، وكان الخليفة عمر بن الخطاب يقول ويكرّر القول: «لا كنت لمعضلة ليس لها أبو الحسن» أو «لو لا عليّ لهلك عمر».

ولا يُنسى موقف الحسن بن علي ﷺ من الصلح مع معاوية بعد أن رأى أنّ الإصرار على الحرب سيُبدل من ثقل الله الأكبر ومن دولة العدل بل اسم الإسلام إلى آخر الدهر،

فُتْمَحَى الشريعة الإلهية ويُقضى على البقية الباقية من آل البيت، ففضّل المحافظة على ظواهر الإسلام واسم الدين، وإن سالم معاوية العدوّ الألد للدين وأهله والخصم الحقود له ولشيعة، مع ما يُتوقع من الظلم والذلّ له ولأتباعه وكانت سيوف بني هاشم وسيوف شيعة مشحودةً تأبى أن تُغمد، دون أن تأخذ بحقّها من الدفاع والكفاح، ولكن مصلحة الإسلام العليا كانت عنده فوق جميع هذه الاعتبارات.

وأما الحسين الشهيد عليه السلام فلئن نهض فلأنه رأى من بني أمية إن دامت الحال لهم ولم يقف في وجههم من يكشف سوء نيّاتهم، سيُمحون ذكر الإسلام ويُطيحون بمجده، فأراد أن يُثبت للتأريخ جورهم وعدوانهم ويفضح ما كانوا يبيّتونه لشريعة الرسول، وكان ما أراد. ولو لا نهضته المباركة لذهب الإسلام في خبر كان يتلهى بذكره التأريخ كأنه دينٌ باطلٌ، وحرص الشيعة على تجديد ذكره بشتى أساليبهم إنّما هو لإتمام رسالة نهضته في مكافحة الظلم والجور وإحياء أمره امتثالاً لأوامر الأئمة من بعده.

وينجلي لنا حرص آل البيت عليهم السلام على بقاء عزّ الإسلام وإن كان ذو السلطة من ألد أعدائهم، في موقف الإمام زين العابدين عليه السلام من ملوك بني أمية، وهو المتور لهم، والمتهكة في عهدهم حرمتهم وحرمة، والمحزون على ما صنعوا مع أبيه وأهل بيته في واقعة كربلاء، فإنّه مع كلّ ذلك كان يدعو في سرّه لجيوش المسلمين بالنصر وللإسلام بالعزّ وللمسلمين بالدعوة والسلامة، وقد تقدّم أنّه كان سلاحه الوحيد في نشر المعرفة هو الدعاء، فعلم شيعة كيف يدعون للجيوش الإسلامية والمسلمين، كدعائه المعروف بـ(دعاء أهل الثغور) الذي يقول فيه: «اللهم صلّ على محمّد وآل محمّد، وكثّر عددهم، واشحذ أسلحتهم، واحرس حوزتهم، وامنع حومتهم، وألف جمعهم ودبر أمرهم، وواتر بين ميرهم، وتوحد بكفاية مؤنهم، واعضدهم بالنصر، وأعنهم بالصبر، والطف لهم في المكر» إلى أن يقول بعد أن يدعو على الكافرين: «اللهم وقوّ بذلك محالّ أهل

الإسلام، وحصّن به ديارهم، وثمّر به أموالهم، وفرّغهم عن محاربتهم لعبادتك، وعن منابذتهم للخلوة بك، حتّى لا يُعبد في بقاع الأرض غيرك، ولا تعفر لأحد منهم جبهة دونك»

وهكذا يمضي في دعائه البليغ -وهو من أطول أدعيته- في توجيه الجيوش المسلمة إلى ما ينبغي لها من مكارم الأخلاق وأخذ العدة للأعداء، وهو يجمع إلى التعاليم الحربيّة للجهاد الإسلامي بيان الغاية منه وفائدته، كما يُنبّه المسلمين إلى نوع الحذر من أعدائهم وما يجب أن يتخذوه في معاملتهم ومكافحتهم، وما يجب عليهم من الانقطاع إلى الله ﷻ والانتفاء عن محارمه، والإخلاص لوجهه الكريم في جهادهم.

وكذلك باقي الأئمة عليهم السلام في مواقفهم مع ملوك عصرهم، وإنّ لاقوا منهم أنواع الضغط والتنكيل بكلّ قساوةٍ وشدّةٍ، فإنّهم لما علموا أنّ دولة الحق لا تعود إليهم انصرفوا إلى تعليم الناس معالم دينهم وتوجيه أتباعهم التوجيه الدينيّ العالي.

وكُلُّ الثورات التي حدثت في عصرهم من العلويّين وغيرهم لم تكن عن إشارتهم ورغبتهم، بل كانت كلّها مُخالفةً صريحةً لأوامرهم وتشديداتهم، فإنّهم كانوا أحرص على كيان الدولة الإسلامية من كلّ أحدٍ حتّى من خلفاء بني العباس أنفسهم.

وكفى أنْ نقرأ وصية الإمام موسى بن جعفر عليه السلام لشيعته: «لا تذلّوا رقابكم بترك طاعة سلطانكم، فإنْ كان عادلاً فاسألوا الله بقاءه، وإنْ كان جائراً فاسألوا الله إصلاحه، فإنّ صلاحكم في صلاح سلطانكم، وأنّ السلطان العادل بمنزلة الوالد الرحيم فأحبّوا له ما تحبّون لأنفسكم، واکرهوا له ما تكرهون لأنفسكم»

وهذا غاية ما يوصف في محافظة الرعيّة على سلامة السلطان، أنْ يُحبّوا له ما يُحبّون لأنفسهم، ويكرهوا له ما يكرهون لها.

وبعد هذا، فما أعظم تجنّي بعض كتاب العصر إذ يصف الشيعة بأنهم جمعية سرّية هدامة، أو طائفة ثوروية ناقمة! صحيح أنّ من خلق الرجل المسلم المتّبع لتعاليم آل البيت ﷺ بغض الظلم والظالمين والانكماش عن أهل الجور والفسوق، والنظرة إلى أعوانهم وأنصارهم نظرة الاشمئزاز والاستنكار، والاستيحاش والاستحقار، وما زال هذا الخلق مُتغلغلاً في نفوسهم يتوارثونه جيلاً بعد جيل، ولكن مع ذلك ليس من شيمتهم الغدر والختل، ولا من طريقتهم الثورة والانتفاض على السلطة الدينية السائدة باسم الإسلام، لا سرّاً ولا علناً، ولا يُيبحون لأنفسهم الاغتيال أو الواقعة بمسلمٍ مهما كان مذهبه وطريقته، أخذاً بتعاليم أئمتهم ﷺ بل المسلم الذي يشهد الشهادتين مصون المال محقون الدم، مُحَرَّم العرض، «لا يحلّ مال امرئٍ مُسلمٍ إلّا بطيب نفسه»، بل المُسلم أخو المُسلم عليه من حقوق الأخوة لأخيه ما يكشف عنه البحث الآتي». انتهى.

يتعرض الشيخ رحمه الله في هذه العقيدة إلى مفهوم الوحدة الإسلامية ويذكر عدة أمور فيه، وربما نلاحظ من بعضها تسامحاً في التعبير، كذكره أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يُبين رأيه في الغاصبين لحقّه، ولعله كان يقصد بذلك ﷺ عدم مطالبته بحقه في الأوقات الحرجة. وعلى كلّ حال فهنا عدة نقاط تنفع في المقام:

النقطة الأولى: تأكيد القرآن الكريم على الوحدة بين الديانات.

يؤكد القرآن الكريم على الوحدة العامة للديانات السماوية؛ لاشتراكها في الأصول العامة، قال ﷻ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾^(١).

(١) سورة الشورى: آية ١٣.

فتشير الآية المباركة إلى أن الدين الذي شُرع للمسلمين هو ما وصى الله ﷻ به نوحًا، ووصى به إبراهيم وموسى وعيسى ﷺ، أن أقيموا الدين، أي أن هناك أصولاً عامة تشترك بها الأديان السماوية.

النقطة الثانية : الاشتراك بين الأديان لا يعني عدم التمايز بينها.

إنَّ اشتراك الأديان السماوية في الأصول العامة لا يعني عدم وجود تمايزٍ بينها، فالاختلاف والتمايز واقعٌ معاش لا ينكر. والمسائل الخلافية بين الأديان، بل بين مذاهب الدين الواحد أكثر من أن تُحصى في عجالة.

النقطة الثالثة : التمايز والاختلاف هو ما يحفظ كيان المذهب.

فإذا نظرنا إلى المذاهب الإسلامية مثلاً نجد أن بينها مشتركات، إذ إنَّ كلَّ المسلمين يؤمنون بالله ﷻ وبنبوة النبي الأكرم ﷺ، وأنَّ القرآن هو معجزة النبي الأكرم ﷺ، وكلهم يصلون إلى قبلة واحدة، وكلهم يدفنون موتاهم بكيفيةٍ واحدة، وغيرها من المشتركات. بيد أن هذه المشتركات لا تميز أو تشخص مذهباً دون آخر، وإنما الذي يميز متبعي أهل البيت ﷺ مثلاً عن غيرهم هو المسائل المختلفة، سواء كانت عقدية أو فقهية، كالاعتقاد بعينية الصفات، وبعصمة النبي ﷺ المطلقة، وبالعدل الإلهي، وأنَّ الإمامة بالنص، وأنَّ أصحاب الأعراف هم أهل البيت ﷺ، وكمسح الرأس وظاهر القدمين لا غسلهما، وبطلان الصلاة بقول (آمين) عمداً بعد قراءة سورة الفاتحة، والخمس، وغير ذلك من المسائل كثير.

فاختلاف الإمامية الاثني عشرية عمّا سواهم في هذه المسائل وغيرها هو الذي ميّز مذهبهم عن سائر المذاهب الأخرى، فالمذهب يحتفظ بوجوده بمميزاته عن غيره من المذاهب، والتمايز هو ما يحفظ كيان المذهب، ويترتب على هذا أن على اتباع المذهب أن

يصبوا كل اهتمامهم على:

١/ بيان مميزاتهم.

٢/ دفع الشبهات والإشكالات عن تلك المميزات.

٣/ بيان خطأ مميزات المذاهب الأخرى.

وذلك لأن طبيعة الإنسان أنه يدافع عن مميزاته، وهذا أمرٌ طبيعي، ولكنه لا يعني أن كل المذاهب على حق؛ فكما روي عن الإمام علي عليه السلام: «مَا اخْتَلَفَتْ دَعْوَتَانِ إِلَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا ضَلَالَةً»^(١).

النقطة الرابعة: ضرورة عدم التنازل عن الثوابت من أجل الوحدة الإسلامية.

على الرغم من أهمية الدعوة إلى الوحدة الإسلامية، والسعي إلى تحقيقها، إلا أنه يلزم أن لا يصطدم بثوابت وضروريات المذهب، وإلا عُدَّ تنازلاً عن كيان المذهب نفسه، وقد تقدم أن وجود ما يميز الإمامية عن سواهم هو الذي يحفظ كيان هذا المذهب، وعليه؛ فليس من الصحيح التنازل عن وجوب الخمس والقول ببطلانه، أو التنازل عن الاعتقاد بالرجعة والقول باستحالتها، أو التنازل عن صحة الزواج المنقطع والقول بنسخه، من أجل الوحدة الإسلامية؛ لأن الأمر حينذاك لم يعد وحدةً إسلاميةً، إنما يصير تنازلاً عن ثوابت المذهب، وتمييعه وتذويبه في المذاهب الأخرى، فلا يبقى له الكيان الخاص به.

فالوحدة الإسلامية لا تعني التنازل عن ثوابت وضروريات المذهب.

النقطة الخامسة: رعاية الأولويات.

كما أن من أهم المباني الإسلامية هو مبنى تقديم المصلحة العامة على المصلحة

(١) نهج البلاغة ج ٤ ص ٤٣ الحكمة رقم ١٨٣.

الشخصية، فإنَّ من أهم المباني الإسلامية أيضًا رعاية الأولويات في الأهمية، وهذا أمرٌ دعا إليه أهل البيت عليهم السلام؛ ولذلك قام أهل البيت عليهم السلام بأعمالٍ وافقت هذا المبدأ، مثل السكوت عن المطالبة بالحق في وقت ما، كما هو موقف أمير المؤمنين عليه السلام، إذ قدّم المصلحة الأكثر أهميةً على ما تليها في الأهمية، فقدّم مسألة الحفاظ على الدين الإسلامي على مسألة خلافته الظاهرية، وقد تبعه في ذلك أهل البيت عليهم السلام، فقد أجلوا وأخروا المطالبة بحقوقهم في أغلب المواقف إلى فرصٍ أخرى وما شابه.

إن علامات الاستفهام كثرت على موقف الإمام علي عليه السلام - في عدم مطالبته بالخلافة الظاهرية - أكثر من غيره من الأئمة عليهم السلام، إمّا استفهامًا، أو احتجاجًا به على صحة خلافة الخلفاء الثلاثة وتأخره عنهم.

ومهما يكن الدافع وراء هذا السؤال، فيمكن الإجابة عنه بما يأتي:

بعد استشهاد رسول الله صلى الله عليه وآله كانت هناك عدة أخطار تحيط بالدولة الإسلامية الفتية:

١. الخطر الخارجي المتمثل بالأكاسرة والقيصرة الذين كانوا قد أعدّوا العدة للهجوم على الإسلام.

٢. اليهود الذين كانوا قرييين من الدولة الإسلامية.

٣. عدم تعمق الإيمان في قلوب المسلمين، فالكثير منهم كان يتصور أن خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله هي عبارة عن ملك، فمن يسبق إليه فهو الأحقُّ فيه، لذلك رُفعت بعض الشعارات: «منكم أمير ومنا أمير»، و«إنَّ ملك قريش لا يذهب لغيرهم».^(١)

(١) نقل الطبري في تاريخه ج ٢ ص ٤٥٧ ما نصه: قام الحباب بن المنذر بن الجموح فقال: يا معشر الأنصار املكوا عليكم أمركم فإن الناس في فيئكم وفي ظلكم ولن يجترئ مجترئ على خلافكم ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم أنتم أهل العز والثروة وأولوا العدد والمنعة والتجربة ذوو البأس والنجدة وإنها ينظر الناس إلى ما تصنعون ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم ويتنقض عليكم أمركم أبى هؤلاء

وقد فرضت هذه الأخطار ظرفاً موضوعياً استدعى من أهل البيت عليهم السلام تأجيل الإجماع بالمطالبة بحقوقهم، ولكن في نفس الوقت هذا لا يعني أن أهل البيت عليهم السلام تنازلوا عن حقهم أو أنهم حولوا الإمامة إلى غيرهم كما يريد البعض أن يُصوّر هذه المسألة. وإنما كانوا يُسيرون القوم من أجل الحفاظ على الكيان الإسلامي.

فهم من جانب لم يتنازلوا عن مميزاتهم، ومن جانب آخر عملوا قدر الإمكان من أجل الحفاظ على الوحدة الإسلامية، وهذا ما صرح به أهل البيت عليهم السلام في كثير من المناسبات، نذكر منها التالي:

ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام من خطبة له عليه السلام لما عزموا على بيعه عثمان:

«لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا مِنْ غَيْرِي، وَوَاللَّهِ لَأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً، التَّمَسَّاسَ لِأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِينَتِهِ»^(١).

ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر مع مالك الأشتر لما ولاه إمارتها:

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا عليه السلام نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ وَمُهَيِّمًا عَلَى الْمُرْسَلِينَ، فَلَمَّا مَضَى عليه السلام تَنَازَعَ الْمُسْلِمُونَ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ، فَوَاللَّهِ مَا كَانَ يُلْقَى فِي رُوعِي، وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِي

إلا ما سمعتم فمنا أمير ومنكم أمير.

فقال عمر: هيهات لا يجتمع اثنان في قرن والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبهها من غيركم ولكن العرب لا تتمتع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولى أمورهم منهم ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل أو متجانف لاثم أو متورط في هلكة... انتهى

فلاحظ أن عمر بن الخطاب اعتبر ما عليه النبي صلى الله عليه وآله سلطان لعشيرته وأتباعه، وهو امارة لا نبوة، والله في خلقه شؤون.

(١) نهج البلاغة ج ١ ص ١٢٤.

أَنَّ الْعَرَبَ تُزْعِجُ هَذَا الْأَمْرَ، مِنْ بَعْدِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَا أَنْتُمْ مُنْخُوهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ، فَمَا رَاعَنِي إِلَّا انْتِيَالُ النَّاسِ عَلَى فَلَانٍ يُبَايِعُونَهُ، فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الْإِسْلَامِ، يَدْعُونَ إِلَى مُحَقِّ دِينِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثُلَمًا أَوْ هَدْمًا تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ قَوْتٍ وَلَا يَتَكُمُّ الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلِيلٍ، يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ، أَوْ كَمَا يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ، فَتَهَضَّتْ فِي تِلْكَ الْأَحْدَاثِ حَتَّى زَاغَ الْبَاطِلُ وَزَهَقَ، وَاطْمَأَنَّ الدِّينُ وَتَنَهَّه» (١).

وبهذا المعنى يُبرِّرُ نصيح أمير المؤمنين عليه السلام عمر بن الخطاب بأن لا يخرج بنفسه إلى قتال الجيوش؛ لأنَّ أمير المسلمين أمام القياصرة هو عمر بن الخطاب، وإذا قُتِلَ فَإِنَّ الأعداء سيتصورون أنَّ الإسلام انتهى أمره وضعف لأن قائدهم قتل، لذا فإن نصيحة أمير المؤمنين عليه السلام إِيَّاهُ إِنَّمَا كَانَتْ خَوْفًا مِنْهُ عَلَى الْإِسْلَامِ لَا عَلَى نَفْسِ عُمَرَ.

يشهد بذلك صريح عبارته عليه السلام لما شاوره عمر بن الخطاب في الخروج إلى غزو الروم، حيث قال له:

«وَقَدْ تَوَكَّلَ اللَّهُ لِأَهْلِ هَذَا الدِّينِ بِإِعْزَازِ الْخُوَرَةِ وَسِرِّ الْعَوْرَةِ، وَالَّذِي نَصَرَهُمْ وَهُمْ قَلِيلٌ لَا يَنْتَصِرُونَ، وَمَنْعَهُمْ وَهُمْ قَلِيلٌ لَا يَمْتَنِعُونَ، حَيٌّ لَا يَمُوتُ، إِنَّكَ مَتَى تَسِرْ إِلَى هَذَا الْعَدُوِّ بِنَفْسِكَ، فَتَلْقَهُمْ فَتُنَكِّبَ، لَا تَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ كَانِفَةً دُونَ أَقْصَى بِلَادِهِمْ، لَيْسَ بِعَدَاكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، فَابْعَثْ إِلَيْهِمْ رَجُلًا مُحَرِّبًا، وَاحْفَظْ مَعَ أَهْلِ الْبَلَاءِ وَالنَّصِيحَةِ، فَإِنْ أَظْهَرَ اللَّهُ فَدَاكَ مَا تُحِبُّ، وَإِنْ تَكُنِ الْآخَرَى كُنْتَ رِءَاءَ لِلنَّاسِ وَمَثَابَةً لِلْمُسْلِمِينَ» (٢).

وكذلك ما ورد في سيرة الإمام الباقر عليه السلام من أنَّ ملك الروم هدّد عبد الملك بن مروان أنَّ يضرب الدولة الإسلامية بحصار اقتصادي، بعد أن طلب عبد الملك بن

(١) نهج البلاغة ج ٣ ص ١١٨ و ١١٩.

(٢) نهج البلاغة ج ٢ ص ١٨.

مروان من الروم أن يغيروا شعار العملة - وكان آنذاك شعارًا مسيحيًا - فلم يقبل منه وهدده بقطع الدينار عن الدولة الإسلامية. فخاف عبد الملك واستشار حواشيه فأشار أحدهم بقوله: أنت تعلم أن الحل عند محمد بن علي الباقر عليه السلام، فبعث إليه، فعلمهم الإمام عليه السلام كيفية سكّ عملة خاصة بهم وطُبعت شعارات إسلامية عليها، كما علمهم كيفية تمييز الدينار المغشوش من غيره، وبذا أنقذ الإمام الباقر عليه السلام الدولة الإسلامية من الحصار الاقتصادي.^(١)

(١) انظر: حياة الحيوان لكمال الدين الدميري ج ١ ص ٩٥ - ٩٧. حيث قال الإمام الباقر عليه السلام لعبد الملك: «لا يعظم هذا عليك، فإنه ليس بشيء من جهتين: إحداهما أن الله تعالى، لم يكن ليطلق ما تهدد به صاحب الروم، في رسول الله صلى الله عليه وآله، والأخرى وجود الحيلة فيه». قال: وما هي؟ قال: «تدعو في هذه الساعة بصناع، فيضربون بين يديك سككا للدراهم والدنانير، وتجعل النقش عليها صورة التوحيد، وذكر رسول الله صلى الله عليه وآله، أحدهما في وجه الدرهم والدينار، والآخر في الوجه الثاني، وتجعل في مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه، والسنة التي يضرب فيها تلك الدراهم والدنانير».

وقد تقدمت هذه الرواية وترجيح أن هذه الواقعة حدثت مع الإمام زين العابدين عليه السلام في الجزء ٢ ص ٩٠، هامش رقم (١).

عقيدتنا في حق المسلم على المسلم

قال الشيخ رحمه الله:

«عقيدتنا في حق المسلم على المسلم:

إنَّ من أعظم وأجمل ما دعا إليه الدين الإسلامي هو التآخي بين المسلمين على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم ومنازلهم. كما أنَّ من أوطأ وأخس ما صنعه المسلمون اليوم وقبل اليوم هو تسامحهم بالأخذ بمقتضيات هذه الإخوة الإسلامية؛ لأنَّ من أيسر مقتضياتها - كما سيجيء في كلمة الإمام الصادق عليه السلام - «أَنْ يُحِبَّ لأخيه المسلم ما يُحِبُّ لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه».

أنعم النظر وفكّر في هذه الخصلة اليسيرة في نظر آل البيت عليه السلام فستجد أنّها من أشقّ ما يُفرض طلبه من المسلمين اليوم، وهم على مثل هذه الأخلاق الموجودة عندهم البعيدة عن روحية الإسلام، فكّر في هذه الخصلة لو قُدِّر للمسلمين أَنْ يُنصفوا أنفسهم ويعرفوا دينهم حقّاً ويأخذوا بها فقط - أَنْ يُحِبَّ أحدهم لأخيه ما يُحِبُّ لنفسه - لما شاهدت من أحدٍ ظملاً ولا اعتداءً، ولا سرقةً ولا كذباً، ولا غيبةً ولا نميمةً، ولا تهمّةً بسوءٍ ولا قدحاً بباطلٍ، ولا إهانةً ولا تجبراً.

بلى، إنّ المسلمين لو وقفوا لإدراك أيسر خصال الإخوة فيما بينهم وعملوا بها لارتفع الظلم والعدوان من الأرض، ولرايت البشر إخواناً على سُرُرٍ مُتقابلين قد كُمَلت لهم أعلى درجات السعادة الاجتماعية، ولتحقّق حُلُم الفلاسفة الأقدمين في المدينة الفاضلة، فما احتاجوا حينها يتبادلون الحُبَّ والمودة إلى الحكومات والمحاكم، ولا إلى الشرطة

والسجون، ولا إلى قانونٍ للعقوبات وأحكامٍ للحدود والقصاص، ولما خضعوا المُستعمر ولا خنعوا لجبارٍ، ولا استبدَّ بهم الطغاة، ولتبدَّلت الأرض غير الأرض وأصبحت جنة النعيم ودار السعادة.

أزيدك، أن قانون المحبة لو ساد بين البشر - كما يُريده الدين بتعاليم الإخوة - لانمحت من قاموس لغاتنا كلمة (العدل)، بمعنى أننا لم نعد نحتاجُ إلى العدل وقوانينه حتى نحتاج إلى استعمال كلمته، بل كفانا قانون الحب لنشر الخير والسلام، والسعادة والهناء؛ لأنَّ الإنسان لا يحتاج إلى استعمال العدل ولا يطلبه القانون منه إلا إذا فقد الحب فيمن يجب أن يعدل معه، أما فيمن يُبادل الحب كالولد والأخ إنما يُحسن إليه ويتنازل له عن جملة من رغباته فبدافع من الحب والرغبة عن طيب خاطر، لا بدافع العدل والمصلحة.

وسر ذلك أن الإنسان لا يُحب إلا نفسه وما يلائم نفسه، ويستحيل أن يُحب شيئاً أو شخصاً خارجاً عن ذاته إلا إذا ارتبط به وانطبع في نفسه منه صورة ملائمة مرغوبة لديه. كما يستحيل أن يُضحّي بمحض اختياره له، في رغباته ومحوباته لأجل شخص آخر لا يُحبّه ولا يرغب فيه، إلا إذا تكوّنت عنده عقيدة أقوى من رغباته مثل عقيدة حسن العدل والإحسان، وحينئذٍ إذ يُضحّي بإحدى رغباته إنما يضحّي لأجل رغبة أخرى أقوى كعقيدته بالعدل إذا حصلت التي تكون جزءاً من رغباته بل جزءاً من نفسه. وهذه العقيدة المثالية لأجل أن تتكون في نفس الإنسان تتطلب منه أن يسمو بروحه على الاعتبار المادية، ليدرك المثال الأعلى في العدل والإحسان إلى الغير، وذلك بعد أن يعجز أن يتكون في نفسه شعور الإخوة الصادق والعطف بينه وبين أبناء نوعه.

فأول درجات المسلم التي يجب أن يتّصف بها أن يحصل عنده الشعور بالإخوة مع الآخرين فإذا عجز عنها - وهو عاجزٌ على الأكثر لغلبة رغباته الكثيرة وأنانيته - فعليه أن يكون في نفسه عقيدة في العدل والإحسان اتباعاً للإرشادات الإسلامية، فإذا عجز عن

ذلك فلا يستحقّ أن يكون مسلماً إلاّ بالاسم وخرج عن ولاية الله ولم يكن لله فيه نصيبٌ على حدّ التعبير الآتي للإمام. والإنسان على الأكثر تطغى عليه شهواته العارمة فيكون من أشقّ ما يُعانيه أن يهيا نفسه لقبول عقيدة العدل، فضلاً عن أن يحصل عليها عقيدةً كاملةً تفوق بقوّتها على شهواته.

فذلك كان القيام بحقوق الإخوة من أشقّ تعاليم الدين إذا لم يكن عند الإنسان ذلك الشعور الصادق بالإخوة. ومن أجل هذا أشفق الإمام أبو عبد الله الصادق (عليه السلام) أن يوضح لسائله وهو أحد أصحابه «المعلّى بن خنيس» عن حقوق الإخوان أكثر مما ينبغي أن يوضح له خشية أن يتعلم ما لا يستطيع أن يعمل به. قال المعلّى:

قلتُ له: ما حقّ المسلم على المسلم؟

قال أبو عبد الله: «له سبعة حقوق واجبات، ما منهن حقّ إلاّ وهو عليه واجبٌ، إن ضيّع منها شيئاً خرج من ولاية الله وطاعته، ولم يكن لله فيه نصيب».

قلتُ له: جُعِلَتْ فداك! وما هي؟

قال: «يا معلّى، إني عليك شفيقٌ، أخاف أن تضيّع ولا تحفظ، وتعلم ولا تعمل».

قلتُ: لا قوّة إلاّ بالله.

وحينئذٍ ذكر الإمام الحقوق السبعة بعد أن قال عن الأوّل منها: «أيسر حقّ منها أن تُحبّ له ما تُحبّ لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك».

يا سبحان الله! هذا هو الحقّ اليسير! فكيف نجد -نحن المسلمين اليوم- يُسر هذا الحقّ علينا؟ شامت وجوه تدّعي الإسلام ولا تعمل بأيسر ما يفرضه من حقوق. والأعجب؟ أن يلصق بالإسلام هذا التأخر الذي أصاب المسلمين! وما الذنب إلاّ ذنب من يُسمّون أنفسهم بالمسلمين، ولا يعلمون بأيسر ما يجب أن يعملوه من دينهم.

ولأجل التاريخ فقط، ولنعرف أنفسنا وتقصيرها، أذكر هذه الحقوق السبعة التي أوضحها الإمام عليه السلام.

١. أَنْ تُحِبَّ لِأَخِيكَ الْمُسْلِمِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَتَكْرَهُ لَهُ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ.
 ٢. أَنْ تَجْتَنِبَ سَخَطَهُ، وَتَتَّبِعَ مَرْضَاتِهِ، وَتُطِيعَ أَمْرَهُ.
 ٣. أَنْ تُعِينَهُ بِنَفْسِكَ، وَمَالِكَ، وَلِسَانِكَ، وَيَدِكَ، وَرِجْلِكَ.
 ٤. أَنْ تَكُونَ عَيْنَهُ، وَدَلِيلَهُ، وَمَرَّاتَهُ.
 ٥. أَنْ لَا تَشْعِبَ وَيَجُوعَ، وَلَا تَرُوى وَيَظْمَأُ، وَلَا تَلْبَسَ وَيَعْرِى.
 ٦. أَنْ يَكُونَ لَكَ خَادِمٌ وَلَيْسَ لِأَخِيكَ خَادِمٌ، فَوَاجِبٌ أَنْ تَبْعَثَ خَادِمَكَ، فَتَغْسِلَ ثِيَابَهُ، وَتَصْنَعَ طَعَامَهُ، وَتَمَهِّدَ فِرَاشَهُ.
 ٧. أَنْ تَبَرِّقَ قِسْمَهُ، وَتُجِيبَ دَعْوَتَهُ، وَتَعُودَ مَرِيضَهُ، وَتَشْهَدَ جَنَازَتَهُ.
- وَإِذَا عَلِمْتَ لَهُ حَاجَةً تُبَادِرُهُ إِلَى قَضَائِهَا، وَلَا تُلَجِّئُهُ إِلَى أَنْ يَسْأَلَكَهَا، وَلَكِنْ تُبَادِرُهُ مُبَادِرَةً».

ثم ختم كلامه عليه السلام بقوله:

«فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ وَصَلْتَ وَلَا يَتَكَ بَوَلَايَتُهُ وَوَلَايَتُهُ بَوَلَايَتِكَ».

وبمضمون هذا الحديث رواياتٌ مُستفيضةٌ عن أئمتنا جمع قسماً كبيراً منها كتاب الوسائل في أبواب مُتفرقة.

وقد يتوهم المتوهم أنّ المقصود بالاخوة في أحاديث أهل البيت عليهم السلام خصوص الاخوة بين المسلمين الذين من أتباعهم «شيعتهم خاصة»، ولكن الرجوع إلى رواياتهم كلّها يطرد هذا الوهم، وإن كانوا من جهةٍ أخرى يُشددون النكير على من يُخالف طريقتهم ولا يأخذ بهداهم ويكفي أن تقرأ حديث معاوية بن وهب قال:

قلت له -أي الصادق عليه السلام -: كيف ينبغي لنا أن نصنع فيما بيننا وبين قومنا وبين خلطائنا من الناس ممن ليسوا على أمرنا، فقال: «تنظرون إلى أئمتكم الذين تقتدون بهم فتصنعون ما يصنعون، فوالله، إنهم ليعودون مرضاهم، ويشهدون جنازتهم، ويقيمون الشهادة لهم وعليهم ويؤدّون الأمانة إليهم».

أما الإخوة التي يُريدها الأئمة عليهم السلام من أتباعهم فهي أرفع من هذه الإخوة الإسلامية، وقد سمعت بعض الأحاديث في فصل تعريف الشيعة. ويكفي أن تقرأ هذه المحاورة بين أبان بن تغلب وبين الصادق عليه السلام من حديث أبان نفسه. قال أبان: كنت أطوف مع أبي عبد الله فعرض لي رجلٌ من أصحابنا كان سألني الذهاب معه في حاجته، فأشار إليّ، فرآنا أبو عبد الله.

قال: «يا أبان إياك يريد هذا؟»

قلت: نعم

قال: «هو على مثل ما أنت عليه؟»

قلت: نعم.

قال: «فاذهب إليه واقطع الطواف».

قلت: وإن كان طواف الفريضة؟

قال: «نعم».

قال أبان: فذهبت، ثم دخلت عليه بعد، فسألته عن حقّ المؤمن

فقال: «دعه لا تردّه!»

فلم أزل أرد عليه حتّى قال: «يا أبان تُقاسمه شطر مالك، ثم نظر إليّ فرأى ما

داخلني، فقال: يا أبان، أما تعلم أنّ الله قد ذكر المؤثرين على أنفسهم؟»

قلتُ: بلى

قال: «إذا أنت قاسمته فلم تؤثره، إنما تؤثره إذا أنت أعطيته من النصف الآخر!»
أقول: إنَّ واقعنا المُخجل لا يُطمعنا أن نسمِّي أنفسنا بالمؤمنين حقًّا. فنحن بواِدِّ
وتعاليم أئمتنا عليهم السلام في وادٍ آخر. وما داخل نفس أبان يُدخل نفس كُلِّ قارئٍ لهذا
الحديث، فيصرف بوجهه مُتناسياً له كأنَّ المُخاطب غيره، ولا يُحاسب نفسه حساب
رجلٍ مسؤولٍ». انتهى.

لكي يتبين المقصود من هذه العقيدة نذكر الخطوات التالية:

١. يمثل الدين منهاجاً متكاملاً لحياة أفضل، فليس هو مجرد طقوس تُتلى في بيوتِ
العبادة، وإنَّما بالإضافة إلى تلك الطقوس المقدسة هو منهجٌ عمليٌ يتدخل في جميع
مفاصل الحياة.

٢. إنَّ العلاقات التي يعيشها الفرد متنوعة، فهناك العلاقة العمودية المتمثلة
بالعلاقة بالله ﷻ وما يترتب عليها من الاعتقاد بالرسول ﷺ وأهل البيت عليهم السلام
وبالكتاب وبالإسلام عموماً، وهناك علاقة أفقية هي علاقة الإنسان بالطبيعة عموماً
وبأخيه الإنسان خصوصاً، كعلاقتك برحمك وزميلك بالعمل وجارك وهكذا.

٣. جاء الدين لينظم جميع هذه العلاقات عبر الشريعة المقدسة، فهناك أصول
الدين التي تنظم العلاقة مع الخالق، وهناك فروع الدين التي تنظم طريقة التقرب إلى
الخالق وطريقة إرضائه، وكذلك هناك آداب التعامل وآداب العشرة التي تُعنى بتنظيم
العلاقات الأفقية.

إذن فالدين ينظم كلَّ العلاقات الأفقية والعمودية من خلال الشريعة.

٤. هناك أحكامٌ شرعية عاجلت آداب العشرة، مثل آداب النفقة على الزوجة وعلى

الأبوين وعلى الأبناء بشروطٍ ذُكرت في كتب الفقه في كتاب النكاح وباب النفقات على الزوجة والأولاد، وكعلاقة الرحم، وآداب السفر والزيارة وغيرها.

وقد أضفت الشريعة المقدسة على بعض تلك الأحكام صفة الإلزام الشرعي، حيث يؤثم المكلف عند مخالفتها، كالنفقة على الزوجة، فهي واجبةٌ حتى وإن كان الزوج فقيراً وكانت الزوجة غنية، فعلى الزوج أن ينفق على زوجته مطلقاً، وأما الأبوان والأبناء فيجب على المؤمن الإنفاق عليهم فيما إذا كانوا فقراء وكان هو غنياً.

وإلى جانب الأحكام الإلزامية فقد جاءت الشريعة المقدسة بأحكام شرعية أخرى إلا أنها مستحبة مؤكدة، يترتب على فعلها ثواب عظيم.

٥. تلك الآداب المستحبة وإن كانت غير إلزامية لكن الأدبيات الروائية أطلقت عليها عنوان: الحق، وإن كانت ليست حقاً في واقعها، مثل إعارة الشيء، فهو ليس بحق، ويفتقر إلى سمة الإلزام، لكن الروايات أطلقت عليه كلمة (حق)؛ لأن الدين يعد العلاقة العقائدية من أقوى العلاقات التي تربط بين أفراد المجتمع، تلك العلاقة التي لا تبني على مصلحةٍ أو أمرٍ دنيوي، إنما تكون لوجه الله ﷻ، والدين يعدها من أقوى العلاقات؛ لذلك فابن النبي نوح عليه السلام وإن كان ابنه نسباً، غير أن القرآن الكريم لم يعتبره كذلك، قال ﷺ: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، فقطع العلاقة بينهما؛ لاختلافهما في العقيدة. على حين «سلمان منا أهل البيت»، إذ روي أنه احتج المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي، وكان رجلاً قوياً، فقال المهاجرون: سلمان منا. وقالت الأنصار: لا، بل سلمان منا. فقال رسول الله ﷺ: «سلمان منا أهل البيت».^(١)

فالارتباط العقائدي يجعل هذه العلاقات حقاً لازماً على الآخر، وقد تنوعت تلك الحقوق إلى مفرداتٍ عديدة ذكرها الشيخ رحمه الله من خلال عدة روايات، نكتفي هنا بذكر

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ج ٢١ ص ٤٠٨.

واحدة مهمة منها:

عَنْ مُعَلَّى بْنِ خُنَيْسٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: قُلْتُ لَهُ: مَا حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ؟
قَالَ عليه السلام: «لَهُ سَبْعُ حُقُوقٍ وَاجِبَاتٍ، مَا مِنْهُمْ حَقٌّ إِلَّا وَهُوَ عَلَيْهِ وَاجِبٌ، إِنْ ضَيَّعَ مِنْهَا شَيْئًا خَرَجَ مِنْ وِلَايَةِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ وَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ فِيهِ مِنْ نَصِيبٍ».

قُلْتُ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، وَمَا هِيَ؟

قَالَ عليه السلام: «يَا مُعَلَّى، إِنِّي عَلَيْكَ شَفِيقٌ، أَخَافُ أَنْ تُضَيِّعَ وَلَا تَحْفَظَ، وَتَعْلَمَ وَلَا تَعْمَلَ».
قَالَ: قُلْتُ لَهُ: لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

قَالَ عليه السلام: «أَيَسَّرَ حَقٌّ مِنْهَا أَنْ تُحِبَّ لَهُ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَتُكْرَهُ لَهُ مَا تُكْرَهُ لِنَفْسِكَ».

وَالْحَقُّ الثَّانِي: أَنْ تَجْتَنِبَ سَخَطَهُ وَتَتَّبِعَ مَرْضَاتَهُ وَتُطِيعَ أَمْرَهُ.

وَالْحَقُّ الثَّالِثُ: أَنْ تُعِينَهُ بِنَفْسِكَ وَمَالِكَ وَلِسَانِكَ وَيَدِكَ وَرِجْلِكَ.

وَالْحَقُّ الرَّابِعُ: أَنْ تَكُونَ عَيْنَهُ وَدَلِيلَهُ وَمِرَّاتَهُ.

وَالْحَقُّ الْخَامِسُ: أَنْ لَا تَشْبَعَ وَيَجُوعَ، وَلَا تَرَوَى وَيَظْمَأَ، وَلَا تَلْبَسَ وَيَعْرَى.

وَالْحَقُّ السَّادِسُ: أَنْ يَكُونَ لَكَ خَادِمٌ وَلَيْسَ لِأَخِيكَ خَادِمٌ، فَوَاجِبٌ أَنْ تَبْعَثَ

خَادِمَكَ فَيَغْسِلَ ثِيَابَهُ وَيَصْنَعَ طَعَامَهُ وَيُمَهِّدَ فِرَاشَهُ.

وَالْحَقُّ السَّابِعُ: أَنْ تُبَرِّ قَسَمَهُ ^(١)، وَتُجِيبَ دَعْوَتَهُ، وَتَعُودَ مَرِيضَهُ، وَتَشْهَدَ جَنَازَتَهُ،

وَإِذَا عَلِمْتَ أَنَّ لَهُ حَاجَةً تُبَادِرُهُ إِلَى قَضَائِهَا، وَلَا تُلَحِّثُهُ أَنْ يَسْأَلَكَهَا، وَلَكِنْ تُبَادِرُهُ مُبَادَرَةً.

فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ وَصَلْتَ وَلَايَتَكَ بِوَلَايَتِهِ وَوَلَايَتَهُ بِوَلَايَتِكَ ^(٢).

(١) الظاهر أن قسمه بفتحتين وهو اسم من الأقسام وأن المراد ببر قسمه قبوله: واصل البر الاحسان ثم استعمل في القبول، يقال بر الله عمله إذا قبله كأنه أحسن إلى عمله بأن قبله ولم يرده كذا في الفائق وقبول قسمه وإن لم يكن واجبا شرعا لكنه مؤكد لثلا يكسر قلبه ولا يضيع حقه. [هامش المصدر].

(٢) الكافي للكليني ج ٢ ص ١٦٩ باب حَقِّ الْمُؤْمِنِ عَلَى أَخِيهِ وَأَدَاءِ حَقِّهِ ح ٢.

عقيدتنا في البعث والمعاد

قال الشيخ رحمه الله:

«عقيدتنا في البعث والمعاد:

نعتقد أنّ الله ﷻ يبعثُ الناس بعد الموت في خلقٍ جديدٍ في اليوم الموعود به عباده، فيُثيبُ المطيعين ويُعَذِّبُ العاصين، وهذا أمرٌ على مُجملته وما عليه من البساطة في العقيدة اتفقت عليه الشرائع السماوية والفلاسفة، ولا محيص للمُسلم من الاعتراف به عقيدة قرآنيةً جاء بها نبينا الأكرم ﷺ، فإنَّ من يعتقدُ بالله اعتقادًا قاطعًا ويعتقد كذلك بمُحمَّدٍ رسولاً منه أرسله بالهدى ودين الحق لا بُدَّ أنْ يؤمنَ بما أخبرَ به القرآن الكريم من البعث والثواب والعقاب والجنة والنعيم والنار والجحيم، وقد صرَّح القرآن بذلك ولمَحْ إليه بما يقربُ من ألفِ آيةٍ كريمة.

وإذا تطرَّقَ الشكُّ في ذلك إلى شخصٍ فليسَ إلا لشكٍ يُحاجِّجه في صاحبِ الرسالة أو وجود خالق الكائنات أو قدرته، بل ليسَ إلا لشكٍ يعتريه في أصلِ الأديان كُلِّها وفي صحة الشرائع جميعها». انتهى.

يتناول الشيخ رحمه الله في هذه العقيدة الأصل الأخير من الأصول الخمسة للمذهب والدين، وهو أصل المعاد، ويتدوَّى الفصل بهذا العنوان (عقيدتنا في البعث والمعاد)، ولكي تتضح هذه العقيدة بصورة جلية لا بُدَّ من التطرُّق إلى مطالبَ عدة تتناولها تبعاً ولكن بعد أن نتعرض إلى معنى المعاد:

المعاد: في اللغة: هو الرجوع والعودة.

في الاصطلاح: هو إعادة الروح إلى البدن في يوم القيامة، أو عودة الروح بعد الموت إلى البدن للحساب وللخلود.

وهنا عدة مطالب:

المطلب الأول: إثبات الوجود المجرد (إثبات وجود الروح).

تقدّم أنّ المعاد هو إعادة الروح إلى البدن، ومعنى البدن واضحٌ جداً. فهو موجودٌ مادي، يتسم بجميع ما يميز هذا الوجود من مميزات، وهي:

١. الجسمية، يعني له طول وعرض وعمق أو ارتفاع.
٢. الكون في جهةٍ من الجهات، بحيث تمكن الإشارة المادية إليه في جهةٍ دون جهة.
٣. لا يشغل مكانين في آنٍ واحد، فالموجود المادي إذا كان موجوداً في جهةٍ فهو حتماً ليس بموجودٍ في جهةٍ أخرى.

٤. إنّ له زمناً، يعني له بداية من حيث الزمن وله نهاية، فهو ليس أزلياً ولا أبدياً، أي ليس قديماً ولا خالداً.

٥. إمكان إدراكه بالحواس الظاهرة، بحيث تمكن رؤيته بالعين، وسماعه بالأذن وهكذا. نعم، قد يكون بعيداً جداً فنحتاج إلى تلسكوب كما في الأنجم البعيدة في أغوار السماء، وقد يكون صغيراً جداً فنحتاج إلى مجهر.

٦. موجودٌ مركب، أي إنّهُ مكوّنٌ من أجزاءٍ مجتمعة، كما يمكن تقسيمه إلى تلك الأجزاء.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل يقتصر الوجود على الموجود المادي فقط؟ وإن لم يكن الأمر كذلك، وكان هناك موجود مجرد، وهي الروح في محل كلامنا، فلم لا

يُمكننا إدراكها؟ بل ما هو معناها؟

فهل هي موجودة؟ ما الدليل على ذلك؟

هناك مدرستان لكلٍّ منهما جوابٌ مختلفٌ عن الآخر. وهما:

المدرسة الأولى: المدرسة المادية:

وهي التي تفترض أن كلَّ ما في الوجود موجودٌ ماديٌّ، وأيُّ شيءٍ لا يُدرك بالحواس فهو غير موجود.

وقد وجدت هذه النظرية حتى في بعض المدارس الإسلامية، كما في مدرسة الأشاعرة، إذ لم يرتضوا (عدم إمكان رؤية الله ﷻ بالعين الباصرة)، وهو أمر يستلزم كونه مادياً -وحاشاه-، ومن المضحك المبكي ما يُنقل من أن أستاذ أحد المدارس الوهابية سأل طلابه: كيف تعرفون الله ﷻ يوم القيامة؟ فأجابه أحدهم: ذكر الله ﷻ في القرآن الكريم: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾! وهناك رواية -عندهم- تقول: إنَّ الله ﷻ يسأل النار يوم القيامة: هل امتلأت؟ فتقول: هل من مزيد على الرغم من كثرة الناس والحجارة فيها، وهناك رواية أخرى تقول: إنه تعالى يضع رجله فيها، فتقول له: قط قط قط^(١)... شبع. فقال: عندما يكشف عن رجله نرى أن ساقه محروقة فنعرف حينئذٍ أنه هو الله ﷻ وليس جبرائيل!

ولا غرو فيما فهموه من الكتاب العزيز، إذ إنَّ هذا ما يتوصل إليه التفكير المادي،

(١) في مسند أحمد ج ٢ ص ٢٧٦: عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «احتجت الجنة والنار، فقالت الجنة: يا رب مالي لا يدخلني إلا فقراء الناس وسقطهم وقالت النار مالي لا يدخلني إلا الجبارون والمتكبرون. فقال للنار: أنت عذابي أصيب بك من أشاء. وقال للجنة: أنت رحمتي أصيب بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما الجنة فإن الله يشي لها ما يشاء، وأما النار فيلقون فيها وتقول: هل من مزيد، حتى يضع قدمه فيها، فهناك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض وتقول: قط قط قط».

وما الروايات التي استدلت بها هذا الطالب الوهابي إلا روايات ساذجة بل وباطلة؛ لتعارضها الصريح مع المحكم من آيات التنزيل الحكيم.

بل إن التفكير المادي يلغي كل ما هو بديهي من التصورات وما نراه من أمور خارجية وصور تُطبع في الذهن، فهم يقولون: ليس لدينا في الخارج سوى الوجود المادي وليس هناك وجود للجزء المجرد، فالإنسان وكل ما في الوجود هو فقط مادة. ومن يعتقد بهذا أتى له أن يعتقد بعودة الروح إلى البدن؟! إذن فهو لا يعتقد بهذا المعاد.

المدرسة الثانية: المدرسة الواقعية:

تفترض هذه المدرسة أن هناك ثلاثة أنواع من الموجودات:

الأول: الموجود المادي

وقد تقدّم بيانه مع بيان موجز لخصائصه.

الثاني: الموجود المثالي

ويشتمل هذا الموجود على طولٍ وعرضٍ وارتفاعٍ، إلا أنه مُفرغٌ من المادة، أي إن نفس المادة غير موجودة فيه. ومثاله الصورة في المرآة، فإنها تشتمل على الطول والعرض والارتفاع للشخص المرئي، ولكنها لا تحوي على مادة ذلك الشخص، والبعض أضاف لها الصورة الذهنية للشيء الذي نتصوره من الخارج، فعند تصوّر صورة زيد في الذهن مثلاً، حيث طوله (١٧٠ سم)، وعرضه (٥٠ سم)، وعمقه (٣٠ سم)، فهذه الأبعاد وإن كانت موجودة في الذهن، لكن المادة نفسها لم تنتقل إلى الذهن قطعاً. وكذا بالنسبة إلى تصور صورة أي موجود مادي في الذهن مهما صغر حجمه أو كبر، كالفيل، الجبل، الحجر.

وعليه فالموجود المثالي وإن كان يتسم ببعض سمات الموجود المادي كالطول والعرض والارتفاع في الذهن، إلا أنه ليس بهادي لافتقاده إلى المادة ذاتها.

الثالث: الموجود المجرد:

وهذا ما لا مادة في وجوده ولا حتى بعض سمات الموجود المادي، وينقسم إلى قسمين:

١/ واجب الوجود:

وهو منحصر بالله ﷻ بالوحدة الحقيقية، فلا يتصور له فرد ثانٍ، قال ﷺ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾^(١) وقد تقدم الحديث عنه في مباحث التوحيد.

٢/ ممكن الوجود:

كما في الملائكة والروح، وهي ممكنة لسبقها بالعدم، ولافتقارها في وجودها وبقائها إلى واجب الوجود.

إذا تبين هذا يُسأل: ما الدليل على الوجود المجرد (الروح)؟

الجواب: توجد عدة أدلة على ذلك، أهمها:

الدليل الأول: الأنا.

أثبت العلم الحديث أنَّ ذرات وخلايا هذا الجسم المادي من الإنسان تتعرض لعملية الهدم والبناء، فتموت خلايا وتولد بدورها خلايا أخرى جديدة وهكذا، بحيث إنَّ جميعها تتغير في كلِّ ثمانِ سنواتٍ. أي إنَّ الجزء المادي من يد أي إنسانٍ لم يكن موجودًا نفسه قبل ثمانِ سنواتٍ.

وأما خلايا المخ فقد ذهب البعض إلى أنَّها لا تتحول ولا تتغير، بيد أنَّ تطور العلوم أثبت أنَّ التغير يطال حتى خلايا المخ، لكن بفترةٍ أطول من الفترة التي تستغرقها عملية

(١) الأنبياء ٢٢.

تغيير سائر خلايا الجسم الأخرى.

إذن ننتهي الى أن العلم أثبت أن جميع خلايا الجسم تتغير، وعليه فإن جسم الإنسان بعد خمسين سنة مثلاً يكون قد تبدل وتغير مادياً بالكامل على أقل تقدير خمس مرات. فيمكن القول -بحسب العلم-: إن يد الإنسان اليوم هي ليست نفس اليد قبل خمسين سنة، ولكن رغم هذا التغير يشعر الإنسان أن هناك جزءاً في شخصيته لم يتبدل ولم يتغير رغم تغير جسمه باستمرار، فما هو هذا الجزء؟

حسب العلم الحديث، قال العلماء إن عملية التجديد تطال جميع خلايا البدن، فإذاً هناك شيء آخر لا يتغير، وذلك الجزء هو الذي ما يسميه الإنسان بقوله (أنا)، فمنذ أن كنت في الثالثة من عمري مثلاً، وحتى الآن في السابعة والثلاثين سنة يوجد هناك جزء ثابت أطلق عليه كلمة (أنا) رغم تغير جسمي وتبدله. فهذا الجزء الثابت الذي أعبر عنه بـ(الأنا) هو ليس جزءاً مادياً؛ إذ لو كان مادياً لتغير.

إذن هناك جزء آخر في جسم الإنسان غير الجزء المادي وهو الجزء المجرد (الروح) الذي إلى الآن لم تُكتشف حقيقتها، قال ﷺ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١)

الدليل الثاني: التقاط الصور:

إننا ومن خلال العين نلتقط صوراً عن الموجودات المادية الخارجية، ومن خلال هذه الصور نتعامل مع الخارج، فعندما نتعامل مع صديقك مثلاً، فإن عينك تنظر إليه وتلتقط صورة له، فتنتقل هذه الصورة من الوجود الخارجي إلى عينك، ومن ثم إلى ذهنك، ومن خلال هذه الصورة نتعامل معه، فعندما تراه مرة ثانية فإنك تتعرف إليه من

خلال مراجعة صورته الموجودة في ذهنك، فتُجري عملية مطابقة بين الصورة الخارجية والصورة المخزونة في ذهنك فتحكم حينئذٍ بأنه فلان، وهكذا في كل الأشياء الأخرى. وحديثنا هنا حول هذه الصورة الذهنية تحديداً، والتي عندما تغمض عينك تراها موجودة، وترى صاحبها من خلالها، رغم أنك لا تراه حقيقةً، بل ربما كان مسافراً أو ميتاً حتى.

هذه الصورة هل هي مادية أو لا؟

بمعنى: هل لهذه الصورة طولٌ وعرضٌ وعمقٌ وثقلٌ أو لا؟

لو كانت الصورة ماديةً فهذا يعني أنّ لها ثقلًا وجرمًا ومكانًا، ويُشار إليها بالإصبع، وتُرى بالعين المجردة. أيّ إنّ هناك شيئاً مادياً انتقل من الخارج وصار في الذهن، ويتناسب مع الذي رأيته في الخارج من حيث سماته المادية، فإذا نظرت إلى نملة يأتي إلى ذهنك شيءٌ له ثقلٌ وأبعاد وشكل النملة، وكذا إذا نظرت إلى دبابة، فيأتي إلى ذهنك ثقلٌ وزنها مثلاً ٣٠ طناً، وكذا إذا نظرت إلى جبلٍ يأتي إلى ذهنك شيءٌ ثقله مئات وآلاف الأطنان وهكذا.

وهذا من الواضح جداً أنه غير معقول وغير متحقق في الواقع؛ إذ لا قابلية للذهن على استيعاب كل ما يراه بحجمه وثقله الحقيقيين، والحال أنّ «كُلُّ وَعَاءٍ يَضِيقُ بِمَا جُعِلَ فِيهِ - إِلَّا وَعَاءُ الْعِلْمِ فَإِنَّهُ يَتَّسِعُ بِهِ»^(١) كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام.

وعليه، فإنّ كلّ تلك الصور الموجودة في الذهن هي ليست من الوجود المادي، وإنّما هي موجودٌ غير مادي، وهو المجرد، وهو المطلوب.

وبذا ثبت أيضاً بطلان ما ذهب إليه المدرسة المادية من أنّ جميع ما في الوجود من

(١) نهج البلاغة ج ٤ ص ٤٧ الحكمة رقم ٢٠٥.

موجوداتٍ هي مادية فقط.

الدليل الثالث: تذكر وتخيّل الصور:

إنّ لدى الإنسان قدرةً على تذكر صورٍ كثيرةٍ لأشياء مادية كان قد رآها فيما مضى، فلو رأيت مثلاً حديقة غناء قبل عدة سنوات والآن تريد أن تحكي عنها فتقول: دخلتُ الحديقة وكان فيها أنواعٌ من الورود وتنظيمها كذا.. في حين أنّك الآن لستَ في تلك الحديقة، لكنك تتكلم عن صورة الحديقة الموجودة في ذهنك.

وكذلك بالنسبة إلى تخيّل الصور، فبمقدورك تخيل ما تشاء منها وإن كان غير موجودٍ في الخارج مطلقاً، كما لو كنت تتخيل طائرًا برأسين، أو تتخيل أنّك تطير على بساطٍ سحري.

وهذه القدرة على تذكر الصور وعلى تخيلها موجودةٌ عند الإنسان، ومن الواضح جدًّا أنّ كلّاً من تلك الصور التي تتذكرها أو تتخيلها إنما هي صورٌ مجردة عن المادة، فهي وجودٌ إما مثالي أو مجرد، وبالنتيجة فإنّ وجودها وجودٌ غير مادي. والروح هي من الموجود غير المادي.

سؤال: تقدّم أنّ الوسائل والأدوات التي يُستفاد منها في معرفة الموجودات المادية هي الحواس، فهل يمكن الاستفادة من نفس تلك الوسائل (الحواس) في معرفة الموجود المجرد؟

والجواب: إنّ الموجود المجرد لا يمكن التعرف عليه من خلال الحواس؛ إذ لا مجال للحواس في ساحة المجردات. والوسيلة الوحيدة لمعرفته هو العقل.

فإذا ثبت هذا نقول:

هل من المنطقي أن يطالبنا أحدٌ بإثبات الوجود المجرد بالوسائل المادية؟

إنَّ هذا السؤال غير صحيح؛ لأنَّ الوسائل المادية كالعين مثلاً ليست وسيلةً لأدراك المجرد، فهي وسيلةٌ ماديةٌ لا يدرك بها إلا ما كان مادياً مثلها، فالسؤال المتقدم غير منطقي، وهذا ما بيّنه أمير المؤمنين (ع) وقد سأله ذعلب اليماني، فقال: هل رأيت ربَّك يا أمير المؤمنين؟ فقال (ع): «أفأعبد ما لا أرى؟»، فقال: وكيف تراه؟ فقال: «لا تراه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تُدرّكه القلوب بحقائق الإيمان...»^(١).

المطلب الثاني: إمكان المعاد في حد نفسه.

أي هل إنَّ رجوع الروح للبدن ووجود يوم القيامة هو أمر بالإمكان وقوعه، أو أنَّه ممتنعٌ كاجتماع النقيضين؟

الدليل قائم على الإمكان، وبيانه بالتالي:

تقدّم في الأبحاث السابقة أننا لا نحكم على عقيدةٍ ما بالبطلان وبعدم الصدق إلا إذا استلزمت أحد أمرين:

١/ أن تخالف حكماً عقلياً ثابتاً كاجتماع النقيضين.

٢/ إذا كانت مخالفةً لضرورةٍ من ضروريات الدين.

وليس في المعاد (رجوع الروح للبدن) أي تناقض عقلي، بمعنى أنَّه أمرٌ ممكن، فقد يقع أو لا يقع؛ لأنَّه لا يخالف حكماً عقلياً. ومما يشير إلى إمكانه عدة أمور:

الأول: سبقُ عالمنا بالعدم.

فهذا العالم الذي نعيش فيه هو عالمٌ مسبوقٌ بالعدم، إذ لم يكن موجوداً سابقاً، كما تقدم الكلام في هذا سابقاً. وعليه، فإذا أمكن أن يقع عالمٌ لم يكن موجوداً من قبل ثم وجد، فإنَّ وجود عالمٍ آخر ليس من العدم، وإنَّما هو موجودٌ (فالروح موجودةٌ والبدن

(١) نهج البلاغة (ج ٢ / ص ٩٩).

كذلك وإن تحلل إلى ذرات في التراب) ممكنٌ أيضًا، بل هو أسهل؛ لأنَّ إيجاد شيءٍ من العدم حتمًا أصعب من إيجاد شيءٍ مما هو موجودٌ فعليًا.

وكمثال على ذلك - مع الأخذ بعين الاعتبار أنَّ المثال يقرب من جهة ويبعد من جهات -، لو أنَّ هناك شخصًا لا يملك نقودًا وأراد أن يشتري بيتًا، فإنَّ حاله بالتأكيد أصعب ممن يملك نقودًا ولكنه يحتاج إلى تجميعها من هنا وهناك. وكذلك فإنَّ إعادة عالمٍ موجودٍ أسهل بكثير من إحداث عالمٍ من العدم.

وإذا أمكن الأصعب - وهو إيجاد عالمٍ من العدم - أمكن الأسهل - وهو إعادة المخلوق بدنا بعد أن تتفرق أجزاؤه المادية في التراب وإعادة الروح الموجودة إلى ذلك البدن -.

وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾^(١).

لذلك فمن العجيب أن يؤمن المرء بأنَّ الله ﷻ أحدثنا أي أوجدنا من العدم ثم ينكر المعاد، وهذا ما يعبر عنه ما روي عن أبي حمزة قال: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ ﷺ يَقُولُ: «عَجَبٌ كُلُّ الْعَجَبِ لِمَنْ أَنْكَرَ الْمَوْتَ وَهُوَ يَرَى مَنْ يَمُوتُ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ لِمَنْ أَنْكَرَ النَّشْأَةَ الْآخِرَى وَهُوَ يَرَى النَّشْأَةَ الْأُولَى»^(٢).

الثاني: قاعدة (إن أدل دليل على الإمكان هو الوقوع)

لو أردنا أن نعرف شيئًا ما هل هو ممكنٌ أو ممتنعٌ، وصرنا نبحث عن أدلةٍ لثبت القضية، وأثناء البحث وقع وحدث أمامنا فعليًا، فحينئذٍ لا حاجة بعد ذلك إلى البحث عن دليل للإمكان، لأن الشيء إذا وقع فمعناه أنه ممكن، وإلا فلو كان ممتنع الوجود لما وقع، كما لو كنا نبحث عن أدلةٍ عن إمكان ولادة توأمين بنفس الصفات من كل الجهات،

(١) الأعراف ٢٩.

(٢) الكافي للكليني ج ٣ ص ٢٥٨ باب النوادر ح ٢٨.

وأثناء البحث العلمي والتحليل ولد توأمان متماثلان بجميع الصفات. فعندئذ ليس هناك من داعٍ إلى إكمال البحث؛ لأن وقوع ما كنا نبحث عن أدلة لإثبات إمكان وقوعه أدلُّ دليلٍ على إمكان وقوعه.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى المعاد الذي هو عبارة عن (رجوع الروح إلى البدن) فإن وقع هذا الأمر، فهو أمرٌ ممكن بالتأكيد وإلا فكيف وقع؟!

والمُدعى هو أن عودة الروح إلى البدن -وهو عبارة أخرى عن (إحياء الموتى)- قد وقع في الدنيا فعلاً، فهو أمر ممكن إذن، ونذكر لذلك أمثلة:

١/ من الطبيعة، قال ﷺ: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١).

الآية واضحة أن الله ﷻ الذي بإمكانه أن يحيي الأرض الميتة فإن بإمكانه أن يحيي الميت الإنساني أيضاً.

٢/ ما حكاه القرآن الكريم من طلب النبي إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولِمُ تُوْمَنَ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢).

واضح من الآية أن النبي إبراهيم عليه السلام أخذ أربعة من الطير وقطّعهن، فماتت وخلط لحمها ووزعها على قمم عشرة جبال، ثم بعد أن دعاهن رجعن إليه كحالتهم الأولى، فالقرآن الكريم يذكر أن إعادة أبدان تلك الطيور ورجوع أرواحها إليها قد وقعت في الحياة الدنيا، فإذن المعاد ممكن.

(١) الروم ٥٠.

(٢) البقرة ٢٦٠.

٣/ إحياء النبي عيسى عليه السلام الموتى، قال ﷺ: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾^(١) الآية واضحة جدًا بأن إحياء الموتى ليس فقط ممكن، وإنما وقع في الدنيا أيضًا.

المطلب الثالث: هل إنَّ المعاد ضروري؟

بعد أن ثبت أنَّ المعاد أمرٌ ممكن وليس بمستحيل، قد يتبادر إلى الذهن سؤال: إمكان وقوع الشيء لا يلزم كونه ضروريًا، فهل المعاد كذلك، أي أنه ممكن ولكن قد يبقى في حيز الإمكان وليس هناك ضرورة لوقوعه، أم أنه ضروري؟

الجواب: من المعلوم أنَّ هناك وعدًا ووعداءً والأول ما يترتب عليه جزاء الأفراد أو الأمم بالخير والأجر والثواب، وأما الثاني فهو ما يترتب عليه جزاء الأفراد والأمم بالعذاب. وقد فرقت الشريعة المقدسة بينهما من حيث لزوم الوقوع، فالأول واقعٌ لا محالة؛ لأنَّ الله ﷻ لا يخلف الوعد؛ لأنَّ ذلك خلف الكمال، والله ﷻ كله كمالٌ مطلق. وأما الثاني فأمرٌ وقوعه بيده ﷻ قد يأمر بوقوعه، وقد لا؛ وذلك حسبما تقتضيه حكمته ورحمته، وهو لا يخالف الكمال.

وكمثالٍ على ذلك، فقد ذكرت الروايات أنَّ ظهور الإمام المهدي عليه السلام من الوعد، أي إنه واقعٌ بلا أدنى شك، وأما السفيفاني فإنه وإن كان من العلامات الحتمية، إلا أنَّه ليس وعدًا من الله ﷻ، فهو أقصى ما يكون كالوعد منه ﷻ، والوعد يمكن مخالفته؛ لأنَّ في ذلك لطفًا إلهيًا.

فقد روي عن أبي هاشم داود بن القاسم الجعفري، قال: كنّا عند أبي جعفر محمد بن عليّ الرضا عليه السلام، فجرى ذكر السفيناني، وما جاء في الرواية من أن أمره من المحتوم، فقلت لأبي جعفر: هل يبدو لله في المحتوم؟ قال: «نعم»، قلنا له: فنخاف أن يبدو لله في القائم، فقال: «إن القائم من المعاد، والله لا يُخلف المعاد»^(١).

وعليه، فإن وقوع المعاد أمرٌ ضروري، ومما يشير إلى ضرورته: العدل الإلهي أو الحكمة الإلهية، ويمكن توضيح ذلك بالنقاط الآتية:

النقطة الأولى: ضرورة بلوغ الهدف من خلق الإنسان، وإلا كان عبثاً.

أو عدم عبثية خلق الله ﷻ للإنسان.

ففي مباحث التوحيد ثبت أن الله ﷻ لا يمكن أن يصدر منه فعلٌ من دون حكمة، فكلُّ أفعاله حكيمةٌ معللةٌ بالغايات، ولا تصدر عبثاً، وخلق الإنسان فعلٌ الله ﷻ، وخلقه بالتأكيد حكمةٌ وهدف، والحكمة في قوله ﷻ: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(٢)

فالهدف من وجود الإنسان هو محاولة الوصول به إلى أعلى درجات الكمال الممكنة له؛ وذلك لأنَّ الإنسان له القدرة لأن يكون مخدوماً من قبل الملائكة، فيصل إلى قاب قوسين أو أدنى، وبالمقابل له إمكانية أن ينزل إلى أسفل سافلين.

إنَّ الهدف النهائي للإنسان هو العبادة، كما في قوله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٣)، وإذا نظرنا إلى حياة الإنسان هل نجد أن الدنيا هي المكان المناسب للحصول على الهدف النهائي لوجود الإنسان ليصل إلى كماله الممكنة؟!

كثيرٌ من المؤمنين من يموت وهو شاب أو لم يصل إلى كماله الذي كان يهدف له،

(١) الغيبة للنعماني (ص ٣١٤ و ٣١٥ / باب ١٨ / ح ١٠).

(٢) الحجر ٩٩.

(٣) الذاريات: ٥٦.

وحيث إنَّ الحكمة من وجود الإنسان هو بلوغ الكمال المطلق، فإذا لم يكن هناك عالمٌ آخر يمكن أن يصل فيه المؤمن إلى كماله الممكن، فحينها يكون خلق الإنسان في هذه الدنيا عبثاً؛ لأنَّه خُلِقَ لهدفٍ لم يصل إليه، وهذا يعني أنَّ الحكمة الإلهية تقتضي وجود عالمٍ آخر تتجلى فيه الحكمة الإلهية لإيصال هذا الإنسان إلى كماله الممكن.

الثانية: ضرورة إثابة المطيعين وتعذيب العاصين.

إنَّ المؤمن يُتَعَبُّ نفسه كثيراً بالالتزام بالتكاليف الشرعية، وفي عبادة الله ﷻ، فهو ربما لا ينام إلا قليلاً، من دون أن يحصل على أجر أعماله في الدنيا. وبالمقابل نجد الظلمة يعيثون في الحياة الدنيا ويعيثون في الأرض فساداً، دون أن يجاسبهم أحدٌ على ظلمهم، فلو لم ينل الأول ثواب عبادته، ولم ينل الثاني عقاب جرمه وفساده، فهذا خلاف الحكمة والعدل.

مما يعني أنَّ عالمنا الذي نعيشه الآن ليس الخطوة الأخيرة في حياة البشرية، وإنَّما هناك خطواتٌ أخرى، يُجْزَى فيها كُلُّ امرئٍ بما يستحق من الجزاء، فيُثَابِ المطيعون، ويُعَذَّبُ العاصون. وهذا ما يُشير إليه القرآن الكريم في بعض آياته: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ كُفُّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١) فمن الحكمة والعدل والرحمة الإلهية أن يكون هنالك عالمٌ آخر غير هذا العالم الذي يموت فيه المطيع والعاصي من دون أن ينالا ما يستحقان من أجرٍ أو عقوبةٍ، وإذا لم يكن هناك عالمٌ آخر لكان هذا ظلمًا وخلاف العدل الإلهي.

الثالثة: ضرورة إنصاف المظلومين من الظالمين.

على الرغم من أن الله ﷻ لم يستثن أحدًا من مواهبه وعطاياه ومنته من جهة، وأرسل الأنبياء والمرسلين وأردفهم بأوصياء (سلام الله عليهم أجمعين) لبيان شريعته ودينه الذي ارتضاه لبني البشر، فحرّم الإجرام والاعتداء على الآخرين في عرضهم أو أرضهم أو سمعتهم أو دمائهم أو أموالهم وغير ذلك من التشريعات التنظيمية لعلاقة الإنسان مع أبناء نوعه من جهة أخرى، إلا أن بعض البشر لم يقنعوا بما من الله ﷻ عليهم من منن، وامتدت أعينهم إلى من سواهم، لتتبعها أيديهم بالاعتداء والظلم والإجرام، وبالنتيجة كان هناك ظالمون وآخرون مظلومون.

وفي الأعم الأغلب لم ينل الظالمون جزاءهم من العقاب، بل وإن نالوا جزاءهم فربما لا يكون جزاءً عادلاً، كما لو قتل شخص المئات أو الآلاف من البشر، فهل يملك هذا الطاغية إلا نفساً واحدة، ومن ثم فإن حُكْم عليه بالقتل فهو وإن كان حكماً شرعياً يتوافق وهذه النشأة وقوانينها، إلا أنه ربما لا يكون عادلاً بصورة مطلقة، ومن ثم لا بدّ من وجود حياة أخرى يُنتصف فيها من الظالمين للمظلومين، ليس هذا فحسب، بل وتتسم بقوانين أخرى بحيث يمكن تنفيذ الحكم العادل بحق كل ظالم، كل حسب جرمه وجرائمه.

ومن تلك القوانين أنه لا موت فيها، قال ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(١).

المطلب الرابع: هل المعاد جسماني أو روحاني فقط؟

قال تثنى:

«عقيدتنا في المعاد الجسماني:

وبعد هذا، فالمعاد الجسماني بالخصوص ضرورة من ضروريات الدين الاسلامي،
دَلَّ صريح القرآن الكريم عليها: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى
أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴿، ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبْ قَوْلُهُمْ إِذَا كُنَّا تُرَابًا إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾،
﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾

وما المعاد الجسماني على إجماله إلا إعادة الإنسان في يوم البعث والنشور ببدنه بعد
الخراب، وإرجاعه إلى هيئته الأولى بعد أن يصبح رمياً. ولا يجب الاعتقاد في تفصيلات
المعاد الجسماني أكثر من هذه العقيدة على بساطتها التي نادى بها القرآن، وأكثر مما يتبعها
من الحساب والصراط والميزان والجنة والنار والثواب والعقاب بمقدار ما جاءت به
التفصيلات القرآنية.

«ولا تجب المعرفة على التحقيق التي لا يصلها إلا صاحب النظر الدقيق، كالعلم بأن

الأبدان هل تعود بذواتها أو إنما يعود ما يماثلها بهيئات؟

وأن الأرواح هل تُعَدَم كالأجساد أو تبقى مُستمرّة حتى تتصل بالأبدان عند المعاد؟

وأن المعاد هل يختص بالإنسان أو يجري على كافة ضروب الحيوان؟

وأن عودها بحكم الله دفعي أو تدريجي؟

وإذا لزم الاعتقاد بالجنة والنار لا تلزم معرفة وجودهما الآن ولا العلم بأنهما في

السماء أو الأرض أو يختلفان.

وكذا إذ وجبت معرفة الميزان لا تجب معرفة أمّها ميزان معنوية أو لها كفتان ولا تلزم

معرفة أنَّ الصراط جسمٌ دقيقٌ أو هو الاستقامة المعنوية.

والغرض أنَّه لا يُشترط في تحقيق الإسلام معرفة أنَّها من الأجسام.

نعم، إنَّ تلك العقيدة في البعث والمعاد على بساطتها هي التي جاء بها الدين الاسلامي، فإذا أراد الإنسان أن يتجاوزها إلى تفصيلها بأكثر مما جاء في القرآن، ليقنع نفسه دفعاً للشُّبه التي يثيرها الباحثون والمُشككون بالتماس البرهان العقلي أو التجربة الحسية - فإنه إنَّما يجني على نفسه ويقع في مُشكلاتٍ ومُنازعاتٍ لا نهاية لها.

وليس في الدين ما يدعو إلى مثل هذه التفصيلات التي حشدت بها كتب المتكلمين والمتفلسفين، ولا ضرورة دينية ولا اجتماعية ولا سياسية تدعو إلى أمثال هاتيك المُشاحنات والمقالات المشحونة بها الكتب عبثاً والتي استنفدت كثيراً من جهود المجادلين وأوقاتهم وتفكيرهم بلا فائدة.

والشُّبه والشكوك التي تُثار حول تلك التفصيلات يكفي في ردّها قناعتنا بقصور الإنسان عن إدراك هذه الأمور الغائبة عنّا والخارجة عن أفقنا ومُحيط وجودنا والمُرتفعة فوق مستوانا الأرضي، مع علمنا بأنَّ الله ﷻ العالم القادر أخبرنا عن تحقيق المعاد ووقوع البعث.

وعِلوم الإنسان وتجربياته وأبحاثه يستحيل أن تتناول شيئاً لا يعرفه ولا يقع تحت تجربته واختباره إلا بعد موته وانتقاله من هذا العالم عالم الحس والتجربة والبحث، فكيف يُنتظر منه أن يحكم باستقلال تفكيره وتجربته بنفي هذا الشيء أو إثباته، فضلاً عن أن يتناول تفاصيله وخصوصياته، إلا إذا اعتمد على التكهّن والتخمين أو على الاستبعاد والاستغراب، كما هو من طبيعة خيال الانسان أن يستغرب كُل ما لم يألفه ولم يتناوله علمه وحسه، كالقائل المُندفع بجهله لاستغراب البعث والمعاد ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾.

ولا سند لهذا الاستغراب إلا أنه لم ير ميتاً رميمًا قد أُعيدت له الحياة من جديد، ولكنه ينسى هذا المستغرب كيف خلقت ذاته لأول مرة، ولقد كان عدماً، وأجزاء بدنه رميمًا تألفت من الأرض وما حملت ومن الفضاء وما حوى، من هنا وهنا، حتى صار بشراً سوياً ذا عقل وبيان، ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ *.

يُقال لمثل هذا القائل الذي نسي خلق نفسه: "يُحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكُلِّ خلقٍ عليم"، يُقال له: إنك بعد أن تعترف بخالق الكائنات وقدرته وتعترف بالرسول وما أخبر به، مع قصور علمك حتى عن إدراك سرِّ - خلق ذاتك وسرِّ تكوينك، وكيف كان نموك وانتقالك من نطفة لا شعور لها ولا إرادة ولا عقل إلى مراحل مُتصاعدة مؤتلفاً من ذرات مُتباعدة، بلغ بشراً سوياً عاقلاً مُدبراً ذا شعور وإحساس. يُقال له: بعد هذا كيف تستغرب أن تعود لك الحياة من جديد بعد أن تُصبح رميمًا، وأنت بذلك تحاول أن تتناول إلى معرفة ما لا قبل لتجاربك وعلومك بكشفه؟

يقال له: لا سبيل حينئذٍ إلا أن تُذعن صاغراً للاعتراف بهذه الحقيقة التي أخبر عنها مُدبر الكائنات العالم القدير وخالقك من العدم والريميم. وكُلُّ محاولة لكشف ما لا يمكن كشفه ولا يتناوله علمك فهي محاولة باطلة، وضربٌ في التيه، وفتحٌ للعيون في الظلام الحالِك.

إنَّ الإنسان مع ما بلغ من معرفة في هذه السنين الأخيرة، فاكشف الكهرباء والرادار واستخدم الذرة، إلى أمثال هذه الاكتشافات التي لو حدث عنها في السنين الخوالي لعدّها من أولِ المُستحيلات ومن مواضع التندر والسخرية أنّه مع كُُلِّ ذلك لم يستطع كشف حقيقة الكهرباء ولا سر الذرة، بل حتى حقيقة إحدى خواصها وأحد أوصافها، فكيف يطمع أن يعرف سر الخلقة والتكوين، ثم يترقى فيريد أن يعرف سر المعاد والبعث.

نعم، ينبغي للإنسان بعد الإيمان بالإسلام أن يتجنب عن متابعة الهوى وأن يشغل فيما يصلح أمر آخرته ودنياه، وفيما يرفع قدره عند الله وأن يتفكر فيما يستعين به على نفسه، وفيما يستقبله بعد الموت من شدائد القبر والحساب بعد الحضور بين يدي الملك العلام وأن يتقي يوماً لا تُجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يُقبل منها شفاعَةٌ ولا يؤخذ منها عدلٌ ولا هم يُنصرون». انتهى.

ذهب البعض أن المعاد هو للروح فقط، وأن البدن لا يُعاد، فيما يرى آخرون أن المعاد جسماني، أي إن الإنسان يُعاد بجسده وروحه.

والصحيح كما هو واضح أن المعاد جسماني وليس روحانياً فقط، تدلُّ على ذلك آيات كثيرة منها:

١/ تبدل الجلود:

قال ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(١)

مما لا شك فيه أن الجلود هي جزء من الجسد، وذكر القرآن الكريم لتبدلها دليل قاطع على أن المعاد جسماني.

٢/ شهادة الجوارح:

قال ﷺ: ﴿وَقَالُوا لِحُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٢)، ومعلوم أن الجوارح إنما هي أجزاء من جسم الإنسان، فشهادتها يوم القيامة دليل على أن المعاد جسماني.

(١) النساء ٥٦.

(٢) فصلت ٢١.

٣/ اللذائذ المادية:

تناولت الكثير من الآيات المباركة ما في الجنة من لذائذ مادية أعدت للمؤمنين من طعام وشراب وزواج وحرور عين. وهذه اللذائذ إنما هي لذائذ للبدن لا للروح، وحيث ذكرها الله ﷻ دلّ ذلك على أنّ المعاد ليس بالروح فقط، بل هو بالروح والجسم معاً.

إشكالان حول المعاد جسماني.

أثيرت العديد من الإشكالات حول المعاد الجسماني، نشير إلى إشكالين منها مع جوابهما سريعاً:

الإشكال الأول: إعادة المعدوم.

حاصله: أنّ البدن يُتلف وينعدم بعد الموت، فكيف يرجع المعدوم؟ حيث إنّ مفاد المعاد الجسماني هو أنّ في يوم القيامة ترجع هذه الروح إلى الجسم المتحلل في التراب بعد الموت، فهذا البدن صار عدماً في التراب فكيف يعود؟!

الجواب:

أنّ الإنسان فيه جزأين: جزء مادي وهو البدن، وجزء مجرد وهو الروح. وحيث إنّ الروح موجودٌ مجردٌ فلا يصيبها أيُّ فسادٍ بالموت ولا تنعدم، فالإشكال منسحبٌ على البدن فقط.

وقد أثبت العلم أنّ المادة لا تفتنى، وإنّما تتحول من حالةٍ إلى حالةٍ، فالبدن يتفسخ ويتحول إلى ذراتٍ وأقصاه يتحول إلى طاقة، لكنها بالنتيجة لا تفتنى وإنّما تضيع أو تُستهلك في التراب وتصبح سماءاً يتغذى عليها النبات، أو قد يموت الإنسان في البحر فيتحلل جسمه في البحر وتأكله الأسماك، وعلى كلّ الأحوال فالخلايا موجودة. وفي يوم القيامة حيث إنّ الله ﷻ عالمٌ بالعلم غير المحدود، وقادر بقدره غير محدودة، فيمكنه جمع

تلك الخلايا المتفرقة وإرجاع البدن، وإذا أردنا أن نقرب المسألة فإن لكل خلية شفرة خاصة، وهناك جهاز يلتقط حسب الذبذبات شفرات هذه الخلايا، فأينما كانت وكيفما صارت هذه الخلايا فإنه يجدها ويرتبها حسب الترتيب الخاص بها، وعليه فإن البدن لم يفن، ويمكن إعادته.

والنتيجة أن الأساس الوحيد الذي ابتنت عليه هذه الشبهة من أن البدن يكون عدماً غير صحيح. نعم، ربما يعدّ العرف كذلك، لكنه في الحقيقة هو موجودٌ تحلل إلى ذراتٍ متفرقة هنا وهناك لا أكثر.

الإشكال الثاني: شبهة الآكل والمأكول:

تسلم هذه الشبهة بأن المعاد جسماني، وأن هذا البدن الذي يتحلل بعد دفنه في التراب أو يُحرق كما في عقيدة البوذيين، ستتفرق أجزاؤه وتُصبح إما تراباً لمقلع طين لتكوين طابوق البناء، أو أملاحاً تتغذى عليها النباتات، فتصبح جزءاً من تفاحة أو عشبٍ مثلاً، فيتغذى على تلك التفاحة شخصٌ آخر فيأكلها فتصير جزءاً من جسم ذلك الميت، أو يتغذى على ذلك العشب حيوانٌ كالخروف مثلاً، فتصبح جزءاً من جسمه وما إن يُذبح ويُطهى حتى يتفرّق في أجسام آكليّه وهكذا.

وعليه سيكون هناك آكلٌ ومأكولٌ، ومما يزيد الأمر تعقيداً أنه ربما أجزاء جسم إنسانٍ مؤمن تُصبح أجزاءً من جسم إنسانٍ كافر أو العكس، فكيف يدخل جسم الكافر إلى الجنة وينعم فيها، أو بالعكس يدخل جزءٌ من جسم المؤمن إلى النار ويُعذب فيها نتيجة وجوده في جسم الكافر، فهذه مشكلةٌ تحتاج إلى حل لها. وقد قُدمت عدة أجوبة عن هذه الشبهة، منها التالي:

الجواب الأول:

إنَّ جسم الإنسان يتكون من أجزاء أصلية وأجزاء غير أصلية، وفي الموت عندما يتحلل جسمه تتحلل الأجزاء غير الأصلية وأما الأجزاء الأصلية فلا تتحلل. وفي المعاد يأخذ الله ﷻ ذلك الجزء الأصلي ومنه يكون بقية أجزاء الجسم الأخرى، كما في البلورة التي يصنعون منها البلاستيك حيث تدخل في عملية حرارية.

يقول البعض: إنَّ هذا الجزء موجودٌ بأسفل العمود الفقري وهو لا يتحلل، ويستدلون على ذلك ببعض الروايات كما ورد عَنْ عَمَّارِ بْنِ مُوسَى عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: سُئِلَ عَنِ الْمَيِّتِ يَبْلَى جَسَدُهُ؟ قَالَ ﷺ: «نَعَمْ، حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُ لَحْمٌ وَلَا عَظْمٌ، إِلَّا طَيِّبَتُهُ الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا فَإِنَّهَا لَا تُبْلَى تَبْقَى فِي الْقَبْرِ مُسْتَدِيرَةً، حَتَّى يُخْلَقَ مِنْهَا كَمَا خُلِقَ أَوَّلَ مَرَّةٍ»^(١).

وبغض النظر عن سنده -الذي حكم عليه البعض بالضعف-، فإنَّ العلوم الحديثة لم تصل إلى أنَّ هذا الجزء من البدن لا يفنى، وإنَّما انتهوا إلى أنَّ الجسم كله يفنى (بمعنى أنه يتحلل)، فعندما تنظر إلى جسمٍ أُحْرِقَ تمامًا فلا يبقى منه هذا الجزء المشار إليه. وعلى كل حال هو خلاف ظاهر القرآن الكريم، وبالنتيجة هو جوابٌ، فإنَّ صحَّ فتنتفي به هذه الشبهة.

الجواب الثاني:

أنَّ هذه المواد لا تفنى، وأنَّ كلَّ الخلايا ترجع، وأنَّ هذه الخلية حسب الشبهة التي صارت جزءاً من الجسم الآخر إنما هي مجرد خلية صغيرة منه، وكلُّ جسمٍ سيعيد ما أخذه من خلايا من غيره من الأجسام، وقد يتسبب هذا الأمر بأن يصغر البدن، فمثلاً لو كان طوله (١٨٠ سم) مثلاً فإنه سيكون (١٢٠ سم)، وبذلك فإن كل جسمٍ سيرجع

(١) الكافي، ج ٣، ص ٢٥١، ح ٧.

إلى أصله.

ويستدل على هذا الرأي ببعض الروايات، فقد ورد عن هشام بن الحكم في محاجة الزنديق للإمام الصادق (عليه السلام)، فقال [الزنديق]: وأنى له بالبعث والبدن قد بلى، والأعضاء قد تفرقت، فعضو ببلدة يأكلها سباعها، وعضو بأخرى تمزقه هوامها، وعضو قد صار تراباً بني به مع الطين حائط؟

قال (عليه السلام): «إن الذي أنشأه من غير شيء، وصوره على غير مثال كان سبق إليه، قادر أن يعيده كما بدأه».

قال: أوضح لي ذلك.

قال: «إن الروح مقيمة في مكانها، روح المحسن في ضياء وفسحة، وروح المسيء في ضيق وظلمة، والبدن يصير تراباً كما منه خلق، وما تقذف به السباع والهوام من أجوافها، مما أكلته ومزقته كل ذلك في التراب. محفوظ عند من لا يعزب عنه مثقال ذرة في ظلمات الأرض، ويعلم عدد الأشياء ووزنها، وأن تراب الروحانيين بمنزلة الذهب في التراب، فإذا كان حين البعث مطرت الأرض مطر النشور، فتربو الأرض ثم تمخضوا مخض السقاء، فيصير تراب البشر كمصير الذهب من التراب إذا غسل بالماء، والزبد من اللبن إذا مخض، فيجتمع تراب كل قالب إلى قلبه، فينتقل بإذن الله القادر إلى حيث الروح، فتعود الصور بإذن المصور كهيئتها، وتلج الروح فيها، فإذا قد استوى لا ينكر من نفسه شيئاً»^(١).

والرواية واضحةٌ وبها تنحل الشبهة.

(١) الاحتجاج للشيخ الطبرسي ج ٢ ص ٩٧ و ٩٨.

الجواب الثالث:

تقدّم أنّ الإنسان مكوّنٌ من بدنٍ وروحٍ، وحقيقة الإنسان إنّما هي بروحه، وأما البدن فمتغير، إذ تقدّم أنّه يتغير كلّ ثمان سنواتٍ، وخلال أربعين سنة مثلاً يكون البدن قد تغيّر خمس مرات تقريباً، ومع ذلك تبقى (الأنا) هي نفسها التي كانت قبل أربعين سنة محتفظاً بها. وهذا يدلُّ على أنّ هناك شيئاً ثابتاً في شخصية الإنسان، وهو الذي يستحق الثواب أو العذاب.

وكمثال على ذلك، لو أُجِرم إنسانٌ قبل خمسين سنة، وأرادوا أن يعاقبوه بعد مرور كل تلك المدة، فهل يُقبل منه أن يقول: إنّما قتلته باليد التي كانت قبل خمسين سنة، وتلك اليد قد تحولت وتغيرت مراراً، وما ستعاقبونه الآن ليست تلك اليد التي ارتكبت الجريمة وإنّما يدٌ أخرى؟! حتّى يُقال له: إنّنا نعاقبك أنت لذاتك ولروحك.

وهذا إنّ دلّ على شيءٍ إنّما يدلُّ على أنّ حقيقة الإنسان بروحه، وأما البدن فهو مجرد آلة للروح ووظيفته تنفيذ أوامر الروح، وهو الذي من خلاله تتأثر الروح، فتُسّر وتتنعم أو تحزن وتتألم، فإذا أردت الذهاب إلى المسجد فإنّ بدنك هو الذي سيأخذك، وهو في خدمتك ويتحرك بأمرك، وإن احتاجت روحك إلى الارتواء فإنّ جسمك هو الذي سيتحرك ويشرب الماء، فترتوي روحك.

فالجسم مجرد آلة لتأثير وتأثر الروح؛ لأن هذه الروح ليس لها اتصال بعالم المادة، فهي مجردة وتحتاج إلى آلة تكون حلقة الوصل بينها وبين الماديات، وما تلك الآلة إلا البدن.

فإنّ كان الأمر كذلك فإنّ الروح بإمكانها أن تُعذّب أو تُنعم، سواء تلبست بالبدن الأصلي لها أو بسواه؛ لأنّ العذاب والنعيم إنّما تشعر به الروح فقط، وأما الجسم فهو واسطة في إيصال ذلك النعيم أو العذاب ليس إلا.

وعليه، فلو سلّمنا بهذه الشبهة وكان جسم المؤمن أكثره من جسم كافر ودخل الجنة، أو كان جسم الكافر أكثره جسم المؤمن ودخل النار، فلا يقال: إنّ هذا الكافر هو الذي دخل الجنة ولا إنّ هذا المؤمن دخل النار، كما أنّه لا الكافر سيشعر بالنعيم، ولا المؤمن سيحترق بالجحيم؛ لأنّ كلّاً من العذاب والألم إنّما يطالان الروح فقط وفقط، لا الجسم، وأما هو فلا يعدو أن يكون واسطةً لإيصال الشعور بألم الجحيم أو لذة النعيم. ولتقريب الفكرة أكثر، فإنّ الروح مثل شريحة التلفون فالاتصال لا يرد إلا عليها، مهما تغيّر الجهاز، وما الجهاز إلا آلة لتفعيل الشريحة.

ويشير إلى هذه الفكرة قوله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(١) فلو كان البدن هو الذي يُعذب فإنّ البدن تعذب وانتهى في العذاب الأول وإنما سيأتي الله ﷻ للكافر ببدنٍ آخر.

والخلاصة: نحن نؤمن بأنّ قدرة الله ﷻ أعظم من هذه الشبهات، وهذا كافٍ للرد على هذه الشبهة.

المطلب الخامس: المعاد وتربية الإنسان

المعاد: هو عود الروح إلى البدن.

الميعاد: هو يوم القيامة.

من الواضح جداً أنّ الإيمان بالمعاد والميعاد يتدخل مباشرةً بسلوك الإنسان؛ وذلك لأنّ الإيمان بهما يعني أنّ فعل الإنسان وكلّ قولٍ يصدر منه لا يذهب سُدىً، وإنّما يُحفظُ عند حفيظٍ عليمٍ، لا يعزب عنه أي شيء، إنّ خيرًا فخير وإن شرًا فشر. قال ﷻ: ﴿وَكُلَّ

إِنْسَانٍ أَلَزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ
بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا^(١)

وهذا يعني: أَنَّ كُلَّ أعمال الإنسان محفوظة، من طاعة أو معصية، من إحسان أو إساءة، وهناك جزاء من الله ﷻ، حيث يثيب المطيعين ويعاقب العاصين، فهو واسع الرحمة وفي نفس الوقت هو شديد العذاب.

وهذا هو الإيمان بأنَّ هناك يوماً سيُحشر فيه الناس وسيحاسبون على كل صغيرة وكبيرة كما قال ﷻ: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ لِمَا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا^(٢)﴾، وقوله ﷻ: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^(٣)﴾

فالإنسان إذا عاش هذا الإحساس في جميع حركاته وسكناته، فإنه من باب الدافع الفطري في دفع الضرر عن نفسه من جهة، وفي جلب المنفعة لها من جهة أخرى، سيعمل على الالتزام بالحق والابتعاد عن الباطل بشكل تلقائي.

لو التزم كل الناس بهذه الثمرة المترتبة على الإيمان بالمعاد، فستحول الأرض إلى جنة أرضية، كل منهم لا يأخذ إلا حقه، ولا يتجاوز حدوده، ولن يحدث حينئذ أيُّ نزاحمٍ أو أيُّ أكلٍ بالباطل، وعندئذ سيرتدع المجرم عن ارتكاب أي جريمة؛ لأنه يعلم بأنه إن ارتكبها فستبقى محفوظة وسيحاسب عليها لا محالة، فلاجل أن يدفع الضرر عن نفسه فإنه يجتنب ارتكابها، وكذا فيما لو واجه المؤمن مرارة في الحياة، فإنه يفضل أن

(١) الإسراء ١٣ و ١٤.

(٢) الكهف: ٤٩.

(٣) الجاثية ٢٩.

يصبر عليها ويتجرّعها على أن يحيد عن الطريق الذي أَرَادَهُ اللهُ ﷻ؛ ولذا تعبر الروايات: «الدنيا سجن المؤمن».

فقد روي عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَجَلَانَ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللهِ ﷺ، فَشَكَا إِلَيْهِ رَجُلٌ الْحَاجَّةَ، فَقَالَ ﷺ لَهُ: «اصْبِرْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَجْعَلُ لَكَ فَرْجًا».

قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ سَاعَةً، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الرَّجُلِ فَقَالَ ﷺ: «أَخْبِرْنِي عَنْ سَجْنِ الْكُوفَةِ، كَيْفَ هُوَ؟!» فَقَالَ: أَصْلَحَكَ اللهُ، ضَيِّقٌ مُتَتْنٌ، وَأَهْلُهُ بِأَسْوَأَ حَالٍ. قَالَ ﷺ: «فَإِنَّمَا أَنْتَ فِي السَّجْنِ، فَتُرِيدُ أَنْ تَكُونَ فِيهِ فِي سَعَةٍ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الدُّنْيَا سَجْنُ الْمُؤْمِنِ».^(١)

والدنيا وإن كانت سجنًا للمؤمن، إلا أنها تعقبه فسحة لا حد لها، جنة عرضها السماوات والأرض، من هنا سيتولد أملٌ في نفوس المؤمنين بأن أعمالهم وصبرهم وتجرعهم للآلام لا يمكن أن تذهب سدى، مهما كانت صغيرة وإن كانت صدقة بسيطة لحيوان بعيدًا عن أعين الناس قربةً إلى الله ﷻ.

فهذا الإحساس والإيمان بالمعاد يدفع بالإنسان إلى التزام جادة الصواب والتزام الطاعات واجتناب المعاصي، حتى وإن لم يكن بدافع جلب النفع ودفع الضرر، فإنه سيؤدي لمفعوله، وعلى أي الحالين فالنتيجة واحدة وهي الاستقامة.

المطلب السادس: ما هو المقدار الواجب من الإيمان بالمعاد؟

يُعدُّ ما يحدث يوم القيامة أمرًا مستقبليًا، ومن ثم لا بد من الرجوع فيه إلى الآيات الكريمة والروايات الشريفة، أي لا بد من الرجوع إلى من له الاطلاع على ذلك العالم المستقبلي.

(١) الكافي للكليني ج ٢ ص ٢٥٠ بَابُ مَا أَخَذَهُ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى مَا يَلْحَقُهُ فِيمَا ابْتُلِيَ بِهِ ح ٦٠.

ويمكن تقسيم ما يحدث يوم القيامة إلى قسمين: ما له أثر عملي في السلوك الإنساني، وما لا أثر عملياً له في السلوك الإنساني، ومن ثم فإنَّ المقدار الواجب الإيمان به من قبل الإنسان هو الأول؛ لما له من مدخلية في عمله -صالحاً كان أو طالحاً-، وأما الثاني، فطالما لم يكن فيه أثر على سلوك الإنسان، فلا يتوجب عليه أن يُتعب نفسه فيها.

وهذا نظير ما قد ذُكر في قضية الإمام المهدي عليه السلام حيث قلنا إنه ليس من الواجب على المؤمن أن يُتعب نفسه ويهدر وقته في معرفة علامات الظهور، وإنَّما يكفي منه فقط معرفة العلامات الحتمية المؤشرة للظهور.

وكذلك في قضية المعاد فهناك الكثير من التفاصيل التي ليس من الضروري التعرض لها ومعرفتها نحو معرفة كيفية الصراط، أو معنى الميزان، فهذه مسائل لا بأس في معرفتها من باب الفضول العلمي لكن ليس من الواجب إتعاب النفس فيها؛ لأنه يكفيها فقط معرفة ما يعود علينا بالفائدة التربوية، نحو معرفة أنَّ هناك يوماً تُبعث فيه وأنَّ الله سبحانه سيحاسبنا فيه على أعمالنا إنَّ خيراً فخير وإنَّ شراً فشر، وكلُّ سينال ما يستحق إما يدخل الجنة أو النار والعياذ بالله سبحانه، وأنَّ نؤمن بذلك، وهذا ما أشار له الشيخ قدس سره في عبارة كتابه وصرح بها تصريحاً.

حيث قال قدس سره: وما المعاد الجسماني على إجماله إلا إعادة الانسان في يوم البعث والنشور ببدنه بعد الخراب، وإرجاعه إلى هيئته الأولى بعد أن يصبح رميماً. ولا يجب الاعتقاد في تفصيلات المعاد الجسماني أكثر من هذه العقيدة على بساطتها التي نادى بها القرآن، وأكثر مما يتبعها من الحساب والصراط والميزان والجنة والنار والثواب والعقاب بمقدار ما جاءت به التفصيلات القرآنية.

«ولا تجب المعرفة على التحقيق التي لا يصلها إلا صاحب النظر الدقيق، كالعلم بأنَّ الأبدان هل تعود بذواتها أو إنما يعود ما يماثلها بهيئات، وأنَّ الأرواح هل تعدم

كالأجساد أو تبقى مستمرة حتى تتصل بالأبدان عند المعاد، وأن المعاد هل يختص بالإنسان أو يجري على كافة ضروب الحيوان، وأن عودها بحكم الله دفعي أو تدريجي. وإذا لزم الاعتقاد بالجنة والنار لا تلزم معرفة وجودهما الآن ولا العلم بأنهما في السماء أو الأرض أو يختلفان. وكذا إذ وجبت معرفة الميزان لا تجب معرفة أنها ميزان معنوية أو لها كفتان ولا تلزم معرفة أن الصراط جسم دقيق أو هو الاستقامة المعنوية والغرض أنه لا يشترط في تحقيق الإسلام معرف أنها من الأجسام...»^(١)

(١) مقتبس من كتاب كشف الغطاء ص ٥ للشيخ الكبير كاشف الغطاء.

ملحق: عوالم الإنسان.

من باب الاستطراد نتعرض لذكر العوالم الماضية والحاضرة والمستقبلية التي مرَّ وسيمرُّ بها الإنسان ابتداءً من عالم الذر إلى القيامة على نحو الإيجاز، وهي ستة عوالم:

عوالم الإنسان:

العالم الأول: عالم الذر

هو من المفاهيم التي اُختلِف فيها وفي الإيمان به، وإن لم يترتب على معرفته والإيمان به أي أثر عملي في سلوك الإنسان. وقد استدل بعض العلماء بآية قرآنية على وجود هذا العالم، كما يمكن أن تفسَّر بعض المواقف الحياتية به، كما لو رأيت شخصاً لأول مرة وأنت على ظنٍ كبير ربما متاخماً لليقين أنك رأيته من قبل، فقد يُفسَّر ذلك على أنك ربما رأيته في عالم الذر.

والآية الكريمة التي يُستدلُّ بها على عالم الذر هي قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾^(١).

وهي من الآيات التي كثر الكلام والاختلاف فيها بين المفسرين، ونذكر هنا بعض النقاط:

(١) سورة الأعراف: آية [١٧٢ و ١٧٣]

النقطة الأولى: المعنى العام للآية:

تشير الآية الكريمة إلى أنّ الله ﷻ جمع الخلق كلّهم من أول المخلوقين إلى آخرهم، وسألهم: أولست بربكم؟ أي أوليس الله ﷻ ربكم ومدبر أموركم، وقد أقرّ الجميع بربوبيته ﷻ، إذ أجابوا: بلى.

الهدف من هذا التقرير:

١/ عدم السماح للمتمردين على هذا الإقرار بادعاء الغفلة والجهل يوم القيامة؛ لأنهم أقرّوا.

٢/ منعهم من اتخاذ التقليد للآباء ذريعةً لارتكاب المعاصي.

النقطة الثانية: المعاني التربوية للآية.

تهدف الآية المباركة إلى تذكير الإنسان بأنّه قد أقرّ في عالم الذر بالربوبية لله ﷻ ومن ثم فليس له أن يُقلد الآباء بالباطل، وأن على المرء أن يكون حذرًا من مخالفة الأحكام الإلهية؛ لأنّ الله ﷻ قد أتمّ الحجة على العباد، والله ﷻ الحجة البالغة، فأعطاهم عقلاً وأرسل لهم رسلاً، وأقرّهم وقرّره على أنفسهم بربوبيته ﷻ. فبعد كلّ ذلك لا عذر لمذنبٍ ولا ذريعة لعاصٍ.

روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام): «قَدْ بُصِّرْتُمْ إِنْ أَبْصَرْتُمْ، وَقَدْ هُدِيتُمْ إِنْ اهْتَدَيْتُمْ، وَأُسْمِعْتُمْ إِنْ اسْتَمَعْتُمْ»^(١). فكلّ شيء قد تمّ تجهيز جميع البشر به، وما بقي عليهم إلا أن يُفعلوا ما زودوا به من أجهزة، فمن لم يهتد فبسوء اختياره، ولا عذر لمن ضلّ يوم القيامة إلا الغفلة أو تقليد الآباء وكلاهما قد نهت الآية على رفض كونها عذراً بعدما حصل الإقرار من الجميع بربوبية الله تعالى في عالم الذر.

(١) نهج البلاغة، الحكمة ١٥٤

النقطة الثالثة: معنى عالم الذر:

اختلفت كلماتُ المفسرين بشأن تفسير هذه الآية المتقدمة في المراد تحديداً من عالم الذر؟ وقد نقل الشيخ مكارم الشيرازي ستة آراءٍ حول هذا الأمر^(١)، سنذكر منها رأيين مع ضمّ رأيٍ آخر حديثٍ إليهما طرحه أحد الأساتذة:

الرأي الأول:

طريق المحدثين وأهل الظاهر حيث يقولون: إنّ المراد هو ما ورد في بعض الأحاديث من أنّ ذريّة آدم بأجمعهم قد خرجوا من ظهره على شكل ذرات دقيقة وملاؤا الفضاء وكانت تتمتع بالعقل والإحساس والقدرة على النطق، فخطبهم الله ﷻ وسأهم: «ألست بربكم؟» فقالوا جميعاً: «بلى»؛ وبذلك أخذ العهد الأوّل على التوحيد. وكان بنو الإنسان بأنفسهم شاهدين على ذلك.

وعلى الرغم من شهرة هذا التفسير على الألسن، بيد أنّه ضُعِفَ من قبل بعض العلماء مثل الشيخ جعفر سبحاني^(٢).

(١) نفحات القرآن للشيخ ناصر مكارم الشيرازي - ج ٣ ص ٨٢ - ٨٩.

(٢) مفاهيم القرآن للشيخ جعفر سبحاني ج ١، ص ٨٢ و ٨٥، حيث قال ما نصه: انتقادات على هذه النظرية:

١. أنّ أوضح دليل على قصور هذه النظرية هو عدم موافقتها للمدلول الظاهري للآية، لأنّ ظاهر الآية كما قلنا في النقطة الخامسة يفيد أنّ الله تعالى أخذ من ظهور كل أبناء آدم ذريّتهم، لا من آدم وحده؛ ولأجل هذا قال سبحانه: ﴿مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ ولم يقل من آدم. كما أنّ الضمائر جاءت في صيغة الجمع: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾، ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ لا المفرد. وعلى هذا الأساس لا تطابق هذه النظرية مفاد الآية في هذه الناحية.

٢. إذا كان قد أخذ هذا الميثاق من بني آدم وهم في كامل وعيهم، فلماذا لا يتذكره أحد منّا؟ وأجيب عن هذا الإشكال بأنّ ما هو منسي ومغفول عنه هو «وقت هذا الميثاق والإقرار» وليس نفس الميثاق والإقرار والاعتراف، بدليل ما يجده كل إنسان في ذاته من ميل فطري إلى الإذعان بوجود الله

وربوبيته، ولا شك أن هذا هو امتداد طبيعي لذلك الإقرار المأخوذ في عالم «الذر».

لكن هذا الجواب ليس بوجيه جداً كما تصوّر أصحابه، لأنه ليس من المعلوم أن ما نجده من «الميل الفطري» إلى الله في ذواتنا يرتبط حتماً بمثل ذلك الميثاق.. بل ربما يكون نتيجة «فطرية وجود الله وربوبيته» وبداهتهما.

وما يقال من أن الفاصل الزمني الطويل هو الذي كان سبباً لنسيان الميثاق المذكور ليس بصحيح كما يظهر.

لأن طول هذا الفاصل لا شك أقل بكثير من طول الفاصل الزمني بين الإنسان في الدنيا ويوم القيامة على حين نجد أن الإنسان لا ينسى ما شاهده من حوادث في الدنيا فها هم أهل الجنة مثلاً يقولون لأهل النار: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾. ونظير ذلك قول بعض أهل الجنة: ﴿إِنِّي كَانُ لِي قَرِينٌ [أي في الدنيا] يَقُولُ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾. ومثله قول بعض أهل النار: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ [أي في الدنيا] مِنَ الْأَشْرَارِ﴾. وغير ذلك من الآيات الدالة على تذكر أهل القيامة لما جرى لهم في العالم الدنيوي مما يدل على عدم نسيان الحوادث رغم طول الفاصلة الزمنية.

٣. إن الهدف من أخذ الميثاق أساساً هو أن يعمل الأشخاص بموجب ذلك الميثاق، والعمل فرع للتذكر، فإذا لم يتذكر الشخص أي شيء من هذا الميثاق، فكيف ترى يصح الاحتجاج به عليه، وكيف يمكن دفعه إلى العمل وفقه؟

على أننا بعد أن كتبنا هذا، وقفنا على كلام للعلامة الشريف المرتضى في (أماليه) وهو ينص على ما ذكرنا حيث أبطل هذا الرأي إذ قال: «وقد ظن بعض من لا بصيرة له ولا فطنة عنده، أن تأويل هذه الآية: أن الله استخرج من ظهر آدم ﷺ جميع ذريته وهم في خلق الذر، فقررهم بمعرفته وأشهدهم على أنفسهم. وهذا التأويل مع أن العقل يطله ويحيله مما يشهد ظاهر القرآن بخلافه، لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ﴾ ولم يقل من آدم وقال: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل: من ظهره، وقال: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ولم يقل: ذريته.

ثم أخبر تعالى بأنه فعل ذلك لثلاثاً يقولوا يوم القيامة أنهم كانوا عن ذلك غافلين أو يعتذروا بشرك آبائهم، وأنهم نشأوا على دينهم وستتهم».

ثم يقول الشريف المرتضى: «فأما شهادة العقول فمن حيث لا تخلو هذه الذرية التي استخرجت من ظهور آدم ﷺ فخطبت وقررت من أن تكون كاملة العقول مستوفية لشروط التكليف أو لا تكون، فإن كانت بالصفة الأولى وجب أن يذكر هؤلاء بعد خلقهم وإنشائهم، وإكمال عقولهم ما كانوا عليه في

وكذلك الشيخ ناصر مكارم الشيرازي^(١).

تلك الحال، وما قرّروا به واستشهدوا عليه، لأنّ العاقل لا ينسى ما جرى هذا المجرى وأن بعد العهد وطال الزمان وليس أيضاً لتخلل الموت بين الحالتين تأثير.

على أنّ تجويز النسيان عليهم ينقض الغرض في الآية، وذلك لأنّ الله تعالى أخبر بأنّه إنّما قرّره وأشهدهم لئلاّ يدّعوا يوم القيامة الغفلة عن ذلك وسقوط الحجة عنهم فيه، فإذا جاز نسيانهم له عاد الأمر إلى سقوط الحجة وزوالها، وإن كانوا على الصفة الثانية من فقد العقل وشرائط التكليف قبح خطابهم وتقديرهم وإشهادهم وصار ذلك عبثاً قبيحاً يتعالى الله عنه.

٤. أنّ هذه النظرية تؤول إلى نوع من القول بالتناسخ الذي بطلانه من ضروريات الدين، لأنّه يعني على أساس هذه النظرية أنّ الإنسان أتى إلى هذه الدنيا قبل ذلك، ثم بعد العيش القصير ارتحل ثم عاد بصورة تدريجية إلى هذه الدنيا مرة ثانية.. وهو التناسخ الذي أبطله المحققون والعلماء المسلمون. (١) نفحات القرآن ج ٣ ص ٨٧ - ٨٨، حيث قال ما نصّه:

القول الأوّل هو أضعف الأقوال لدى الكثير من المحقّقين، ووجّهوا إليه أغلب الإشكالات، حيث أشكل عليه الطبرسي في (مجمع البيان) والسيد المرتضى كما نقله العلامة المجلسي في مرآة العقول كما أنّ الفخر الرازي أورد (١٢) إشكالا على هذا القول! غير أنّ بعضها ليس جديراً بالاهتمام وبعضها مكرّر أو قابل للإندماج مع غيره، وبصورة عامّة تتوجّه خمسة إشكالات إلى هذا القول:

أ إنّ هذا التفسير لا ينسجم مع كلمة (بني آدم) أبداً، وكذلك مع ضمائر الجمع في الآية، وكلّها تتحدّث عن بني آدم لا آدم نفسه. كما لا يتطابق مع لفظه «ظهور» جمع «ظهر»، والخلاصة هي أنّ الآية تقول: إنّ «الذرية» ظهرت من ظهور «بني آدم» لا من ظهر «آدم»، في حين أنّ الروايات تدور حول نفس آدم. ب لو صحّ أخذ مثل هذا العهد الصريح في عالم سابق لهذا العالم فكيف يعقل نسيان ذلك من قبل البشر بأجمعهم؟! وهذا النسيان العام دليل على إستبعاد هذا التفسير، لأنّ الاستفادة من الآيات القرآنية هو أنّ البشر لا ينسون حوادث الدنيا حين تقوم الساعة ولهم حوار بشأنها غالباً، فهل الفاصل الزمني بين عالم الذرّ والدنيا هو أكثر من الفترة بين الدنيا والآخرة؟

ج لو سلّمنا فرضاً بأنّ هذا النسيان العام يمكن تبريره بالنسبة لعالم الذرّ، ولكن النتيجة هي علىّية هذا العهد، لأنّه يكون مؤثراً حينما يتذكره الناس، أمّا ما ينساه كافّة البشر فأنّه يفقد تأثيره التربوي ولا ينفع في إلقاء الحجة وسدّ باب الأعداء.

د يستفاد من الآية ١١ من سورة المؤمن ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ أنّ للبشر موتتين وحياتين «حيث كانوا موجودات ميتة فأحييت ثم يموتون ثمّ يحيون يوم القيامة» في حين يكون لهم وفق هذا التفسير أكثر من موتتين وحياتين: «موت وحياة في عالم الذرّ وموتان وحياتان آخران».

والفخر الرازي أورد اثني عشر إشكالاً عليه^(١).

هـ يستلزم هذا التفسير (التناسخ)، لأننا نعلم بأن التناسخ ليس إلّا حلول روح واحدة في جسمين أو أكثر، وطبقاً لهذا التفسير فإن الروح الأولى تعلّقت أولاً بالذرات الدقيقة جداً والتي خرجت من ظهر آدم ثم خرجت لتتعلّق بالأجسام الحاضرة، وهذا هو عين التناسخ. وبطلان التناسخ هو من المسلّمات في الدين، ولذا فإن الشيخ المفيد في كتابه (جواب المسائل السروية) عندما يذكر التفسير أعلاه مقروناً ببعض الروايات يضيف: هذه أخبار القائلين بالتناسخ وفيه جمعوا بين الحقّ والباطل. (مرآة العقول: الجزء ٧، ص ٤١).

وقد ورد هذا الكلام بنفسه في كلام شيخ المفسرين الطبرسي رحمته الله. (مجمع البيان: ج ٤، ص ٤٩٧).

(١) تفسير الرازي لفخر الدين الرازي ج ١٥ ص ٤٦ - ٤٩. حيث قال ما نصّه:

واحتجوا على فساد هذا القول بوجوه.

الحجة الأولى: لهم قالوا: قوله: ﴿مَنْ بَنَى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ لا شك أن قوله: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ يدل من قوله: ﴿بَنَى آدَمَ﴾ فيكون المعنى: وإذا أخذ ربك من ظهور بني آدم. وعلى هذا التقدير: فلم يذكر الله تعالى أنه أخذ من ظهر آدم شيئاً.

الحجة الثانية: أنه لو كان المراد أنه تعالى أخرج من ظهر آدم شيئاً من الذرية لما قال: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ بل كان يجب أن يقول: من ظهره، لأن آدم ليس له إلا ظهر واحد، وكذلك قوله: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ لو كان آدم لقال ذريته.

الحجة الثالثة: أنه تعالى حكى عن أولئك الذرية أنهم قالوا: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ وهذا الكلام يليق بأولاد آدم، لأنه ﷺ ما كان مشركاً.

الحجة الرابعة: أن أخذ الميثاق لا يمكن إلا من العاقل، فلو أخذ الله الميثاق من أولئك الذر لكانوا عقلاء، ولو كانوا عقلاء وأعطوا ذلك الميثاق حال عقلهم لوجب أن يتذكروا في هذا الوقت أنهم أعطوا الميثاق قبل دخولهم في هذا العالم؛ لأن الإنسان إذا وقعت له واقعة عظيمة مهيبة فإنه لا يجوز مع كونه عاقلاً أن ينساها نسياناً كلياً لا يتذكر منها شيئاً لا بالقليل ولا بالكثير، وبهذا الدليل يبطل القول بالتناسخ. فإنا نقول لو كانت أرواحنا قد حصلت قبل هذه الأجساد في أجساد أخرى لوجب أن نتذكر الآن أننا كنا قبل هذا الجسد في جسد آخر، وحيث لم نتذكر ذلك كان القول بالتناسخ باطلاً. فإذا كان اعتمادنا في إبطال التناسخ ليس إلا على هذا الدليل وهذا الدليل بعينه قائم في هذه المسألة، وجب القول بمقتضاه، فلو جاز أن يقال إنا في وقت الميثاق أعطينا العهد والميثاق مع أنا في هذا الوقت لا نتذكر شيئاً منه، فلم لا يجوز أيضاً أن يقال إنا كنا قبل هذا البدن في بدن آخر مع أنا في هذا البدن لا نتذكر شيئاً من تلك الأحوال. وبالجمله فلا فرق بين هذا القول وبين مذهب أهل التناسخ فإن لم يبعد

وعلى كل حال، فنذكر منها إشكالاً واحداً:

التزام هذا القول لم يبعد أيضاً التزام مذهب التناسخ. الحجة الخامسة: أن جميع الخلق الذين خلقهم الله من أولاد آدم عدد عظيم وكثرة كثيرة، فالمجموع الحاصل من تلك الذرات يبلغ مبلغاً عظيماً في الحجمية والمقدار وصلب آدم على صغره يبعد أن يتسع لذلك المجموع.

الحجة السادسة: أن البنية شرط لحصول الحياة والعقل والفهم، إذ لو لم يكن كذلك لم يبعد في كل ذرة من ذرات الهباء أن يكون عاقلاً فاهماً مصنفاً للتصانيف الكثيرة في العلوم الدقيقة. وفتح هذا الباب يفضي إلى التزام الجهالات. وإذا ثبت أن البنية شرط لحصول الحياة، فكل واحد من تلك الذرات لا يمكن أن يكون عالماً فاهماً عاقلاً؛ إلا إذا حصلت له قدرة من البنية واللحمية والدمية، وإذا كان كذلك فمجموع تلك الأشخاص الذين خرجوا إلى الوجود من أول تخليق آدم إلى آخر قيام القيامة لا تحويهم عرصة الدنيا، فكيف يمكن أن يقال إنهم بأسرهم حصلوا دفعة واحدة في صلب آدم؟ الحجة السابعة: قالوا هذا الميثاق إما أن يكون قد أخذه الله منهم في ذلك الوقت ليصير حجة عليهم في ذلك الوقت، أو ليصير حجة عليهم عند دخولهم في دار الدنيا. والأول باطل لانعقاد الإجماع على أن بسبب ذلك القدر من الميثاق لا يصيرون مستحقين للثواب والعقاب والمدح والذم ولا يجوز أن يكون المطلوب منه أن يصير ذلك حجة عليهم عند دخولهم في دار الدنيا لأنهم لما لم يذكروا ذلك الميثاق في الدنيا فكيف يصير ذلك حجة عليهم في التمسك بالإيمان؟

الحجة الثامنة: قال الكعبي: إن حال أولئك الذرية لا يكون أعلى في الفهم والعلم من حال الأطفال، ولما لم يكن توجيه التكليف على الطفل، فكيف يمكن توجيهه على أولئك الذوات؟ وأجاب الزجاج عنه فقال: لما لم يبعد أن يؤتى الله النمل العقل كما قال: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ﴾ (النمل: ١٨) وأن يعطي الجبل الفهم حتى يسبح كما قال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ (الأنبياء: ٧٩) وكما أعطى الله العقل للبعير حتى سجد للرسول، وللنخلة حتى سمعت وانقادت حين دعيت فكذا ههنا.

الحجة التاسعة: أن أولئك الذر في ذلك الوقت إما أن يكونوا كاملي العقول والقدرة أو ما كانوا كذلك، فإن كان الأول كانوا مكلفين لا محالة وإنما يبقون مكلفين إذا عرفوا الله بالاستدلال ولو كانوا كذلك لما امتازت أحوالهم في ذلك الوقت عن أحوالهم في هذه الحياة الدنيا، فلو افتقر التكليف في الدنيا إلى سبق ذلك الميثاق لافتقر التكليف في وقت ذلك الميثاق إلى سبق ميثاق آخر ولزم التسلسل وهو محال. وأما الثاني: وهو أن يقال إنهم في وقت ذلك الميثاق ما كانوا كاملي العقول ولا كاملي القدر، فحينئذ يمتنع توجيه الخطاب والتكليف عليهم.

وهو أنه خلاف ظاهر الآية، إذ ذكرت الآية المباركة في قوله ﷺ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾^(١)، في حين أن التفسير يذكر أن الناس خرجوا كالذر من ظهر آدم فقط.

الرأي الثاني:

إنَّ المراد من عالم الذر هو الذرات الأولى لوجود الإنسان، أي تلك النطفة التي

الحجة العاشرة: قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ ذَافِقٍ﴾ (الطارق: ٥، ٦) ولو كانت تلك الذرات عقلاء فاهمين كاملين، لكانوا موجودين قبل هذا الماء الدافق ولا معنى للإنسان إلا ذلك الشيء فحيث لا يكون الإنسان مخلوقاً من الماء الدافق وذلك رد لنص القرآن. فإن قالوا: لم لا يجوز أن يقال إنه تعالى خلقه كامل العقل والفهم والقدرة عند الميثاق ثم أزال عقله وفهمه وقدرته؟ ثم إنه خلقه مرة أخرى في رحم الأم وأخرجه إلى هذه الحياة. قلنا: هذا باطل لأنه لو كان الأمر كذلك لما كان خلقه من النطفة خلقاً على سبيل الابتداء بل يجب أن يكون خلقاً على سبيل الإعادة. وأجمع المسلمون على أن خلقه من النطفة هو الخلق المبتدأ فدل هذا على أن ما ذكرتموه باطل.

الحجة الحادية عشرة: هي أن تلك الذرات إما أن يقال هي عين هؤلاء الناس أو غيرهم والقول الثاني باطل بالإجماع، بقي القول الأول. فنقول: إما أن يقال إنهم بقوا فهاء عقلاء قادرين حال ما كانوا نطفة وعلقة ومضغة أو ما بقوا كذلك والأول باطل ببديهة العقل. والثاني: يقتضي أن يقال الإنسان حصل له الحياة أربع مرات: أولها وقت الميثاق، وثانيها في الدنيا، وثالثها في القبر، ورابعها في القيامة. وأنه حصل له الموت ثلاث مرات. موت بعد الحياة الحاصلة في الميثاق الأول، وموت في الدنيا، وموت في القبر، وهذا العدد مخالف للعدد المذكور في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ (غافر: ١١).

الحجة الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (المؤمنين: ١٢) فلو كان القول بهذا الذر صحيحاً لكان ذلك الذر هو الإنسان لأنه هو المكلف المخاطب المثاب المعاقب، وذلك باطل. لأن ذلك الذر غير مخلوق من النطفة، والعلقة، والمضغة، ونص الكتاب دليل على أن الإنسان مخلوق من النطفة والعلقة، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ وقوله: ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ﴾ (عبس: ١٧، ١٨) فهذه جملة الوجوه المذكورة في بيان أن هذا القول ضعيف.

انتقلت من ظهور الآباء إلى أرحام الأمهات إلى أن صارت إنساناً كاملاً، وفي ذلك الحال - حال الانتقال - أعطاه الله ﷻ قوى وقابليات مختلفة، يستفيد منها عندما يفعلها فيها بعد ليدرك حقيقة التوحيد.

ومعنى هذا: أن الله ﷻ أعطى في عالم الذر لكل واحدٍ من البشر القابلية على إدراك حقيقة التوحيد، فإذا تأمل خلق الله ﷻ يهتدي إلى التوحيد. وهذه القابليات هي السمع والأبصار والأفئدة أي العقول، كما في قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلْ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١)، فهذه القابليات والقدرات هو العهد الذي أخذه الله ﷻ على العباد. مما يعني أن المحاورة بين الله ﷻ والمخلوقات إنما كانت محاورةً كنائيةً، أي بلسان الحال، وكأن الله ﷻ أعطاهم العقل والحواس وغيرها فقالوا بلسان الحال: بلى إذا ما فعلنا العقل وتلك الحواس سنُفَرِّ بالتوحيد، فتخرج من المحاورة من الحقيقة إلى المجاز. وبما أن الفطرة موجودةٌ عند كافة البشر، يؤيد ذلك الرواية عن أبي عبد الله ﷺ أنه قال: «ما من مولود يُولَدُ إِلَّا عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ الْيَهُودَانِ وَيُحْدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ...»^(٢).

والنتيجة: أن هذه الفطرة موجودةٌ عند جميع البشر وليس فيها نسيان؛ فلا عذر لأحدٍ في مخالفة التشريع الإلهي.

وهو تفسيرٌ خلاف الآية ظاهراً؛ لأن الآية تقول: إن الخطاب قد وقع حقيقةً، في حين يرى هذا التفسير أنه مجازٌ.^(٣)

(١) سورة النحل: آية [٧٨]

(٢) من لا يحضره الفقيه للصدوق ٢: ٤٩ / ح ١٦٦٨.

(٣) قال الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في نفحات القرآن ج ٣ ص ٨٧ و ٨٨: وأما القول الثاني الذي يتحدث عن خلق فطرة التوحيد والقابلية الخاصة لمعرفة الله في عالم الرحم فإنه أقل الأقوال إشكالا، والإشكال الوحيد الذي أورده عليه هو أن ظاهر الآية المبحوث عنها هو أن السؤال والجواب جاء

الرأي الثالث:

للشيخ غلام رضا فياضي، تبعاً لجمع من قدماء المفسرين والمحدثين، حيث اختصر ما بينه بقوله: «أنّ الأرواح التي وجدت وستوجد في عالمنا وبشكل بطيء وتدرجي استغرق لحدّ الآن الآلاف من السنين قد وجدت من قبل وتحديدًا بعد خلق آدم بشكل سريع وأخذ منها الإقرار بالربوبية. ولكن هذه الأرواح لم توجد آنذاك وحدها، كما لم توجد في عالمنا، وإنّما وجدت مع أبدان، غايته أنّها بقيت محفوظة بأشخاصها وهي التي تعلّقت بأبدان هذا العالم، وأمّا الأبدان فقد تغيّرت واستبدلت بأبدان أخرى»^(١).

بيانه:

من المعلوم أنّ الأرواح في عالم الدنيا توجد بشكلٍ تدرجيٍّ بهذه الأبدان المادية منذ بداية الخليقة وإلى يومنا هذا، بل وإلى ما شاء الله ﷻ، حيث يولد في كلّ يوم مجموعة من البشر ربما يصل عددهم إلى المليون مثلاً، وهؤلاء أيضاً يولدون بشكلٍ تدرجيٍّ، فبعضهم في الساعة الأولى من اليوم والبعض يلونهم في الساعة الثانية وهكذا.

أما في عالم الذر، فقد خلق الله ﷻ جميع البشر بعد خلقه لآدم ﷺ وبشكلٍ هائل السرعة، خلقهم بأبدانٍ تختلف عن هذه الأبدان المادية في عالم الدنيا، وقد جرت بين الله ﷻ وبينهم تلك المحاور، وأقرّهم الله ﷻ على ربوبيته، وبقيت تلك الأرواح

بلسان القول لا الحال، وهو ضرب من التشبيه والمجاز، مضافاً إلى أنّ جملة (أخذ) دليل على أنّ هذا الأمر قد أخذ في الماضي، في حين أنّ فطرة التوحيد للأجنة هي أمر مستمرّ ويتحقّق في كلّ زمان، والإشكالان يمكن الإجابة عليهما وذلك لعدم مانعية حمل هذا الكلام على لسان الحال مع القرينة، وقد كثر ذلك في اللغة العربية نثراً وشعراً...، والإشكالات المهمة التي ترد على التفسير الأوّل قرينة واضحة على هذا التفسير، والفعل الماضي قد يستعمل في الاستمرار أيضاً، وهذا طبعاً يحتاج إلى قرينة أيضاً، وهذه القرينة موجودة في موضوع البحث.

(١) علم النفس الفلسفي، الطبعة الأولى سنة ٢٠١٣ ميلادية، ص ٢٤٥، درس ٣٨.

موجودة في ذلك العالم، وهي التي تنزل بالتدريج لتلبس بأبدانها المادية في الحياة الدنيا. ولتقريب الفكرة أكثر نقول:

إنَّ الفيلم السينمائي الذي طوله ثلاث ساعات مثلاً، بإمكانك أن تشاهده بسرعه الاعتيادية فتستغرق حينئذٍ ثلاث ساعاتٍ، كما بإمكانك أن تحتزل مشاهدته في ربع ساعة عن طريق تسريع عرضه، وربما عندما تسرعه أكثر يصل بك الأمر أن تشاهده خلال دقيقةٍ واحدةٍ فقط.

فالعالم الذر وما جرى فيه أشبه بالعرض السريع للفيلم، على حين أنَّ عالم الدنيا أشبه بعرض الفيلم بسرعه الاعتيادية.

وفي عبارة أخرى له قال ما نصه: إنَّ عالم الذرِّ حقيقة تمّ فيه وبشكل سريع إيجاد بني آدم وبنفس الكيفيّة التي يوجد عليها في عالمنا بشكل بطيء، من أجل أخذ الإقرار منهم بربوبيّة الله تعالى، ثمّ أُعيدوا إلى ما كانوا عليه وأخذوا يتواجدون في عالمنا وبشكل تدريجي هادئ مع المعرفة التي زوّدوا بها.^(١)

والمخلوقات أجمعها وإن نسيت الموقف إلا أنها لم تنس المعرفة، كما لو رأيت شخصاً فعرفته ولكنك نسيت الموقف الذي رأيته فيه فيما مضى، وقد صرّحت بعض الروايات بهذا الجواب، إذ روي عن زرارة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ قال: «ثبتت المعرفة ونسوا الموقف، وسيذكرونه يوماً، ولولا ذلك لم يدر أحدٌ من خلقه ولا من رازقه»^(٢).

ويجيب الشيخ أيضاً على تساؤل النسيان فيقول: وقد أجاب العلامة الطباطبائي في

(١) علم النفس الفلسفي، الطبعة الأولى سنة ٢٠١٣ ميلادية، درس ٤٢، ص ١٩٦.

(٢) () مختصر بصائر الدرجات للحلي: ص ٢١٥.

m الميزان n عن هذا الإشكال بحق -: إن كان المراد من النسيان المتحقق نسيان الموقف فلا مشكلة فيه؛ لأنّ اللازم حفظ أصل الميثاق وإن نسي الموقف، وكلّ منّا عند مراجعة داخله يجد أنّ المعرفة موجودة. وقد جاء في الرواية «تَبَتَّ الْمَعْرِفَةُ وَ نَسُوا الْمَوْقِفَ». وإن كان المراد منه نسيان أصل المعرفة فهو ممنوع التحقق. نعم، يمكن أن ينسوا بأفعالهم الاختيارية وهو لا ينافي تمام الحجّة.

والخلاصة:

أيّما ما كان تفسير عالم الذر، فإنّه قد ذُكر في الروايات، وتُشير عدة أمور إلى وجوده. ويسمى هذا العالم في بعض الكلمات بـ(عالم الأرواح) حيث كانت الأرواح دون هذه الأبدان، كما يسمى بـ(عالم الأظلة) أي الأرواح، ويسمى أيضاً بـ(عالم الأشباح)؛ لأنّ الروح ليست مادية فهي أشبه ما تكون بالشبح.

روي أنّ رجلاً جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: يا أمير المؤمنين إنّني أُحبّك، فقال له عليه السلام: «لم أرك مُحبني في الميثاق الأول». ويُفسر قول أمير المؤمنين عليه السلام على معنى أنّ الأرواح في ذلك العالم تلاقّت وتعارفت فما كان منها مؤتلفاً ائتلف وما كان متخالفاً اختلف.

إذ ورد أنّه جاء رجل إلى عليّ عليه السلام وكلمه فقال في عرض الحديث: إنّني أُحبّك، فقال له عليّ عليه السلام: «كذبت»، قال: لم يا أمير المؤمنين؟ قال: «لأنّني لا أرى قلبي يحبّك، قال النبي صلى الله عليه وآله: إنّ الأرواح كانت تلاقى في الهواء فتشام، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»، فلمّا كان من أمر عليّ ما كان، كان ممّن خرج عليه^(١).

وكذلك ما ورد من أنّ الله تعالى عندما قتل الإمام الحسين عليه السلام وضجت الملائكة إلى

(١) بحار الأنوار ٢٥: ١٤ / ح ٢٧، عن بصائر الدرجات: ١٠٨ / ج ٢ / باب ١٥ / ح ٧.

الله ﷺ أن كيف يُقتل الإمام الحسين وأنت تسكت يا ربنا؟ فأجابهم أن: «قرّوا يا ملائكتي سوف انتقم من قتلته ولو بعد حين». وتذكر الرواية أنه ﷺ كشف لهم عن ظل القائم ﷺ، إذ روي عن مُحَمَّدِ بْنِ حُمْرَانَ قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْحُسَيْنِ ﷺ مَا كَانَ، ضَجَّتِ الْمَلَائِكَةُ إِلَى اللَّهِ بِالْبُكَاءِ، وَقَالَتْ: يُفْعَلُ هَذَا بِالْحُسَيْنِ صَفِيكَ وَابْنِ نَبِيِّكَ؟ قَالَ ﷺ: فَأَقَامَ اللَّهُ لَهُمْ ظِلَّ الْقَائِمِ ﷺ وَقَالَ: بِهِذَا أَنْتَقِمُ لَهُذَا»^(١).

وفي رواية أخرى: كشف لهم عن القائم، إذ عن أبي حمزة ثابت بن دينار الشامي، قال: سألت أبا جعفر محمد بن عليّ الباقر ﷺ...، فقلت: يا بن رسول الله، فلستم كلّمكم قائمين بالحق؟ قال: «بلى»، قلت: فلم سُمّي القائم قائماً؟ قال: «لَمَّا قُتِلَ جَدِّي الْحُسَيْنِ ﷺ ضَجَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالْبُكَاءِ وَالنَحِيبِ، وَقَالُوا: إلهنا وسيدنا، أَنْغِفْ عَمَّنْ قَتَلَ صَفْوَتَكَ وَابْنَ صَفْوَتِكَ وَخَيْرَتَكَ مِنْ خَلْقِكَ؟ فَأَوْحَى اللَّهُ ﷻ إِلَيْهِمْ: قَرُّوا مَلَائِكَتِي، فَوْعَزَّتِي وَجَلَالِي لَأَنْتَقِمَنَّ مِنْهُمْ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ. ثُمَّ كَشَفَ اللَّهُ ﷻ عَنِ الْأُتَمَّةِ مِنْ وَلَدِ الْحُسَيْنِ ﷺ لِلْمَلَائِكَةِ، فَسَرَّتْ الْمَلَائِكَةُ بِذَلِكَ، فَإِذَا أَحَدُهُمْ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: «بِذَلِكَ الْقَائِمِ أَنْتَقِمُ مِنْهُمْ»^(٢).

وقد حاول البعض أن يُفرّق بين المعنيين (ظلّ القائم والقائم)، والبعض الآخر حاول أن يستفيد منها بأنّ ظلّ القائم هو اليماي وهو وزيره، وهو كلام لا يستند إلى دليل؛ فالرواية في زمن الإمام الحسين ﷺ، ولم يكُ الإمام المهدي ﷺ مولوداً بعد، ومن ثم فإنّ الذي كان في عالم الأظلة هو نفس القائم، وإنّما عبّر عنه بـ (ظلّ القائم)؛ لأنه ما زال في ذلك العالم (عالم الأرواح) ولم ينزل إلى العالم المادي بعد..^(٣)

(١) الكافي للكليني ج ١ ص ٤٦٥ بَابُ مَوْلِدِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ ﷺ - ح ٦.

(٢) علل الشرائع للصدوق ١: ١٦٠ / باب ١٢٩ / ح ١.

(٣) قال العلامة المجلسي رحمه الله: أي جسده المثالي، أو صورة خلقت شبيهة به، حاكية لأحواله أو روحه المقدسة، قال في القاموس: الظل الخيال من الجن وغيره يرى، ومن كل شيء شخصه. [مرآة العقول في

العالم الثاني : عالم الأصلاب

عالمٌ مجهولٌ الحقيقة، ليس لدينا عنه من معلوماتٍ إلا القليل، فقد شاعت حكمة الله ﷻ أن يجعل بداية أعظم مخلوق من ماءٍ مهين، قال ﷺ: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۖ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۖ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾^(١). يدعونا الله ﷻ في هذه الآية المباركة للنظر نظرة تدبر وتفكر في بداية خلقتنا والمادة التي تكونت منها أجسامنا، وهو الماء المهين القذر.

وفي الحقيقة هو ماء ان: أحدهما يخرج من صلب الرجل أي (فقرات ظهره)، والآخر من بين (ترائب المرأة) أي عظام صدرها العلوية، وقيل: إن الصلب إشارة إلى الرجال والترائب إشارة إلى النساء، وهو صحيحٌ أيضًا، وقد عبر عن الرجل بـ(الصلب)؛ لأنه مظهر الصلابة وعبر عن المرأة بـ(الترائب)؛ لأنها مظهر الرقة واللطافة. وعلى كلِّ حالٍ فالآية بصدد ذكر حيمن الرجل وبويضة المرأة، ومنها تتشكل نطفة خلق الإنسان.

وإن القرآن عبّر عنهما بـ(ماء)؛ لأنها سيختلطان ليكونا ماءً واحدًا؛ نتيجة تلقيح الحيمن للبويضة، وهو الأمشاج في قوله ﷻ: (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا)^(٢).

فائدة تربوية:

تشتمل هذه الآية على فائدة تربوية وهي: أن الإنسان إذا التفت إلى حقيقته بأنَّ

(١) الطارق: ٥ - ٧.

(٢) الإنسان: ٢.

بدايته من ماءٍ قدر يستقذره الإنسان، وهو علاوةً على ذلك متناهي في الصغر لا يرى بالعين المجردة، قال إلكسيس كارل: «حينما يقذف الرجل بالسائل المنوي إلى الخارج فإنه يكون حليبي اللون - وبحجم ٣ سم^٣، يوجد في كل سنتيمتر مكعب منه من ١٠٠ إلى ٢٠٠ مليون حيمن^(١). أي إنه ومن أصل ثلاث مئة إلى ستة مئة مليون حيمن فإن حيماً واحداً يُلْقَح البويضة، فهو في بدايته حقير جداً قدر جداً، فيتكون ذلك الإنسان المتكبر، الذي ربما يتعالى ويتكبر حتى على الله ﷻ!

ولو أدرك الإنسان حقيقة أصله وبداية منشئه لتأدب وتواضع ولما فكر بأن يتكبر يوماً، روي عن الإمام زين العابدين (عليه السلام) أنه يقول في أحد أدعيته: «اللهم وإنك من الضعف خلقتنا وعلى الوهن بنيتنا ومن مهينٍ ابتدأتنا، فلا حول لنا إلا بقوتك ولا قوة لنا إلا بقوتك ولا قوة لنا إلا بعونك»^(٢).

وقد ورد أيضاً في روايةٍ عن الإمام الصادق (صلوات الله وسلامه عليه) أنه وقع بين سلمان المحمدي رحمة الله عليه وبين رجلٍ خصومة، فقال الرجل لسلمان: من أنت وما أنت؟ فقال سلمان: «أما أولي وأولك فنطفةٌ قدرة، وأما آخري وآخرك فجيفةٌ منتنةٌ، فإذا كان يوم القيامة ونُصِبَت الموازين فمن ثَقُلَتْ موازينه فهو الكريم ومن خَفَّت موازينه فهو اللئيم»^(٣).

وفي الحديث المشهور لأمر المؤمنين (عليهم السلام): «عجبتُ لابن آدم أوله نطفة وآخره جيفة وهو قائمٌ بينهما وعاء للغائط ثم يتكبر»^(٤).

(١) الإنسان ذلك المجهول، نقله شيخ محمد تقي فلسفي في كتابه (الطفل بين الوراثة والتربية) ج ١ ص ٨٤.

(٢) الصحيفة السجادية، الدعاء التاسع.

(٣) كتاب من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق، الجزء ٤، ص ٤٠٤.

(٤) علل الشرائع للشيخ الصدوق ج ١ ص ٢٧٥ و ٢٧٦ ب ١٨٤ ح ٢.

فإذا وضع الإنسان كل ذلك نصب عينيه، تواضع لله ﷻ وما عُرف في خصاله تعال ولا تكبر، وإذا ما أضاف إلى معرفته السابقة أن الله ﷻ قد كَرَّمه ورفعَه من ذلك المستوى من الضعف والقذارة إلى أن يكون سيداً لكل المخلوقات «خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي»^(١)، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾، حمد الله ﷻ وشكره بالطاعة والعبادة والسلوك.

الصفات الوراثية في النطفة:

من الأمور التي أدركها الإنسان ومنذ القدم أن النطفة - على حجمها المتناهي في الصغر - لها القابلية على نقل الكثير من الخصائص والصفات من الوالدين إلى الجنين، حالها حال البذور من النباتات، إذ كل بذرة تحمل في جوفها الصفات الوراثية للشجرة التي أخذت منها.

وهذه الحقيقة أيضاً موجودة لدى الإنسان، فعند تطور العلوم وباكتشاف المجاهر الدقيقة توصلوا أخيراً إلى أن منشأ الموجود الحي هي وحدة صغيرة جداً تسمى (الخلية). وأن الانسان وبشكل معدل متكون من «عشرة ملايين مليار» وحدة حية صغيرة تسمى «الخلية».

كان أول من اكتشف الخلية ووضع لها تسمية، عالمٌ باسم «هوك» في القرن السابع عشر الميلادي. وطبعاً فإنه لم يكن يعلم يومذاك ما في بناء هذه الوحدة الصغيرة من تعقيد يبعث على الحيرة. ولكن العلماء الذين جاؤوا بعده واصلوا مساعيه وتوصلوا إلى أسرار نسرد فيما يلي جانباً من شهاداتهم:

١ يمكن تشبيه خلية مجهرية واحدة بمدينة فيها آلاف التأسيسات مجهزة بمنشآت

(١) الجواهر السنوية للحر العاملي ص ٣٦١.

ومعامل لتبديل المواد الغذائية إلى المواد التي يحتاجها الجسم، بحيث لا يمكن أن نقيس أعظم وأحدث الظواهر الصناعية للبشر بها.

٢ تتكون هذه المدينة الصغيرة والصاخبة من ثلاثة أقسام:

أ جدار الخلية وهو بمثابة سور المدينة.

ب القسم الأوسط للخلية (السيوبلازم).

ج النواة أو مركز القيادة.

إن السور المصنوع حول الخلية من اللطافة والظرافة بحيث لو وضعنا ٥٠٠ ألف من هذه الجدران إلى جانب بعضها فمن الصعب أن تساوي سمك ورقة اعتيادية! ومع هذا فهو حساس ومحكم قبال هجوم العوامل الخارجية إلى درجة أن سور الصين المعروف ليس شيئاً يذكر بالقياس إليه! وهذا السد الرقيق مصنوع بدوره من ثلاثة جدران أو من ثلاث طبقات اصطلاحاً، يتشكل طرفاه من الأنسجة البروتينية وأسفله مليءً بالدهنيات وهذه الدهنيات لا تسمح لشيء أبداً بالدخول داخل المدينة إلا بمفتاح رمزي، وهذا المفتاح الرمزي هو: أن المواد التي تريد الدخول إلى المدينة يجب أن تتمكن من إذابة دهون الجدار فيها والنفوذ إلى الداخل، وهذا دليل يثبت أنها صديقة وليست من الأعداء، وبهذا فإن هذه المدينة محروسة بشدة من كل جانب بدون حاجة إلى حارس.

٣- يوجد في داخل هذه المدينة (الخلية) قنوات كثيرة تمتد من الجدران إلى أطراف «النواة»، أي حصن قيادة الخلية، تأخذ المواد الغذائية وتحيلها إلى بروتينات.

واللطيف أن ٢٣ نوعاً خاصاً من الأحماض تدخل هذه الخلية، والبروتين يتكون من تركيب عدة أنواع منها.

٤- النواة الأصلية بمفردها تمثل ناطحة سحاب مكوّنة من آلاف الطبقات بحيث

تكون ناطحات السحاب المعروفة في نيويورك منزلاً متواضعاً إلى جانبها.

للنواة الأصلية في الخلية وهي مقر القيادة تشكيلات معقدة: غشاء النواة، العصارة الداخلية، والحزومات الرفيعة حولها التي تتولى كل منها مهمة خاصة.

٥- العجيب أنّ في نواة الخلية وحدات صغيرة جداً وظرفية تسمى «الجينات» يصل عددها طبقاً لدراسات العلماء إلى حدود ٢٥ ألف جين.

ليست «الجينات» هي الكل في الكل في أعمال الخلايا وحسب، بل إنّها تمسك بكل نشاطات الجسم، ومن أهمها التحكم بالأُمور الوراثية ونقل الصفات والخصائص إلى الخلايا اللاحقة، أي أنّ انتقال كل الصفات الوراثية عند البشر وسائر الحيوانات يتم عن طريق الجينات.

ولأنّ العمل الأساسي للجين يقع على عاتق الحامض الخاص في النواة، لذا يمكن تسميته بالعقل الإلكتروني أو كومبيوتر الجين.

والأعجب من هذا، أنّ نفس هذه الجينات متكونة من أجزاء أخرى تصل طبقاتها من ٣٠ إلى ٥٠ ألف حسب ما يعتقد العلماء.

ومختصر الكلام: أنّ هذه المدينة العظيمة بذلك السور العجيب وآلاف المنافذ والبوابات، وآلاف المعامل والمخازن وشبكة الأنابيب ومركز القيادة بتأسيساته الكثيرة وارتباطاته المتعددة والنشاطات الحياتية المتنوعة في تلك الحدود الصغيرة، من أعقد وأدهش مدن العالم، إذ إنّنا لو أردنا أن نصنع مؤسسات تقوم بنفس الأعمال (ولا نستطيع ذلك أبداً)، وجب علينا اقتطاع عشرات الآلاف من الهكتارات من الأرض لوضعها تحت اختيار هذه المؤسسات والأبنية المختلفة والأجهزة المعقدة لتكون جاهزة لمثل هذا البرنامج، لكن المدهش أنّ نظام الخلق قد ضغط كل هذا في مساحة تعادل ١٥

مليون مليون!

أجل، في خلقه الإنسان آلاف آلاف من الآيات والعلامات الإلهية: «الْعَظْمَةُ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ»^(١).

وقد سبق الرسول الأعظم ﷺ العلم والعلماء بالإشارة إلى قانون الوراثة، حيث ذكر هذه الجينات في أحاديثه عليه السلام معبراً عنها بـ(العرق): تزوجوا في الحجز^(٢) الصالح، فإن العرق دساس^(٣).

وهذا العرق هو الذي يأتي من المرأة فينقل الصفات الوراثية إلى أولادكم. هذا هو مجمل عالم الأصلاب العالم الذي مرَّ به الإنسان من صلب أبيه بعملية ميكانيكية مُعقدة تنتقل إلى جسم المرأة، فتتكون الخلية الأولى لوجود الإنسان، فهو بداية لنقلة ما قبل الأخيرة لوجود الإنسان في عالم الدنيا وفيها التأثير على الصفات التي سيكون عليها الولد في المستقبل؛ لذلك فقد أكدت التعليمات التربوية على أن يختار كلٌّ من الزوجين الطرف الآخر المناسب لولده، فيختار الرجل المرأة المناسبة لتكون أمًا صالحةً لولده، وكذلك المرأة تختار الرجل المناسب ليكون أبًا صالحًا لولدها. فلاختيار للطرفين، وإلا فقد يؤدي إلى خللٍ في تكوين الأسرة، قد لا يعاني من آثاره الطرف المخطئ في الاختيار فقط بل يشمل الأبناء أيضًا.

(١) نفحات القرآن للشيخ ناصر مكارم الشيرازي ج ٢ ص ٥١ - ٥٣.

(٢) الحجز بالكسر والضم -: العشرة. العفيف. الطاهر. [هامش مكارم الأخلاق]

(٣) كنز العمال للمتقي الهندي ج ١٦ ص ٢٦٩٦ ح ٤٤٥٥٩ ونقله مكارم الأخلاق للشيخ الطبرسي ص ١٩٧ عن الإمام الصادق عليه السلام.

العالم الثالث: عالم الأرحام

قال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۖ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۖ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ۖ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾. (١)

الكلام في هذا العالم طويل، وفيه كثير من الحقوق للجنين والأم، وأمور تربية أيضاً، ولكن سنكتفي بالتعرض إلى ما أشارت إليه الآية المتقدمة الذكر، لذا ستعرض على المعنى العام لهذه الآيات لتتعرف ما يجري على الإنسان في ذلك العالم.

تحدث هذه الآيات عن خلق الإنسان، إذ خُلِقَ من طين ﴿مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾، وهذا الأمر واضح دينياً، فقد روي عن النبي الأعظم ﷺ أنه قال لأمر المؤمنين ﷺ: «يا علي: إن الله تبارك وتعالى قد اذهب بالإسلام نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها، ألا إن الناس من آدم وآدم من تراب، وأكرمهم عند الله أتقاهم». (٢)

وفي هذا إشارة إلى تساوي جميع الناس من حيث الجنس البشري، فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى.

هذا من حيث الأصل الذي لا يختلف عليه اثنان من بني البشر. ثم تبدأ رحلة الإنسان من هذا الأصل، حيث يكون نطفة في عالم الأصلاب،

(١) المؤمنون ١٢-١٤

(٢) من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق ج ٤ ص ٣٦٣ من حديث ٥٧٦٢.

فتنتقل تلك النطفة لتستقر في رحم الأم، ذلك القرار الآمن الذي عبّر عنه القرآن الكريم بـ (القرار المكين). وبعد أن تنتقل النطفة إلى رحم المرأة تمرُّ بمراحل خمسة متتالية أشارت إليها الآيات موضوع البحث. وهذه المراحل مدخلة في تعيير الأحكام الجزائية المترتبة على الاعتداء على الجنين فيها، فحكم الاعتداء على الجنين سواء كان عمداً أو خطأ يختلف باختلاف المرحلة التي هو فيها.

فمنذ اللحظة الأولى التي تنعقد فيها النطفة مع بويضة المرأة، يصير لتلك البويضة المخصصة حق في الإسلام، وحقها الأول هي الحياة، فلا يُسمح لأيٍّ أحد أن يعتدي عليها وإن كان الأب أو الأم؛ ولذا فإن الفقهاء يذكرون أن بعض الوسائل التي تستعملها المرأة لمنع الحمل إذا كان يمنع التخصيب فلا بأس بها، وأما إذا كان يقتل البويضة بعد تخصيبها فيحرم استعمالها حينئذٍ.

وهذه المراحل هي:

المرحلة الأولى: مرحلة العلقَة:

حيث تتبدل النطفة إلى دم مُتخثر في داخله كثيرٌ من العروق.

المرحلة الثانية: المضغة:

حيث يصبح هذا الدم المتخثر على شكل قطعة لحم.

المرحلة الثالثة: مرحلة العظام:

حيث تتبدل كل الخلايا اللحمية إلى خلايا عظمية.

المرحلة الرابعة: مرحلة تغطية العظام باللحم:

حيث تُغطي العضلات العظام ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾.

المرحلة الخامسة: مرحلة بث الروح:

وهنا يتغير سياق الآية من (الفاء) الدالة على الترتيب مع التعقيب، إلى (ثم) الدالة على الترتيب مع التراخي، قال ﷺ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾، وذلك لدخول الجنين في مرحلة جديدة من تكوينه، فإلى ما قبل هذه المرحلة (أي المراحل الأربعة الأولى) كان تكوينه من الناحية المادية، أما بعد ذلك فيدخل في خلق جديد أي غير ذلك الخلق المادي، وهو بثُّ الروح، وعند دخول الروح إلى هذا الجسم يدخل الجنين إلى الحياة الإنسانية ويبدأ بالحس والحركة ويضع قدمه الأولى في عالم الحيوانات عمومًا والبشر خصوصًا. وقد روي عن الإمام الباقر (عليه السلام) في تفسير هذه الآية: ﴿فَهُوَ نَفْحُ الرُّوحِ فِيهِ﴾.^(١)

ففي هذه المرحلة يتحول الجنين من شبه الحياة النباتية المتمثلة بالنمو فقط من دون إحساس، إلى عالم وحياة الحيوان من حيث الإحساس والحركة؛ لذلك ففي هذه المرحلة يُعدُّ الجنين إنسانًا كاملاً من حيث الأحكام الجزائية في الإسلام، فاذا اعتُدي عليه فله دية إنسانٍ كامل، شأنه شأن رجلٍ عمره خمسون سنة.

وبعد هذه المراحل يأتي وصف جميل جدًا ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، فهذا التكون للإنسان من الجانب المادي الذي أساسه الطين حيث ينمو نموًا نباتيًا، ثم تُبثُّ فيه الروح، فهذه المراحل لا يمكن لأحد أن يقوم بها سوى الله ﷻ؛ لأن لا يمكن لسواه (عليه السلام) أن يخلق من العدم شيئًا موجودًا، ومن الشيء القدر ذلك الإنسان العظيم. وأما غيره ﷻ فليس خالقًا، إنما لا يقوى إلا على صنع ما توفرت مواده الأولية، ويغير من أشياء موجودة بالفعل.

(١) تفسير القمي ج ٢ ص ٩١.

العالم الرابع: عالم الدنيا

نبحث في هذا العالم من خلال قوله ﷺ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١).

وفيه يتحدد مصير الإنسان الدائم؛ لأنه العالم الوحيد الذي يُفَعِّل الإنسان اختياره بتمام إرادته، ففي عالمي الأصلاب والأرحام ليس للإنسان أن يختار والديه، على حين يمكنه في عالم الدنيا أن يصنع مصيره بيده؛ ولذا كان تكليف الإنسان بالأحكام الأصولية والفقهية والسلوكية في هذا العالم دون سواه من العوالم، فيحاسب الإنسان على ما اكتسبه في هذا العالم، ومصيره يحدده عمله الاختياري في هذه الدنيا؛ لذا روي عن رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الدنيا، فنعمت مطية المؤمن، فعليها يبلغ الخير وبها ينجو من الشر، إنه إذا قال العبد: لعن الله الدنيا قالت الدنيا: لعن الله أعصانا لربه»^(٢).

فأخذ الشريف الرضي بهذا المعنى فنظمه بيتاً:

يقولون الزمان به فساد فهم فسدوا وما فسد الزمان^(٣).

وفي حديث آخر لأمير المؤمنين عليه السلام وقد سمع رجلاً يذم الدنيا من غير معرفة فقال عليه السلام: «أَيُّهَا الدَّامُ لِلدُّنْيَا الْمُغْتَرُّ بِغُرُورِهَا، الْمَخْدُوعُ بِأَبَاطِيلِهَا أَتَغْتَرُّ بِالدُّنْيَا ثُمَّ تَذُمُّهَا، أَنْتَ الْمُتَجَرِّمُ عَلَيْهَا أَمْ هِيَ الْمُتَجَرِّمَةُ عَلَيْكَ، مَتَى اسْتَهْوَتْكَ أَمْ مَتَى غَرَّتْكَ،

(١) سورة النحل: آية [٧٨]

(٢) بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج ٤ ص ١٧٨.

(٣) بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج ٤ ص ١٧٨.

أَبْمَصَارِعِ آبَائِكَ مِنَ الْبَلَى، أَمْ بِمَصَاجِعِ أُمَّهَاتِكَ تَحْتَ الثَّرَى، كَمْ عَلَلْتَ بِكَفَيْكَ وَكَمْ مَرَضْتَ بِيَدَيْكَ، تَبْتَغِي لَهُمُ الشِّفَاءَ وَتَسْتَوْصِفُ لَهُمُ الْأَطْبَاءَ، غَدَاةٌ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ دَوَاؤُكَ وَلَا يُجِدِّي عَلَيْهِمْ بُكَاءُكَ، لَمْ يَنْفَعْ أَحَدَهُمْ إِشْفَاؤُكَ وَلَمْ تُسَعِفْ فِيهِ بِطَلَبَتِكَ، وَلَمْ تَدْفَعْ عَنْهُ بِقُوَّتِكَ، وَقَدْ مَثَلَتْ لَكَ بِهِ الدُّنْيَا نَفْسَكَ وَبِمَصْرَعِهِ مَصْرَعَكَ، إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ صَدَقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا، وَدَارُ عَافِيَةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا، وَدَارُ غِنَى لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا، وَدَارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنْ اتَّعَظَ بِهَا، مَسْجِدُ أَحِبَّاءِ اللَّهِ وَمُصَلَّى مَلَائِكَةِ اللَّهِ، وَمَهْبِطُ وَحْيِ اللَّهِ وَمَتَجَرُّ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، اكْتَسَبُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ وَرَبِحُوا فِيهَا الْجَنَّةَ، فَمَنْ ذَا يَذُمُّهَا وَقَدْ آذَنْتْ بَيْنَهَا وَنَادَتْ بِفِرَاقِهَا، وَنَعَتْ نَفْسَهَا وَأَهْلَهَا فَمَثَلَتْ لَهُمْ بِبَلَائِهَا الْبَلَاءَ، وَشَوَّقَتْهُمْ بِسُرُورِهَا إِلَى السُّرُورِ، رَاحَتْ بِعَافِيَةٍ وَابْتَكَرَتْ بِفَجِيعَةٍ، تَرْغِيبًا وَتَرْهِيبًا وَتَحْوَيفًا وَتَحْذِيرًا، فَذَمُّهَا رِجَالُ غَدَاةِ النَّدَامَةِ، وَحَمْدُهَا آخِرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ذَكَرْتُهُمُ الدُّنْيَا فَتَذَكَّرُوا وَحَدَّثْتُهُمْ فَصَدَّقُوا، وَوَعظْتُهُمْ فَاتَّعَظُوا»^(١).

وهناك العديد من اللفظات في الآية الكريمة نذكرها من خلال التالي:

أولاً: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾.

وفيها عدة إشارات:

١/ عليك أن تعلم أن الذي أخرجك إلى الدنيا لم يستأذنك في ذلك، فأنت بغير إرادة منك دخلت إليها، وكما دخلت إليها بغير إرادتك، فهكذا ستخرج منها بغير إرادتك ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾^(٢)، فالإرادة منحصرّة بين الدخول والخروج فقط، وعلى الإنسان أن يتفطن ويستثمر هذه الفرصة أفضل استثمار.

٢/ إن ساعة ولحظة الخروج إلى الدنيا هي بيد الله ﷻ، وحتى الأجهزة الحديثة كل ما تعطيه لا يعدو أن يكون مجرد تخمينات وتقريبات، فعلياً أن نلتفت إلى هذه القضية

(١) نهج البلاغة ج ٤ ص ٣١ و ٣٢.

(٢) الزمر ٤٢.

ونلجأ له في هذا المجال.

٣/ أكد الله ﷻ على أهمية لحظة الولادة ﴿مَنْ بَطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ والخروج إلى الدنيا؛ إذ لولا تسهيله ﷻ فإنه أمرٌ عسير، وهذا الأمر لا تدركه إلا المرأة، لذلك هذه اللحظات التي تلد فيها المرأة ولدها يترتب على أثرها حق في عنق الولد لا يوفيه لأمه مهما صنع.

ثانياً: ﴿مَنْ بَطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾:

على الرغم من أن الخروج من بطن الأمهات أمرٌ بديهي، إلا أن القرآن الكريم يذكره، ومن المعلوم أنه لا يذكر إلا ما فيه حكمة، ولعل ذكره لذلك لأجل بيان أهمية دور الأم والتأكيد على عظمة حرمتها بالنسبة للولد؛ لعظم مقدار تضحياتها قياساً بتضحية الأب، وإن كان الأب سبب وجوده أيضاً.

فالولد لا يأخذ من والده في تكوينه إلا النطفة، وحجمها بالنسبة إلى البويضة صغيرٌ جداً، ومن ثم تبدأ تلك البويضة المخضبة رحلتها على مدى تسعة أشهر تقريباً، يتغذى الجنين خلالها من الأم، حيث تزود الجنين بكل ما يبنى جسمه، وإن لم يكن لديها خزين، فإنها تضحي ببعض ما يبنى عظامها وجسمها ليكتمل نموه، بالإضافة إلى ما تقدمه الأم للجنين فإنها تتحمل أيضاً ما يطرحه في داخلها من سموم تكوينه وفضلاته.

ولأن البويضة لم تكن لتُخصَّب لولا ذلك الجسم الغريب (النطفة)، وحيث إن جسم الأم -كأيِّ إنسان- مجهزٌ بجهازٍ مناعي يرفض أيَّ جسمٍ غريب؛ فإن الأم منذ بداية الحمل وحتى الوضع تعاني من أعراضٍ جانبية وتوعك، ولكن الله ﷻ يحافظ على هذا الجسم الغريب فيجعله في ﴿قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ فتتحمل الأم كل تلك الصعاب وهي مستبشرة وفرحة.

فإذا ما اكتملت رحلة تكوينه وآن له أن ينتقل إلى عالم الدنيا، فإنه يُعرَّض الأم إلى

ثاني أقوى ألم بعد الحرق حيًا، وهو ألم الولادة والمخاض.

وما إن تلتقط أنفاسها بعد ذلك الألم حتى تلج في سلسلة من العناء والإجهاد، من حيث الإرضاع والسهر، ورعاية الأطفال، وتربيتهم.

ومن الجدير بالذكر: أنَّ هذه الظروف التي تمرُّ بها المرأة لم تكن لتنجح فيها لولا وجود دافع قوي يحملها على تحمل الروائح الكريهة، ومغادرة الفراش الدافئ وهي بأمس الحاجة إلى النوم لترضع وليدها بل وتناغيه وتلاعبه، وما شاكل ذلك، وما ذلك الدافع إلا غريزة الأمومة، وغزارة عاطفتها، وطغيان حنانها.

ولذا شاءت حكمة الله ﷻ أن تكون المرأة أكثر عاطفةً وأوفر حنانًا من الرجل، لتؤدي هذا الدور العظيم، الذي ما ذكره القرآن إلا للتأكيد على أهميته وعظمته، وللتذكير بقيمة الأم وجسامته تضحياتها، ولفت نظر الولد لبرها حق برها، وزوجها ليراعيها كما تستحق.

ثالثًا: ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾:

هذه الكلمة فيها عدة إشارات:

١/ يولد الإنسان وليس عنده أي علم سوى بعض العلوم الفطرية التي تولد معه، مما غرزه الله ﷻ فيه لتستمر حياته، مثل: حبه لأبويه وهدايته للطريقة السليمة للرضاعة وبكائه عند الجوع وما شابه هذا العلوم، وهي ما تُسمى ب(الهداية الفطرية) التي يشترك بها مع سائر الحيوانات الأخرى، إلا أنه سرعان ما يغادر هذه المرحلة ليلتحق بمرحلة أعلى حيث يكون مستعداً لاكتساب مختلف العلوم والمهارات عن طريق أدوات المعرفة التي جُهِّزَ بها، والتي سيأتي الحديث عنها لاحقاً.

٢/ قد يسأل سائل: لماذا لم نخرجنا الله ﷻ من بطون أمهاتنا علماء، فإنه ﷻ على كل

شيءٍ قدير؟

الجواب:

إنَّ في ذلك حكمة، وقد أشارت إلى هذه الحكمة بعض الروايات، فلو كان الطفل من البداية صاحب علم وإدراك، عندئذٍ سيتألم كثيرًا وسيشعر بالذلة والمهانة؛ لأنَّه لا يستطيع أن يأكل لقمةً إلا إذا أطعمه غيره، ولا يستطيع أن يُنظف نفسه، بل حتى لا يستطيع أن يتحرك إلا بواسطة أحدٍ، فهو عاجزٌ تمامًا، كله كَلٌّ على غيره.

وإذا أردنا أن نقرب الصورة أكثر، فلنتصور أن انسانًا كبيرًا جدًّا بالعمر بحيث يكون طريح الفراش وله إدراكٌ وعقلٌ كاملٌ، ويرى من حوله من يُطعمه ويُنظفه، فهذا الإنسان سيشعرُ بالألم، وقد يدعو الله ﷻ أن يعجِّل بوفاته؛ لأنَّه يشعر بالذل والحاجة. وكذا لو كان ذلك العاجز في زهرة شبابه وقد أصابه مرضٌ ما أقعده، ولا يقوى على القيام بأمره لوحده فيخدمه غيره، فإذا أحسَّ بأنَّ المقابل يخدمه مجبرًا على ذلك فإنَّه قد يتمنى الموت.

وأما الطفل، فحيث إنَّه ليس لديه هذا الإحساس، فهو يبتسم ويضحك، ولا يشعر بشيء من الألم أو الحزن، وهذه إحدى الحكم ولعلها ليست العلة الحقيقية، ولكن هذا ما استفدناه من بعض الروايات، فقد روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنَّه قال للمفضل بن عمر: «فإنَّه لو كان يولَّد تامَّ العقلِ مُستقلًّا بنفسِه لذهبَ موضعُ حلاوةِ تربيَةِ الأولادِ، وما قدَّر أن يكونَ للوالدين في الاشتغالِ بالوليدِ مِنَ المصلحةِ وما يوجبُ التَّربيةَ للأبناءِ على الأبناءِ مِنَ المُكَلِّفاتِ بالبرِّ والعطفِ عليهم عندَ حاجتهمِ إلى ذلكِ منهم، ثمَّ كانَ الأولادُ لا يألَفونَ آباءَهُم، ولا يألَفُ الآباءُ أبناءَهُم؛ لأنَّ الأولادَ كانوا يَسْتَغْنَوْنَ عَن تربيَةِ الآباءِ وحياطِهِم فيتفرَّقونَ عنهم حينَ يولدونَ، فلا يَعْرِفُ الرَّجُلُ أباهُ وأُمَّه ولا يَمْتَنِعُ مِن نِكَاحِ أُمَّه وأُخْتِهِ وذَوَاتِ المَحَارِمِ مِنْهُ إذا كانَ لا يَعْرِفُهُنَّ، وأقلُّ ما في ذلكِ مِن

الْقَبَاحَةِ، بَلْ هُوَ أَشْنَعُ وَأَعْظَمُ وَأَفْظَعُ وَأَقْبَحُ وَأَبْشَعُ لَوْ خَرَجَ الْمَوْلُودُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ وَهُوَ يَعْقِلُ أَنْ يَرَى مِنْهَا مَا لَا يَحِلُّ لَهُ وَلَا يَحْسُنُ بِهِ أَنْ يَرَاهُ. أَفَلَا تَرَى كَيْفَ أُقِيمَ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْخَلْقَةِ عَلَى غَايَةِ الصَّوَابِ وَخَلَا مِنَ الْخَطَا دَقِيقُهُ وَجَلِيلُهُ»^(١).

وبالنتيجة، هناك حكمٌ كثيرةٌ في خلق الإنسان من دون علوم.

٣/ كون الإنسان مولوداً بلا علم فعلي يعني أنَّ هناك مسؤوليةً عظيمةً على الأبوين في أن يُعلِّماه ما ينفعه، فمهمةُ التربية تلقى أولاً على الأبوين، لذلك فقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «ما من مولود يُولَد إلا على الفطرة، فأبواه اللذان يُهودانه ويُنصرانه ويُمجسانه...»^(٢).

رابعاً: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾.

وهذه تمثل الآلات العلمية التي زود الله عليه السلام بها الإنسان، وهي على نوعين:

الأول: آلات العلوم الظاهرية والتجريبية:

وهي السمع والبصر، فبهما يكتسب الإنسان العلوم الظاهرية والتجريبية. ولقد وضعت الشريعة المقدسة حقوقاً للسمع والبصر على الإنسان أن يؤديها إليهما، وليس هذا محل ذكرها.

الثاني: آلة العلم الباطني:

وهي القلب أو العقل أو الإدراك أو الفؤاد.

وهي تلك القوة التي بها تميّز الإنسان عن الحيوان، ففي الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام: قَالَ «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْعَقْلَ قَالَ لَهُ: أَقْبِلْ. فَأَقْبَلَ. ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَدْبِرْ. فَأَدْبَرَ. فَقَالَ:

(١) التوحيد للمفضل بن عمر الجعفي ص ١٥.

(٢) من لا يحضره الفقيه للصدوق ٢: ٤٩ / ح ١٦٦٨.

وَعَزَّيْ وَجَلَالِي، مَا خَلَقْتُ خَلْقًا أَحْسَنَ مِنْكَ، إِيَّاكَ أَمُرُّ وَإِيَّاكَ أَنْهَى، وَإِيَّاكَ أُثِيبُ وَإِيَّاكَ أُعَاقِبُ»^(١).

وللعقل في حياة الإنسان دورٌ كبيرٌ جدًا:

أ/ بالعقل صارت عنده قدرة التفكير التي يصل من خلالها إلى العلم بالمجهولات.
ب/ قدرة الابتكار التي يحلُّ بها المشاكل غير المتوقعة أو حتى المتوقعة كالزلازل،
فلقد تمكن من صنع مصداتٍ لها، وللجفاف صنع السدود والبحيرات لحل هذه المشاكل
وهكذا.

ج/ الذاكرة لدى الإنسان والتي لولاها لما استطاع أن يعيش في هذه الحياة.

د/ قدرة التحليل والاستنتاج، فهو يحلل القضايا ويستنتج من التجارب.

هـ/ قدرة التخيل، حيث يتخيّل صورًا جديدةً ويوجدّها في الخارج كما هو عمل
المهندس، وعمل أكثر المخترعين الذين ما كانوا ليخترعوا طائرةً ولا هاتفًا ولا مركبةً
فضائية ولا... لولا قدرة عقولهم على التخيل.

و/ الإرادة والتصميم التي لدى الإنسان والتي أساسها والدافع إليها العقل.

خامسًا: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

كثيرًا ما يُذكر القرآن الكريم الإنسان بالشكر بعد ذكره لنعم الله ﷻ الجزيلة ومننه
التي لا تُحصى؛ ليؤدي حقها من الشكر.

وهل هناك نعمٌ أجلى مما ذكرتها الآية المباركة بعد نعمة الإيمان؟!!

فلا بُدَّ للإنسان أن يسعى إلى شكره ﷻ قلبًا وقولًا وفعلاً؛ ليزيده الله ﷻ نعمًا،

(١) الكافي للكليني ج ١ ص ٢٦ كتاب العقل والجهل ح ٢٦.

قال ﷺ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾^(١)

ومن الواضح جداً أنَّ المؤمن لا يستطيع أن يؤدي ما عليه من حقوق لله ﷻ؛ لأنها تفوق حدَّ الإحصاء قال ﷺ: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾^(٢).

وخير من بيّن هذا المعنى هو الإمام زين العابدين (عليه السلام) إذ يقول: «أفيلساني هذا الكالُّ أشْكُرُّكَ أَمْ بِغَايَةِ جُهْدِي فِي عَمَلِي أَرْضِيكَ وَمَا قَدَّرُ لِسَانِي يَا رَبِّ فِي جَنْبِ شُكْرِكَ وَمَا قَدَّرُ عَمَلِي فِي جَنْبِ نِعَمِكَ وَإِحْسَانِكَ»^(٣).

وفي مناجاة له (عليه السلام) يقول هذه الجملة العجيبة: «فَكَيْفَ لِي بِتَحْصِيلِ الشُّكْرِ وَشُكْرِي إِيَّاكَ يَفْتَقِرُ إِلَى شُكْرٍ؟! فَكَلِّمًا قُلْتُ: لَكَ الْحَمْدُ، وَجَبَ عَلَيَّ لِذَلِكَ أَنْ أَقُولَ: لَكَ الْحَمْدُ...»^(٤).

ما أروعهُ من تعبيرٍ وما أصدقهُ!

إنَّ نعمة الحمد تحتاجُ إلى حمدٍ وهكذا تتولد من هذا الحمد نعمة أخرى تحتاج إلى حمد، وهكذا دواليك...

والخلاصة:

أنَّ عالم الدنيا هي مرحلة انتقالية من عالم الأرحام إلى عالم البرزخ والموت، وفيه تتوفر الفرصة الوحيدة للإنسان في أن يحدد مصيره بإرادته واختياره.

(١) سورة إبراهيم: آية [٧].

(٢) إبراهيم ٣٤.

(٣) مصباح المتهجد للشيخ الطوسي ص ٥٩١ من دعاء أبي حمزة الثمالي.

(٤) الصحيفة السجّادية (أبطحي): ٤١٠.

العالم الخامس: عالم البرزخ

ويسمى أيضًا بـ(عالم الموت)، وهو العالم ما بين عالم الدنيا وعالم الآخرة (المعاد) وفيه نتعرض إلى ثلاثة محاور، وهي:

المحور الأول: الاحتضار.

وهو أول المنازل التي يمرُّ بها الإنسان عند الموت، وتعبّر عنه الروايات بأنه آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة، وتشير إليه بعض الآيات القرآنية منها قوله ﷻ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعُوذُ بِكَ رَبَّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾^(١)، ولنتعرف على هذا المنزل والعالم نتعرض إلى عدة نقاط:

النقطة الأولى: سبب التسمية.

الاحتضار هو لحظة نزع الروح، وأما سبب تسميته بهذا الاسم فقد ذكروا عدة آراء ليست متنافية، فهي ليست على نحو مانعة الجمع وإنَّما يمكن قبولها كلها، وهي التالي:

السبب الأول:

لحضور الملائكة من جانبٍ والشياطين من جانبٍ آخر عند الإنسان المحتضر، فالملائكة تريد أن تثبت الإنسان على الإيمان لينتقل إلى عالم البرزخ وآخر كلمة ينطقها هي كلمة (لا إله إلا الله)؛ فمن كان آخر كلامه (لا إله إلا الله) دخل الجنة، ولذا روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ (لا إله إلا الله) فَإِنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ (لا إله

(١) سورة المؤمنون: آية ٩٧ و ٩٨.

إلا الله) دخل الجنة»^(١).

وأما الشياطين فهي تحاول قدر إمكانها أن يموت الإنسان على غير التوحيد فتغويه ليخرج من الدنيا كافراً؛ فقد روي عن أبي خديجة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَخْضُرُهُ الْمَوْتُ إِلَّا وَكَلَّ بِهِ إِبْلِيسُ مِنْ شَيْطَانِهِ، أَنْ يَأْمُرَهُ بِالْكَفْرِ وَيُشَكِّكَهُ فِي دِينِهِ، حَتَّى تَخْرُجَ نَفْسُهُ، فَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ، فَإِذَا حَضَرْتُمْ مَوْتَكُمْ، فَلَقْنُوهُمْ شَهَادَةً أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى يَمُوتَ»^(٢).

لذا ورد في أدبياتنا أن هناك بعض الأدعية والأعمال تنفع في التثبيت على الدين لحظة نزع الروح مثل دعاء (العديلة).

والعديلة: هي عدول الإنسان عن الحق إلى الباطل لحظة نزع الروح، وسمي الدعاء الذي يُقرأ لدفع ذلك العدول عن الإنسان بهذا الاسم. وفيه يستعرض الداعي عقائده الحقة، ويؤمنها عند الله ﷻ ليرجعها ﷻ إليه ساعة نزع الروح. وكذلك ورد في الروايات أن تسبيح الزهراء عليها السلام من الأمور التي تنفع في تثبيت الدين ساعة الاحتضار.

«وقال في المستدرک: قال فخر المحققين في آخر رسالته المسماة بإرشاد المسترشدين في أصول الدين: ولنختم رسالتنا هذه بمسألة مباركة، وهي أن العديلة عند الموت تقع، فإنه يجيء الشيطان ويعدل الإنسان عند الموت ليخرجه عن الإيمان فيحصل له عقاب النيران، وفي الدعاء قد تعود الأئمة عليهم السلام منها، فإذا أراد الإنسان أن يسلم من هذه الأشياء فليستحضر أدلة الإيمان والأصول الخمس بالأدلة القطعية، ويصفي خاطره ويقول: اللهم يا أرحم الراحمين، إني قد أودعتك يقيني هذا وثبات ديني، وأنت خير مستودع، وقد أمرتنا بحفظ الودائع، فردّه علي وقت حضور موتي، ثم يخزي الشيطان

(١) ثواب الأعمال للشيخ الصدوق ص ١٩٥.

(٢) الكافي للكليني ج ٣ ص ١٢٣ باب تَلْقِينِ الْمَيِّتِ ح ٦.

ويتعوذ منه بالرحمن، ويدودع ذلك الله تعالى، ويسأله أن يردّه عليه وقت حضور موته وعند ذلك يسلم من العديلة عند الموت قطعاً^(١).

وعن أبي عاصم يوسف عن محمد بن سليمان الديلمي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام فقلت له: جُعِلَتْ فِدَاكَ، إِنَّ شِيعَتَكَ تَقُولُ: إِنَّ الْإِيمَانَ مُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ، فَعَلَّمَنِي شَيْئًا إِذَا أَنَا قُلْتُهُ اسْتَكَمَلْتُ الْإِيمَانَ.

فقال عليه السلام: «قُلْ فِي ذُبْرِ كُلِّ صَلَاةٍ فَرِيضَةً: رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِالْقُرْآنِ كِتَابًا، وَبِالْكَعْبَةِ قِبْلَةً، وَبِعَلِيٍّ وَلِيًّا وَإِمَامًا، وَبِالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ وَالْأَئِمَّةِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، اللَّهُمَّ إِنِّي رَضِيتُ بِهِمْ أَئِمَّةً، فَارْضِنِي لَهُمْ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»^(٢).

ومن الأمور النافعة لدفع العديلة^(٣) هي الصلاة في وقتها، إذ روي عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: «دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ فَقَالَ: يَا مَلِكَ الْمَوْتِ، ارْفُقْ بِصَاحِبِي، فَإِنَّهُ مُؤْمِنٌ. فَقَالَ: أَبَشِّرْ يَا مُحَمَّدُ، فَإِنِّي بِكُلِّ مُؤْمِنٍ رَفِيقٌ، وَاعْلَمْ يَا مُحَمَّدُ، أَنِّي أَقْبَضُ رُوحَ ابْنِ آدَمَ فَيَجْزَعُ أَهْلُهُ، فَأَقُومُ فِي نَاحِيَةٍ مِنْ دَارِهِمْ فَأَقُولُ: مَا هَذَا الْجَزَعُ فَوَاللَّهِ مَا تَعَجَّلَنَاهُ قَبْلَ أَجَلِهِ، وَمَا كَانَ لَنَا فِي قَبْضِهِ مِنْ ذَنْبٍ، فَإِنْ تَحْتَسِبُوا وَتَصْبِرُوا تُؤْجَرُوا، وَإِنْ تَجَزَعُوا تَأْتُمُوا وَتُوزَرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ لَنَا فِيكُمْ عَوْدَةً، ثُمَّ عَوْدَةً، فَالْحَذَرُ الْحَذَرُ، إِنَّهُ لَيْسَ فِي شَرْقِهَا وَلَا فِي غَرْبِهَا أَهْلُ بَيْتٍ مَدْرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا وَأَنَا أَتَصَفَّحُهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، وَلَا نَا أَعْلَمُ بِصَغِيرِهِمْ وَكَبِيرِهِمْ مِنْهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ، وَلَوْ أَرَدْتُ قَبْضَ رُوحِ بَعُوضَةٍ مَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا حَتَّى يَأْمُرَنِي رَبِّي بِهَا.

(١) مستدرک سفینه البحار للشیخ علی النہازی الشاہرودی ج ٧ ص ١٢٢

(٢) تهذيب الأحكام للشيخ الطوسي ج ٢ ص ١٠٩ ح ٤١٢ / ١٨٠.

(٣) ذكر الشيخ عباس القمي رحمته الله في كتابه (منازل الآخرة: العقبة الثانية: العديلة عند الموت) العديد من الأمور النافعة في هذا المجال.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّمَا يَتَصَفَّحُهُمْ فِي مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ، فَإِنْ كَانَ يَمْنُ يُوَاطِبُ عَلَيْهَا
عِنْدَ مَوَاقِيتِهَا، لَقَنَهُ شَهَادَةٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحَى عَنْهُ مَلَكُ
الْمَوْتِ إِبْلِيسَ^(١).

السبب الثاني:

لحضور النبي الأكرم ﷺ وأهل بيته الطاهرين ﷺ ومعهم ملائكة الله العظام
ومنهم جبرائيل عليه السلام عند المحتضر، نسأل الله ﷻ حضورهم في الدنيا وفي البرزخ وفي
الآخرة إن شاء الله ﷻ، وعندئذ سيأتمر الملائكة بأوامر النبي الأكرم ﷺ التي سيصدرها
لهم حسب عقيدة المحتضر.

روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال:

«مِنْكُمْ وَاللهُ يُقْبَلُ، وَلَكُمْ وَاللهُ يُغْفَرُ، إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ أَحَدِكُمْ وَبَيْنَ أَنْ يَغْتَبِطَ وَيَرَى
السُّرُورَ وَقَرَّةَ الْعَيْنِ إِلَّا أَنْ تَبْلُغَ نَفْسُهُ هَاهُنَا - وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ - ثُمَّ قَالَ ﷺ:

إِنَّهُ إِذَا كَانَ ذَلِكَ وَاحْتَضَرَ حَضَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَلِيٌّ عليه السلام وَجَبْرَائِيلُ وَمَلَكُ
الْمَوْتِ عليه السلام فَيَدْنُو مِنْهُ عَلِيٌّ عليه السلام فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ هَذَا كَانَ يُحِبُّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ،
فَأَحْبَبَهُ، وَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا جَبْرَائِيلُ، إِنَّ هَذَا كَانَ يُحِبُّ اللهُ وَرَسُولَهُ وَأَهْلَ بَيْتِ
رَسُولِهِ فَأَحْبَبَهُ، وَيَقُولُ جَبْرَائِيلُ لِلْمَلَكِ الْمَوْتِ عليه السلام: إِنَّ هَذَا كَانَ يُحِبُّ اللهُ وَرَسُولَهُ وَأَهْلَ
بَيْتِ رَسُولِهِ، فَأَحْبَبَهُ وَارْفُقْ بِهِ، فَيَدْنُو مِنْهُ مَلَكُ الْمَوْتِ فَيَقُولُ: يَا عَبْدَ اللهِ، أَخَذْتَ فَكَأَكَ
رَقِيبَتَكَ أَخَذْتَ أَمَانَ بَرَاءَتِكَ، تَمَسَّكَتَ بِالْعِصْمَةِ الْكُبْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؟

قَالَ: فَيُؤَفِّقُهُ اللهُ ﷻ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: وَمَا ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: وَلَايَةُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي
طَالِبٍ عليه السلام. فَيَقُولُ: صَدَقْتَ، أَمَّا الَّذِي كُنْتَ تَحَذِّرُهُ، فَقَدْ آمَنَكَ اللهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الَّذِي كُنْتَ

(١) الكافي للكليني ج ٣ ص ١٣٦ باب إخراج رُوحِ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ج ٢.

تَرْجُوهُ فَقَدْ أَدْرَكْتَهُ، أَبَشِّرْ بِالسَّلَافِ الصَّالِحِ، مُرَافَقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ ٱلْعَظَمَى ٱلْمُكَرَّمَةِ، ثُمَّ يَسْأَلُ نَفْسَهُ سَلًّا رَفِيقًا، ثُمَّ يَنْزِلُ بِكَفَنِهِ مِنَ الْجَنَّةِ وَحَنُوطِهِ مِنَ الْجَنَّةِ بِمَسْكِ أَذْفَرٍ، فَيَكْفِنُ بِذَلِكَ الْكَفَنِ وَيُحَنِّطُ بِذَلِكَ الْحَنُوطِ، ثُمَّ يُكْسِي حُلَّةَ صَفَرَاءَ مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ فُتِحَ لَهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، يَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنْ رَوْحِهَا وَرِيحَانِهَا، ثُمَّ يَفْسَحُ لَهُ عَنْ أَمَامِهِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمِ نَوْمَةَ الْعُرُوسِ عَلَى فِرَاشِهَا أَبَشِّرْ بِرُوحِ وَرِيحَانِ وَجَنَّةِ نَعِيمٍ وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانٍ، ثُمَّ يَزُورُ آلَ مُحَمَّدٍ فِي جَنَانِ رَضْوَى، فَيَأْكُلُ مَعَهُمْ مِنْ طَعَامِهِمْ، وَيَشْرَبُ مِنْ شَرَابِهِمْ وَيَتَحَدَّثُ مَعَهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ، حَتَّى يَقُومَ قَائِمُنَا أَهْلَ الْبَيْتِ، فَإِذَا قَامَ قَائِمُنَا بَعَثَهُمُ اللَّهُ فَأَقْبَلُوا مَعَهُ يُلَبُّونَ زَمْرًا زَمْرًا، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَرْتَابُ الْمُبْطِلُونَ وَيُضْمَحِلُّ الْمُحِلُّونَ، وَقَلِيلٌ مَا يَكُونُونَ، هَلَكْتَ الْمَحَاضِيرُ، وَنَجَا الْمُقَرَّبُونَ.

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَلِيٍّ ٱلْعَلِيِّ ٱلْمُرَادِ: أَنْتَ أَخِي وَمِعَادُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ وَادِي السَّلَامِ.

قَالَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ: وَإِذَا اخْتَضَرَ الْكَافِرُ، حَضَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَلِيٌّ ٱلْعَلِيُّ وَجَبْرِئِيلُ وَمَلَكُ الْمَوْتِ ٱلْمُوتِ ٱلْمُوتِ فَيَدْنُو مِنْهُ عَلِيٌّ ٱلْعَلِيُّ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا كَانَ يُبْغِضُنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فَأَبْغِضْهُ. وَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا جَبْرِئِيلُ، إِنَّ هَذَا كَانَ يُبْغِضُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَهْلَ بَيْتِ رَسُولِهِ فَأَبْغِضْهُ. فَيَقُولُ جَبْرِئِيلُ: يَا مَلَكُ الْمَوْتِ، إِنَّ هَذَا كَانَ يُبْغِضُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَهْلَ بَيْتِ رَسُولِهِ فَأَبْغِضْهُ وَاعْتَفَ عَلَيْهِ.

فَيَدْنُو مِنْهُ مَلَكُ الْمَوْتِ فَيَقُولُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَخَذْتَ فَكَأَكْ رَهَانِكَ أَخَذْتَ أَمَانَ بَرَاءَتِكَ تَمَسَّكَتَ بِالْعِصْمَةِ الْكُبْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: لَا. فَيَقُولُ: أَبَشِّرْ يَا عَدُوَّ اللَّهِ بِسَخَطِ اللَّهِ ٱلْعَزِيزِ وَعَذَابِهِ وَالنَّارِ، أَمَّا الَّذِي كُنْتَ تَحَذَّرُهُ فَقَدْ نَزَلَ بِكَ، ثُمَّ يَسْأَلُ نَفْسَهُ سَلًّا عَنيفًا، ثُمَّ يُوَكِّلُ بِرُوحِهِ ثَلَاثَةَ شَيْطَانٍ كُلُّهُمْ يَبْزُقُ فِي وَجْهِهِ، وَيَتَأَذَّى بِرُوحِهِ، فَإِذَا وُضِعَ

فِي قَبْرِهِ فُتِحَ لَهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ النَّارِ فَيَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنْ قِيحِهَا وَلَهَبِهَا»^(١).

السبب الثالث:

لحضور وتمثل أهم الأشياء عند الإنسان يراها عندما ينكشف عنه الغطاء، وهي ثلاثة أشياء كما جاء في الروايات الشريفة (ماله وولده وعمله).

عَنْ سُوَيْدِ بْنِ غَفَلَةَ قَالَ: قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «إِنَّ ابْنَ آدَمَ إِذَا كَانَ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا وَأَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ، مَثَّلَ لَهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَلْتَفِتُ إِلَى مَالِهِ فَيَقُولُ: وَاللَّهِ إِنِّي كُنْتُ عَلَيْكَ حَرِيصًا شَحِيحًا، فَمَا لِي عِنْدَكَ؟ فَيَقُولُ: خُذْ مِنِّي كَفَنَكَ.

قَالَ: فَيَلْتَفِتُ إِلَى وَلَدِهِ فَيَقُولُ: وَاللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ لَكُمْ مُحِبًّا، وَإِنِّي كُنْتُ عَلَيْكُمْ مُحَامِيًّا، فَمَا ذَا لِي عِنْدَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: نُؤَدِّيكَ إِلَى حُفْرَتِكَ، نُؤَارِيكَ فِيهَا.

قَالَ: فَيَلْتَفِتُ إِلَى عَمَلِهِ فَيَقُولُ: وَاللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ فِيكَ لَزَاهِدًا، وَإِنْ كُنْتُ عَلَيَّ لثَقِيلًا، فَمَا ذَا عِنْدَكَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا قَرِينُكَ فِي قَبْرِكَ، وَيَوْمَ نَشْرِكَ، حَتَّى أُعْرَضَ أَنَا وَأَنْتَ عَلَى رَبِّكَ.

قَالَ عليه السلام: فَإِنْ كَانَ لِلَّهِ وَلِيًّا أَتَاهُ أَطْيَبُ النَّاسِ رِيحًا، وَأَحْسَنُهُمْ مَنْظَرًا، وَأَحْسَنُهُمْ رِيَاشًا فَقَالَ: أَبَشِّرْ بِرَوْحٍ وَرِيحَانٍ وَجَنَّةٍ نَعِيمٍ، وَمَقْدَمِكَ خَيْرٌ مَقْدَمٍ. فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، ازْجُلْ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْجَنَّةِ. وَإِنَّهُ لَيَعْرِفُ غَاسِلَهُ، وَيُنَاشِدُ حَامِلَهُ أَنْ يُعَبِّجَهُ.

فَإِذَا أُدْخِلَ قَبْرَهُ أَتَاهُ مَلَكَا الْقَبْرِ يَجْرَانِ أَشْعَارُهُمَا وَيُخَذَّانِ الْأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمَا، أَصْوَاتُهُمَا كَالرَّغْدِ الْقَاصِفِ، وَأَبْصَارُهُمَا كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: اللَّهُ رَبِّي وَدِينِي الْإِسْلَامُ وَنَبِيِّ مُحَمَّدٍ عليه السلام. فَيَقُولَانِ لَهُ: ثَبَّتَكَ اللَّهُ فِيمَا تُحِبُّ وَتَرْضَى. وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي

(١) الكافي للكليني ج ٣ ص ١٣٢ باب مَا يُعَايِنُ الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ ح ٤.

الآخِرَةَ ﴿١﴾.

ثُمَّ يَفْسَحَانِ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ، ثُمَّ يَفْتَحَانِ لَهُ بَاباً إِلَى الْجَنَّةِ، ثُمَّ يَقُولَانِ لَهُ: نَمْ قَرِيرَ الْعَيْنِ نَوْمَ الشَّابِّ النَّاعِمِ، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾. (٢)

قَالَ ﷺ: وَإِنْ كَانَ لِرَبِّهِ عُدُوًّا، فَإِنَّهُ يَأْتِيهِ أَفْبَحَ مَنْ خَلَقَ اللَّهُ زَيْتًا وَرُؤْيَا، وَأَنْتَنَّهُ رِيحًا، فَيَقُولُ لَهُ: أَبَشِّرْ بِنَزْلِ مَنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةٍ جَحِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَعْرِفُ غَاسِلَهُ وَيُنَاشِدُ حَمَلَتَهُ أَنْ يَحْبِسُوهُ، فَإِذَا أُدْخِلَ الْقَبْرَ أَتَاهُ مُتَّحِنًا الْقَبْرِ، فَأَلْقَيَا عَنْهُ أَكْفَانَهُ، ثُمَّ يَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ: لَا دَرَيْتَ وَلَا هَدَيْتَ، فَيَضْرِبَانِ يَأْفُوخَهُ بِمِرْزِيَةٍ مَعَهَا ضَرْبَةٌ مِمَّا خَلَقَ اللَّهُ ﷻ مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا وَتَدَعُرُ لَهَا، مَا خَلَا الثَّقَلَيْنِ، ثُمَّ يَفْتَحَانِ لَهُ بَاباً إِلَى النَّارِ، ثُمَّ يَقُولَانِ لَهُ: نَمْ بِشَرِّ حَالٍ فِيهِ مِنَ الصَّبَقِ مِثْلُ مَا فِيهِ الْقَنَا مِنَ الزَّجِّ، حَتَّى إِنْ دِمَاغَهُ لَيَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ظُفْرِهِ وَلَحْمِهِ، وَيُسَلِّطُ اللَّهُ عَلَيْهِ حَيَاتِ الْأَرْضِ وَعَقَارِبَهَا وَهَوَامَّهَا، فَتَنْهَشُهُ حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ قَبْرِهِ، وَإِنَّهُ لَيَتَمَنَّى قِيَامَ السَّاعَةِ فِيمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الشَّرِّ. (٣)

السبب الرابع:

لحضور المؤمنين وأحباب المحتضر عنده حين يموت، وفي ذلك ترويحٌ عن المحتضر وإن فيه إشعاراً بالمحبة قلوب من يحضرون عنده، وهناك استحبابٌ في هذا المجال كما ورد في بعض الروايات.

فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سِنَانٍ قَالَ: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: يَنْبَغِي لِلْمَرِيضِ مِنْكُمْ أَنْ يُؤْذِنَ إِخْوَانَهُ بِمَرَضِهِ فَيَعُوذُونَهُ، فَيُؤْجَرُ فِيهِمْ وَيُؤْجَرُونَ فِيهِ. قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: نَعَمْ، هُمْ

(١) إبراهيم: ٢٦

(٢) الفرقان: ٢٦

(٣) الكافي للكليني ج ٣ ص ٢٣١ - ٢٣٣ باب أن المَيِّتَ يُمَثَّلُ لَهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ وَعَمَلُهُ قَبْلَ مَوْتِهِ ح ١.

يُؤْجَرُونَ بِمَمَشَاهُمْ إِلَيْهِ، فَكَيْفَ يُؤْجَرُ هُوَ فِيهِمْ؟ قَالَ: فَقَالَ ﷺ: بِاِكْتِسَابِهِ لَهُمُ الْحَسَنَاتِ فَيُؤْجَرُ فِيهِمْ، فَيُكْتَبُ لَهُ بِذَلِكَ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَيُرْفَعُ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ، وَيُمْحَى بِهَا عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ^(١).

النقطة الثانية: الأمور التي يفعلها المحتضر؟

الشخص الذي علم من نفسه أن الموت قرب منه، أو وصل إلى مرحلة الاحتضار، أو كان مريضاً مطلقاً، فيمكن القول بأنه يلزمه -على نحو الوجوب أو الاستحباب- التالي:

أولاً: التوبة.

وإن كانت هي واجبةً مطلقاً، تجب على الإنسان كلما صدر منه ذنبٌ، لكنها واجبةٌ مؤكداً أكثر على الإنسان المحتضر، فعليه أن يُقلع عن الذنوب، ويتوب إلى الله ﷻ.

ثانياً: أداء حقوق الناس الواجبة.

نحو ردِّ الودائع والأمانات مع الإمكان، فإن لم يتمكن، أوصى بها.

ثالثاً: الوصية بالأمور العبادية.

من صومٍ وصلاةٍ وحجٍّ، فيُستحب أن يوصي أولاده في المستحبات بل في الواجبات كما لو كان الحجُّ مستقراً في ذمته ولم يؤده فيجب عليه أن يعطي ما لا لذلك لمن يستأمنه.

الرابع: يُستحب للمريض أن يحمد الله ﷻ ويشكره في حال المرض كحال الصحة.

الخامس: يستحب له كتمان المرض وترك الشكاية.

عَنْ بَشِيرِ الدَّهَّانِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ ﷻ: أَيُّمَا عَبْدٍ ابْتَلَيْتُهُ بِبَلِيَّةٍ، فَكَتَمَ

(١) الكافي للكليني ج ٣ ص ١١٧ باب المَرِيضِ يُؤْذَنُ بِهِ النَّاسَ ح ١.

ذَلِكَ مِنْ عَوَادِهِ ثَلَاثًا، أَبَدَلْتُهُ لَحْمًا خَيْرًا مِنْ لَحْمِهِ، وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ، وَبَشَرًا خَيْرًا مِنْ بَشَرِهِ، فَإِنْ أَبْقَيْتُهُ أَبْقَيْتُهُ وَلَا ذَنْبَ لَهُ، وَإِنْ مَاتَ مَاتَ إِلَى رَحْمَتِي»^(١).

النقطة الثالثة: الأمور التي يفعلها من يحضر عند المحتضر.

١/ توجيه المحتضر نحو القبلة، بأن يُجعل باطن قدميه نحو القبلة بحيث لو جلس المحتضر لصار وجهه قبال القبلة، وهو واجب كفائي.

٢/ يُستحب نقل المحتضر إلى مُصلاه، أي إلى المكان الذي كان يُكثر الصلاة فيه.

٣/ يُستحب تلقينه الشهادتين والإقرار بالأئمة عليهم السلام، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: إذا حضرت الميت الوفاة فلقنه شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا عبده ورسوله.

٤/ يُستحب تلقينه كلمات الفرج، فقد ورد في الحديث أيضًا عن الإمام الصادق عليه السلام ينقله عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لا إله إلا الله العلي العظيم سبحانه الله ربّ السماوات السبع...».

٥/ يُستحب أن يُجعل آخر تلقينه كلمة لا إله إلا الله لما تقدم عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: لقنوا موتاكم (لا إله إلا الله) فإن من كان آخر كلامه (لا إله إلا الله) دخل الجنة.^(٢)

٦/ يُستحب قراءة القرآن عند المحتضر لدفع الشياطين المضللين والمشككين، ولأجل البركة.

٧/ يُستحب أن يُسرج عند الميت إذا مات ليلاً ولا يوضع في ظلام.

٨/ يُستحب التعجيل في تجهيزه فإنه من إكرام الميت، وإن تأخيره ربّما يُسبّب تنن

(١) الكافي للشيخ الكليني، ج ٣، ص ١١٥ ح ٣.

(٢) ثواب الأعمال للشيخ الصدوق ص ١٩٥.

جسده، وبالتالي صدور الروائح الكريهة منه، وبالتالي قد يتقزز من يحضر جنازته، وربما يكون في هذا إهانة للميت، واحترامه واجب كما هو معلوم، وقد دلت على ذلك العديد من الروايات الشريفة، ومنها التالي:

عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يا معشر الناس لا ألفين رجلاً مات له ميت فانتظر به الصبح، ولا رجلاً مات له ميت نهاراً فانتظر به الليل، لا تنتظروا بموتاكم طلوع الشمس ولا غروبها، عجلوا بهم إلى مضاجعهم يرحمكم الله»، فقال الناس: وأنت يا رسول الله يرحمك الله^(١).

وعنه عليه السلام: «إذا مات الميت أول النهار فلا يقل (٢) إلا في قبره»^(٣).

وعنه عليه السلام: «كرامة الميت تعجيله»^(٤).

٩/ يُستحب إعلام المؤمنين بموت المؤمن، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «يُنْبَغِي لِأَوْلِيَاءِ الْمَيِّتِ مِنْكُمْ أَنْ يُؤْذِنُوا إِخْوَانَ الْمَيِّتِ بِمَوْتِهِ فَيَشْهَدُونَ جَنَازَتَهُ وَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ، فَيُكْتَبُ لَهُمُ الْأَجْرُ، وَيُكْتَبُ لِلْمَيِّتِ الْإِسْتِغْفَارُ، وَيَكْتَسِبُ هُوَ الْأَجْرَ فِيهِمْ وَفِيَا كَتَسَبَ لِمَسْتَهْمٍ مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ»^(٥).

وإجمال ما على الذي يحضر عند المحضر أن يفعله هو ما جاء في فقه الرضا عليه السلام لعل بن بابويه القمي: «إذا حضرت الميت الوفاة فلقنه: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ، والإقرار بالولاية لأمر المؤمنين عليه السلام والأئمة عليهم السلام واحداً واحداً».

(١) الكافي للشيخ الكليني (ج ٣/ ص ١٣٧ و ١٣٨/ باب تعجيل الدفن/ ح ١).

(٢) من القيلولة. كناية عن تعجيل الدفن. (هامش المصدر).

(٣) الكافي للشيخ الكليني (ج ٣/ ص ١٣٧ و ١٣٨/ باب تعجيل الدفن/ ح ٢).

(٤) من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق (ج ١/ ص ١٤٠/ ح ٣٨٥).

(٥) الكافي، الجزء ٣، ص ١٦٦ باب أن الميت يؤذن به الناس ح ١.

ويستحب أن يلحن كلمات الفرج، وهي: لا إله إلا الله الحليم الكريم، لا إله إلا الله العلي العظيم، سبحان الله رب السماوات السبع ورب الأرضين السبع وما فيهن وما بينهن ورب العرش العظيم، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

ولا تحضر الحائض ولا الجنب عند التلقين، فإن الملائكة تتأذى بها، ولا بأس بأن يليا غسله ويصليا عليه، ولا ينزلا قبره، فإن حضرا ولم يجدا من ذلك بدأ، فليخرجا إذا قرب خروج نفسه.

وإذا اشتد عليه نزع روحه، فحوله إلى المصلى الذي كان يصلي فيه أو عليه، وإياك أن تمسه.

وإن وجدته يحرك يديه أو رجله أو رأسه، فلا تمنعه من ذلك كما (يفعل جهال الناس)...^(١)

المحور الثاني: الموت

وهو من الأمور الوجدانية التي لا يستطيع أحد أن ينكره، وقد أدرجها الإنسان في قائمة المكروهات والمبغضات واللامشتهيات منذ القدم وما زال، الأمر الذي عبّر عنه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «واعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَيَكَادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنْهُ وَيَمَلُّهُ، إِلَّا الْحَيَاةَ فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ فِي الْمَوْتِ رَاحَةً...»^(٢).

لذا نجد وجداناً أن الناس يكرهون الموت مع علمهم أنه مصير لا بد منه ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

وتثار حول الموت مجموعة من الأسئلة، سندرج الأهم منها ونجيب عنها تباعاً:

(١) فقه الرضا عليه السلام لعللي بن بابويه القمي ص ١٦٥ - ١٦٦ باب باب ٢٢ باب غسل الميت وتكفينه.

(٢) نهج البلاغة - تحقيق صبحي صالح ص ١٩٢.

السؤال الأول: ما حقيقة الموت؟

بعض الناس يتصور أنّ الموت أمرٌ عديمي وأن معناه الفناء؛ لأنّ النظرة إلى الموت هي أنه إعدامٌ للحياة وفناءٌ ونهايةٌ لها. بيد أنّ هذا التصور خلاف ظاهر القرآن الكريم الذي يعدّ الموت مخلوقاً كالحياة، قال ﷺ: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾^(١).

فالموت ليس فناءً وليس إعدامًا، وإنّما هو بعبارة بسيطة واضحة: عملية انفصال الروح عن البدن المادي، ذلك البدن الذي ارتبطت به الروح طيلة تواجدها في هذه الحياة الدنيا، ومن ثم فليس فيه فناء ولا نهاية، وتعبير الروايات الشريفة هو مرحلة انتقالية من مكانٍ إلى آخر؛ لذلك لما سُئل الإمام السجاد علي بن الحسين ﷺ: ما الموت؟ قال ﷺ: «للمؤمن كنز ثياب وسخة قملة»^(٢)، وفك قيود وأغلال ثقيلة، والاستبدال بأفخر الثياب وأطيبها روائح وأوطى المراكب، وأنس المنازل. وللكافر كخلع ثياب فاخرة، والنقل عن منازل أنيسة، والاستبدال بأوسخ الثياب وأخشنها، وأوحش المنازل وأعظم العذاب»^(٣).

وفي تعبیر للإمام الباقر ﷺ عندما سُئل ﷺ عن الموت فقال: «هو النوم الذي يأتيكم كل ليلة إلا أنه طويل مدته لا ينتبه منه إلا يوم القيامة، فمن رأى في نومه من أصناف الفرح ما لا يقادر قدره ومن أصناف الأهوال ما لا يقادر قدره؟ فكيف حال فرح في النوم ووجل فيه؟ هذا هو الموت فاستعدوا له»^(٤).

لذا قال أمير المؤمنين ﷺ: «أيها الناس، إنا خلقنا وإياكم للبقاء لا للفناء، لكنكم

(١) تبارك: ٢

(٢) ثوب وسخ: علاه الدرن لقلة تعهده بالماء. و (قملة) أي كثر فيه القمل وهو دويبة معروفة.

[هامش المصدر]

(٣) معاني الأخبار للشيخ الصدوق ص ٢٨٩.

(٤) معاني الأخبار للشيخ الصدوق ص ٢٨٩.

من دار إلى دار تنقلون، فتزودوا لما أنتم صائرون إليه وخالدون فيه». (١)

السؤال الثاني: لماذا نكره الموت؟

إذا كان الموت قانون الحياة الثابت ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، وكلُّ الموجودات التي خلقها الله ﷻ مآلها إلى الموت، وإذا كان الموت هو قدرنا، فلماذا نهرب منه؟ ولماذا نكرهه؟

الجواب: ذكر العلماء عدة أسباب لذلك، منها:

الأول: الجهل بحقيقة الموت.

إنَّ الناس أعداء ما جهلوا، فمن البديهي أن يكرهوا الموت لجهلهم بحقيقته، لذلك ورد عن الإمام الجواد (عليه السلام) عندما سُئل ما بال هؤلاء المسلمين يكرهون الموت؟ فقال (عليه السلام): لأنهم جهلوه فكرهوه، ولو عرفوه وكانوا من أولياء الله ﷻ لأحبوه، ولعلموا أن الآخرة خير لهم من الدنيا، ثم قال (عليه السلام): يا أبا عبد الله، ما بال الصبي والمجنون يمتنع من الدواء المنقي لبدنه والنافي للألم عنه؟ قال: لجهلهم بنفع الدواء. قال (عليه السلام): والذي بعث محمداً بالحق نبياً، إن من استعد للموت حق الاستعداد فهو أنفع له من هذا الدواء لهذا المتعالج، أما إنهم لو عرفوا ما يؤدي إليه الموت من النعيم لاستدعوه وأحبوه أشد ما يستدعي العاقل الحازم الدواء لدفع الآفات واجتلاب السلامة. (٢)

فإذا ما علم الناس حقيقة الموت وتهيأوا له، زال الخوف منه وانتفت كراهيته، ولعل خير مصداق على ذلك الرسول الأعظم ﷺ فقد ورد في الروايات أنه ﷺ خير بين الخلود في الدنيا وبين الموت فاختر الموت، فقد روي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: «لما حضرت

(١) الإرشاد للشيخ المفيد ج ١ ص ٢٣٨.

(٢) معاني الأخبار للشيخ الصدوق ص ٢٩٠.

النبي ﷺ الوفاة، نزل جبرئيل عليه السلام فقال: يا رسول الله هل لك في الرجوع إلى الدنيا؟ فقال: لا، قد بلغت رسالات ربي، فأعادها عليه، فقال: لا بل الرفيق الأعلى^(١)...^(٢)

وحبيه وابن عمه وأخوه بل ونفسه أمير المؤمنين عليه السلام روي عنه أنه قال: «أيهنوا^(٣)، فوالله لابن أبي طالب أنس بالموت من الطفل إلى محالب أمه...»^(٤)

كما نقل لنا التاريخ أن الإمام الحسين عليه السلام أذن لأصحابه بالتفرق وطلب منهم أن يذهبوا ويتخذوا الليل جملاً، لكنهم اختاروا الموت على أن يتركوه، بل كانوا يستأنسون بالموت من أجله، فهو استئناس بالموت بعد العلم بحقيقته.^(٥)

الثاني: الخوف من الموت

فإذا خفت شيئاً فمن البديهي أنه تكرهه، وهناك عدة أسباب للخوف من الموت

(١) في النهاية «والحقني بالرفيق الأعلى» الرفيق: جماعة الأنبياء الذين يسكنون أعلى عليين، وهو اسم جاء على فعيل ومعناه الجماعة كالصديق والخليط يقع على الواحد والجمع ومنه قوله تعالى ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ والرفيق: المرافق في الطريق، وقيل معنى «الحقني بالرفيق الأعلى» أي بالله تعالى، يقال: الله رفيق بعباده، من الرفق والرأفة فهو فعيل بمعنى فاعل. وغلط الأزهري قائل هذا واختار المعنى الأول، ومنه حديث عائشة «سمعت يقول عند موته: «بل الرفيق الأعلى» وذلك أنه خير بين البقاء في الدنيا وبين ما عند الله ﷻ فاختر ما عنده سبحانه». [هامش المصدر]

(٢) من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق ج ٤ ص ١٦٣ ح ٥٣٧٠.

(٣) هذه الكلمة فعل أمر من وهن يوهن كوجل يوجل: إذا ضعف في العمل أو الأمر، أي: كونوا ضعفاء لأنكم خفتهم من الموت في سبيل الحق وصار الأمر إلى ما رأيتم... [هامش بحار الأنوار ج ٢٩ ص ١٤١].

(٤) الاحتجاج للطبرسي ج ١ ص ١٢٨.

(٥) في موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام - لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام ص ٤٩٣: ثم قال [السيدة زينب عليها السلام]: «أخي، هل استعلمت من أصحابك نيأتهم فإني أخشى أن يسلموك عند الوتة واصطكاك الأسنّة! فبكى عليه السلام وقال: أما والله! لقد نهزتهم وبلوئتهم وليس فيهم إلاّ الأشوس الأعفس يستأنسون بالممّنة دوني استئناس الطفل بلبّين أمّه...».

منها:

١/ فُطِرَ الإنسانُ على حُبِّ الخلود، بحيث لو أعطاه الله ﷻ ألف سنةٍ لطلب ألفاً ثانية، فإذا اعتقد أن الموت نهايةُ المسيرة الإنسانية، وأنه إعدادٌ للحياة، فمن البديهي أن يخافه، أما إذا علم أن الموت قنطرةٌ كما عبَّرَ عنه الإمام الحسين (عليه السلام): «فما الموت إلا قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضراء إلى الجنان الواسعة والنعيم الدائمة، فأيكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر، وما هو لأعدائكم إلا كمن ينتقل من قصر إلى سجن وعذاب»^(١)، فإنه سيتيقن أنه سيتنقل إلى حياة أخرى.

نعم، هو للكافرين كمن ينتقل من قصرٍ إلى سجنٍ وهذا بحثٌ آخر -لأنه لم يكن كذلك إلا لسوء أفعالهم-، أما المؤمن فإذا عرف حقيقة الموت وأنه سيتنقل إلى النعيم فإنه لن يخافه بعد ذلك، بل يشفق إليه كما كان المخلصون من البشر.

٢/ التعلق الأعمى بالدنيا، فمن عشق شيئاً أعشى بصره وأصمَّ سمعه وأمراض قلبه، قال ﷺ: ﴿إِنَّا قُلْنَاهُ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٢)؛ إشارة إلى تعلق الإنسان بهذه الدنيا.

قيل: إن رجلاً رأى شاباً قد انحدر من المقبرة فقال له: من أين؟ فقال: من هذه القافلة، فقال: إلى أين؟ فقال الشاب: أتزوّد وألحق بها، فسأله: أي شيء قالوا لك وأي شيء قلت لهم؟ فقال: قلت لهم: متى ترحلون؟ قالوا: حين تقدمون.

فلو استشعرنا حقيقة أن الموت هي نهاية المسيرة الإنسانية، لما تعلقنا بهذه الدنيا الفانية.

٣/ النفس اللوامة، وهو من الأسباب الإيجابية، فإن الإنسان المؤمن إذا آمن بأن

(١) معاني الأخبار للشيخ الصدوق ص ٢٨٩ باب معنى الموت ح ٣.

(٢) التوبة ٣٨.

هناك بعثاً وحساباً وعقاباً، وأن الله ﷻ قد استنسخ أعماله كلها وسيعرضها عليه يومئذ، ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ لِمَا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(١) فيفكر ذلك المؤمن حينئذ بهذه الأمور، ويرى كم الذنوب التي احتطبها على ظهره، فعندما يسمع بالموت والحال هذه فيسكره ويخافه؛ لأنه يخاف على نفسه أن يواجه ربه ﷻ بهذه الذنوب وبالتالي سيكون مصيره غير جيد، وهذا ما عبرت عنه الروايات، «عمرتم الدنيا وأخربتم الآخرة». فرغم معرفة المؤمن بحقيقة الموت، إلا أنه يخافه لهذا اللحاظ، وليس خوفاً من نفس الموت.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «جاء رجل إلى أبي ذر فقال: يا أبا ذر، ما لنا نكره الموت؟ فقال: لأنكم عمرتم الدنيا وأخربتم الآخرة، فتكرهون أن تنقلوا من عمرانٍ إلى خراب. فقال له: فكيف ترى قدومنا على الله تعالى؟ فقال: أما المحسن منكم فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء منكم فكالأبق يرد على مولاه. قال: فكيف ترى حالنا عند الله تعالى؟ قال: اغرضوا أعمالكم على الكتاب، إن الله يقول: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾^(٢). قال: فقال الرجل: فأين رحمة الله؟ قال: رحمة الله قريب من المحسنين». ^(٣)

السؤال الثالث: ما أنواع التوفي؟

ذكروا أن للإنسان نفوساً ثلاثة، وأن للتوفي معينين.

(١) الكهف ٤٩.

(٢) الانفطار: ١٤ و ١٥.

(٣) الكافي للكليني ج ٢ ص ٤٥٨ باب محاسبة العمل - ح ٢٠.

فأما النفوس الثلاثة^(١) فهي:

١/ النفس النباتية:

وهي النفس التي بها ينمو الإنسان ويكبر، ويحتاج لأجلها إلى الطعام، وبذا يشترك معه سائر الحيوانات، ولو لم يفكر الإنسان إلا بإشباع هذا الجانب من وجوده لكان كما قال القرآن الكريم:

وإلى هذا الحد لا فرق فإذا الإنسان لم يفكر إلا فما الفرق بينه وبين سائر الأنعام؟! ولذا وصفهم القرآن الكريم بقوله عز من قائل: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾^(٢) كما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «... فَمَا خُلِقْتُ لِيُشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ هُمُّهَا عِلْفُهَا، أَوْ الْمَرْسَلَةُ شُغْلُهَا تَقْمُمُهَا، تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلَافِهَا وَتَلْهَوُ عَمَّا يُرَادُ بِهَا...»^(٣).

وهذه النفس هي أقل مرتبة من مراتب الإنسان كما لا.

٢/ النفس الحيوانية:

وهي تلك النفس التي يحسُّ بها الإنسان بالألم ويشعرُّ بالرغبة والجوع ويتكاثر بها، وهي أرقى من النفس النباتية؛ لأنَّ بها شعور وإحساس وتكاثر. ولذا قيل: إِنَّ «الْأَظْفَرَ» وشعر الإنسان تملك روحًا نباتية فقط، ولهذا السبب لا يشعر بها الإنسان عندما تقطع في عملية تقليم الأظافر وقص الشعر، ولكن اللحم والعضلات مضافاً إلى أنَّها تملك روحًا نباتية، فلها روح حيوانية أيضاً، فأدنى ضرر أو أذى يلحق بالإنسان تحسُّ به هذه

(١) يُطلب تفسير هذه النفوس بتفصيل أكثر وما يتعلق بها من قوى مختلفة في علم النفس الفلسفي.

(٢) الأعراف: ١٧٩.

(٣) نهج البلاغة (ج ٣/ ص ٧٢).

العضلات وتتألم»^(١).

٣/ النفس الإنسانية العقلية:

وهي النفس التي يمتاز بها الإنسان عن الحيوان بميزة القوة المدركة عنده، وهو (العقل) الذي بنى حياة الإنسان وجعلها حياة متكاملة^(٢).
وأما التوفي فله معنيان:

الأول: توفي النفوس حال النوم.

وتتوفي به كل من النفس الإنسانية العقلية والحيوانية، فتتوقفان عن العمل، ولا تبقى عند النوم إلا النفس النباتية؛ فتعمل حفاظاً على حياة الإنسان. ولذا لا يشعر النائم بالجوع أو العطش مثلاً؛ لأنّه يفقد شعوره وإحساسه بالنفس الإنسانية العقلية والنفس الحيوانية.

الثاني: توفي النفوس في الموت.

وفيه تتوقف جميع مراتب النفس، ويحدث انفصال تام بين الروح والبدن.

(١) نفحات الولاية، مكارم الشيرازي، ج ٩، ص ٤٣٠.

(٢) وقال الشيخ الشيرازي في نفحات القرآن، ج ٩، ص ٤٣٠: وطبعاً هناك بعض الأشخاص الذين يملكون نفساً رابعة أيضاً، وهي التي يطلق عليها بالنفس القدسية، وهذه تدرك الحقائق المجردة التي يعجز عن إدراكها الأفراد العاديون «أحياناً تطلق روح القدس على جبرئيل، وأحياناً أخرى على ملك أعظم منه» وقد ورد التعبير عنها في بعض الروايات (روح الإيمان) ولعل ذلك إشارة إلى هذه المرتبة العالية للنفس الإنسانية.

وجاء في حديث شريف عن النبي الأكرم ﷺ أنه قال: «إِذَا زَنَى الرَّجُلُ فَارَقَهُ رُوحُ الْإِيمَانِ» [الكافي، ج ٢، ص ٢٨٠، باب الكبائر، ح ١١]، إلا أن يتوب ويتحرك على مستوى جبران الخلل.

وجاء في بعض الروايات أن روح القدس أعلى مرتبة من روح الإيمان وقد جاءت الأرواح الخمسة فيها [انظر: الكافي، ج ٢، ص ٢٨٢، باب الكبائر، ح ١٦].

السؤال الرابع: ما هي أنواع الموت^(١)؟

ذكروا للموت عدة أنواع نذكر فقط اثنين منها للفائدة:

النوع الأول: موت البدن وموت القلب.

ما نعرفه من الموت الذي هو انفصال الروح المجردة عن الجسم المادي، هو موت البدن، الذي يؤدي إلى فسادهِ وتحولهِ إلى جيفة، وكثيراً ما ذكرته الروايات الشريفة، منها ما روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في خطبة رائعة له يصف فيها حالة الإنسان عندما يبدأ بالاحتضار حتى يموت، حيث تُشَلُّ يداهُ ورجلاه، وينعقدُ لسانه فيبقى يسمع بأذنيه ويرى بعينه، ثم ينغلق سمعه، ولا يبقى إلا نظره إلى أن يموت فيقول (عليه السلام):

«سُبْحَانَكَ خَالِقاً وَمَعْبُوداً، بِحُسْنِ بَلَاءِكَ عِنْدَ خَلْقِكَ خَلَقْتَ دَاراً، وَجَعَلْتَ فِيهَا مَأْدُبَةً، مَشْرَباً وَمَطْعَماً وَأَزْوَاجاً، وَخُدَمًا وَقُصُوراً، وَأَنْهَاراً وَزُرُوعاً وَثِمَاراً، ثُمَّ أَرْسَلْتَ دَاعِياً يَدْعُو إِلَيْهَا، فَلَا الدَّاعِيَ أَجَابُوا، وَلَا فِيهَا رَغَبْتَ رَغَبُوا، وَلَا إِلَى مَا شَوَّقْتَ إِلَيْهِ اشْتَأَفُوا، أَقْبَلُوا عَلَى جِيفَةٍ قَدْ افْتَضَّحُوا بِأَكْلِهَا، وَاضْطَلَحُوا عَلَى حُبِّهَا، وَمَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَغَشَى بَصَرَهُ، وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ، فَهُوَ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ، قَدْ خَرَقَتْ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ، وَأَمَاتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَهُ، وَوَلَهَتْ عَلَيْهَا نَفْسُهُ، فَهُوَ عَبْدٌ لَهَا، وَلَمِنْ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا، حَيْثُمَا زَالَتْ زَالَ إِلَيْهَا، وَحَيْثُمَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَ عَلَيْهَا، لَا يَنْزَجِرُ مِنَ اللَّهِ بِزَاجِرٍ، وَلَا يَتَعِظُ مِنْهُ بِوَاعِظٍ، وَهُوَ يَرَى الْمَأْخُودِينَ عَلَى الْغُرَّةِ، حَيْثُ لَا إِقَالَةَ وَلَا رَجْعَةَ، كَيْفَ نَزَلَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ، وَجَاءَهُمْ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا مَا كَانُوا يَأْمَنُونَ، وَقَدِمُوا مِنَ الْآخِرَةِ عَلَى مَا كَانُوا يُوعَدُونَ، فَغَيَّرَ مَوْصُوفٍ مَا نَزَلَ بِهِمْ، اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ، وَحَسْرَةُ الْقَوْتِ فَفَتَرَتْ لَهَا أَطْرَافُهُمْ، وَتَغَيَّرَتْ لَهَا أَلْوَانُهُمْ، ثُمَّ ارْزَادَ الْمَوْتَ فِيهِمْ وَلُوجاً، فَحِيلَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ مَنْطِقِهِ، وَإِنَّهُ لَبَيْنَ أَهْلِهِ يَنْظُرُ بِبَصَرِهِ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنِهِ

(١) وليس التوفي.

عَلَى صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ، وَبَقَاءٍ مِنْ لُبِّهِ، يُفَكِّرُ فِيهِ أَفْنَى عُمْرِهِ، وَفِيمَ أَذْهَبَ دَهْرِهِ، وَيَتَذَكَّرُ أَمْوَالًا جَمَعَهَا أَغْمَضَ فِي مَطَالِيقِهَا، وَأَخَذَهَا مِنْ مُصَرَّحَاتِهَا وَمُشْتَبِهَاتِهَا، قَدْ لَزِمَتْهُ تَبَعَاتُ جَمْعِهَا، وَأَشْرَفَ عَلَى فِرَاقِهَا، تَبَقَّى لِمَنْ وَرَاءَهُ يَنْعَمُونَ فِيهَا، وَيَتَمَتَّعُونَ بِهَا، فَيَكُونُ الْمَهْنَأُ لِعَظِيمِهِ وَالْعِبَاءُ عَلَى ظَهْرِهِ، وَالْمَرْءُ قَدْ غَلِقَتْ رُهُونُهُ بِهَا، فَهُوَ يَعْصُ يَدَهُ نَدَامَةً، عَلَى مَا أَصْحَرَ لَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنْ أَمْرِهِ، وَيَزْهَدُ فِيهَا كَانَ يَرْغَبُ فِيهِ أَيَّامَ عُمْرِهِ، وَيَتَمَنَّى أَنَّ الَّذِي كَانَ يَغْبِطُهُ بِهَا، وَيَحْسُدُهُ عَلَيْهَا قَدْ حَازَهَا دُونَهُ، فَلَمْ يَزَلِ الْمَوْتُ يُبَالِغُ فِي جَسَدِهِ، حَتَّى خَالَطَ لِسَانَهُ سَمْعُهُ، فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ لَا يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ، وَلَا يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ، يُرَدِّدُ طَرْفَهُ بِالنَّظَرِ فِي وُجُوهِهِمْ، يَرَى حَرَكَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلَا يَسْمَعُ رَجْعَ كَلَامِهِمْ، ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ التَّيَاطُّا بِهِ، فَقَبِضَ بَصَرَهُ كَمَا قَبِضَ سَمْعُهُ وَخَرَجَتِ الرُّوحُ مِنْ جَسَدِهِ، فَصَارَ حَيَافَةً بَيْنَ أَهْلِهِ، قَدْ أَوْحَشُوا مِنْ جَانِبِهِ، وَتَبَاعَدُوا مِنْ قُرْبِهِ، لَا يُسْعِدُ بَاكِيًا وَلَا يُحْيِي دَاعِيًا، ثُمَّ حَمَلُوهُ إِلَى حُطٍّ فِي الْأَرْضِ، فَأَسْلَمُوهُ فِيهِ إِلَى عَمَلِهِ، وَانْقَطَعُوا عَنْ زُورَتِهِ..»^(١)

فهذا هو البدن، كم يُتعب عليه، وتنفق الأموال لأجله، ما إن تخرج منه الروح حتى يُصبح جثة هامدة، يُحشى عليها من التعفن والتحلل إن تأخر دفنها، حتى يوضع عليه الثلج والعطر صيفاً كيلا تفوح رائحتها النتنة.

وهذا الموت الذي نعرفه ونخافه كثيراً.

ولكن في الحقيقة هناك نوع آخر من الموت هو أخطر وأعظم مصيبة من موت البدن، وهو ما تعبر عنه الروايات الشريفة بموت القلب.

وليس المقصود من القلب: ذلك العضو الصنوبري الموجود في القفص الصدري، فهذا إن مات يعني مات الإنسان موت البدن، وإنَّما المراد منه هو موت العقل والوجدان، يعني أن يصل العقل أو الوجدان أو الإدراك إلى مرحلة متدنية من التفكير والتعقل،

(١) نهج البلاغة تحقيق صبحي صالح ص ١٥٩ - ١٦١.

فكأنه يصير ميتاً من هذه الجهة.

وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا الأمر بتعابيرٍ مختلفة، منها قوله ﷺ: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمِّيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١).

إنَّ هؤلاء كالأَمْوات، فقلوبهم ميتة، وهم عميان، وإن كانوا يُبصرون، ولكن عموا عن طريق الحقِّ، فهم في عداد الموتى؛ لأنَّ لهم صفات الأموات، إن تكلمت معهم لا يسمعون فهم كالحجر.

وفي آيةٍ أخرى يقول الله ﷻ: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢).

فهذا الإنسان الجاهل كأنه ميتٌ، ولما أُعطي نور العلم فكأنه أُحيي وعاد إلى الحياة، فهناك أناسٌ أبدانهم لم تمت، ولكنهم في الحقيقة يتصرفون تصرف الموتى؛ فهم لا يفهمون ولا يسمعون الكلام.

فموت القلب هي حالة نفسية روحية يمرُّ بها الإنسان، رغم أنَّه لم يمت بدنه، وإنَّما يموت قلبه.

عجيب أمر هذا القلب، فمرةً يكون كما ما روي في الحديث القدسي: «لا يسعني أرضي ولا سمائي، ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن»^(٣).

ومرةً يصل إلى أن يكون كالحجارة بل أشد؛ لأنَّ هناك من الحجارة ما يتفجر منه

(١) سورة الروم: آية [٥٣، ٥٢]

(٢) سورة الأنعام: آية [١٢٢]

(٣) عوالي اللئالي لابن أبي جمهور الأحسائي (ج ٤ / ص ٧).

الأنهار، قال تعالى ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١)

من أسباب موت القلب:

لقد ذكرت الروايات عدة أسباب لموت القلب:

فمنها: عدم تغيير المنكر رغم القدرة عليه.

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «وَمِنْهُمْ تَارِكٌ لِإِنْكَارِ الْمُنْكَرِ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَيَدِهِ، فَذَلِكَ مَيِّتٌ الْأَحْيَاءِ»^(٢).

ومنها أربعة أمور جاءت في الحديث عن رسول الله الأعظم عليه السلام أنه قال: أربع يمتن القلب: الذنب على الذنب، وكثرة مناقشة النساء - يعني محادثتهن - وممارسة الأحمق تقول ويقول ولا يرجع إلى خير [أبدًا]، ومجالسة الموتى، ف قيل له: يا رسول الله عليه السلام وما الموتى؟ قال كل غني مترف^(٣).

فأما (الذنب على الذنب) فواضح، لما ورد في الروايات أن الإنسان إذا أذنب خرج في قلبه نكتة سوداء قد تطغى على القلب بتراكم الذنوب، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِذَا أَذْنَبَ الرَّجُلُ خَرَجَ فِي قَلْبِهِ نَكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، فَإِنْ تَابَ انْمَحَتْ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ، حَتَّى تَغْلِبَ عَلَى قَلْبِهِ فَلَا يَفْلَحُ بَعْدَهَا أَبَدًا»^(٤).

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «مَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا وَفِي قَلْبِهِ نَكْتَةٌ بَيْضَاءٌ، فَإِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا خَرَجَ فِي

(١) البقرة ٧٤.

(٢) نهج البلاغة تحقيق صبحي صالح ص ٥٤٢.

(٣) الخصال للشيخ الصدوق ص ٢٢٨ ح ٦٥.

(٤) الكافي ٢: ٢٧١ / باب الذنوب / ح ١٣.

النكتة نكتة سوداء، فإن تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتّى يُغطّي البياض، فإذا [ت]غطّي البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً، وهو قول الله ﷻ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] (١).

وأما (مناقشة النساء) فكثرة محادثتهن، فلعله باعتبار أنّ هناك غريزة ميلان كلا الجنسين إلى التحدث مع الجنس الآخر، وهذا التحدث إذا لم يكن ضمن الموازين الشرعية فإنّه يؤثر على القلب مباشرة ويؤميتها، فنفس المحادثة لا بأس بها، فقد كان هناك الكثير من النساء اللاتي يحضرن إلى الرسول ﷺ ويسألنه عن بعض المسائل الشرعية فيأمرها بما تفعله.

وفي زمننا الحاضر حيث شاع استخدام وسائل التواصل الاجتماعي، فقد كثرت الأسئلة التي ترد إلى الفقهاء حول التواصل بين الرجال والنساء عبرها فكان جواب الفقهاء: إذا كان في الكلام أمور محرمة كالمزاح والغزل فبلا شك هو من الحرام، أما إذا لم يكن فيه شيء من ذلك فلا إشكال فيه، إلا إذا احتمل الإنسان أو خاف من الانجرار إلى الوقوع في الحرام في حال استمراره بالكلام، فإنّ هذا الخوف نفسه كافٍ ليكون مانعاً له، فيحرم عليه استمرار التواصل مع الطرف الآخر.

وأما (الغني المترف) أي إذا كان الغني متعلقاً بالدنيا، فإنّ الجلوس معه سببٌ من أسباب موت القلب، فالمقصود هو نوع خاص من الأغنياء، لا كلّ غنيّ، فقد روي عن رسول الله ﷺ: «إياكم ومجالسة الموتى»، قيل: يا رسول الله، من الموتى؟ قال: «كلُّ غنيّ أطغاه غناه» (٢).

ومنها ثلاثة أمور رويت عن رسول الله الأعظم ﷺ: «ثلاثة مجالستهم تُميت القلب:

(١) الكافي ٢: ٢٧٣/ باب الذنوب/ ح ٢٠.

(٢) تنبيه الخواطر للشيخ ورام (ج ٢/ ص ٣٢).

مجالسة الأنذال، والحديث مع النساء، ومجالسة الأغنياء»^(١).

وعنه عليه السلام - في مواعظه لأبي ذر - : «إِيَّاكَ وَكَثْرَةُ الضَّحْكَ، فَإِنَّهُ يَمِيتُ الْقَلْبَ»^(٢).

وقال الإمام علي عليه السلام : «مَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ، وَمَنْ مَاتَ قَلْبُهُ دَخَلَ النَّارَ»^(٣).

هذا وقد ورد في الآيات والروايات عناوين لميتي القلب، ومنها التالي:

١/ الكفار، قال عليه السلام : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾^(٤).

٢/ الجهال، عن أمير المؤمنين عليه السلام يقول : «مَنْ اسْتَحْكَمَتْ لِي فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ احْتَمَلْتُهُ عَلَيْهَا، وَاعْتَزَرْتُ فَقَدْ مَا سِوَاهَا، وَلَا أَعْتَزِرُ فَقَدْ عَقِلَ وَلَا دِينَ، لِأَنَّ مُفَارَقَةَ الدِّينِ مُفَارَقَةُ الْأَمْنِ، فَلَا يَتَهَنَأُ بِحَيَاةٍ مَعَ مَخَافَةٍ، وَفَقْدُ الْعَقْلِ فَقْدُ الْحَيَاةِ، وَلَا يُقَاسُ إِلَّا بِالْأَمْوَاتِ»^(٥).

٣/ الأذلاء، من يقبل أن يعيش ذليلاً، عن أمير المؤمنين عليه السلام : «فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ، وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ»^(٦).

النوع الثاني : موت الفرد وموت المجتمع.

من الواضح جداً كيفية موت الإنسان الفرد، فهو يبدأ من الضعف، ثم تأخذ خلاياه تبني أكثر مما تهدم، وتقوى شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى مرحلة يتساوى فيها الهدم

(١) الخصال للشيخ الصدوق (ص ٨٧).

(٢) (١) الخصال للصدوق: ٥٢٦ / ح ١٣.

(٣) (١) نهج البلاغة: ٥٣٦ / ح ٣٤٩.

(٤) سورة فاطر: آية [٢٢]

(٥) الكافي للكليني ج ١ ص ٢٧ كِتَابُ الْعَقْلِ وَالْجَهْلِ ح ٣٠.

(٦) نهج البلاغة تحقيق صبحي صالح ص ٨٩.

والبناء، ثم بعد ذلك يبدأ بالنزول تدريجيًا، فيكون الهدم أكثر من البناء حتى يموت. ونفس هذه المراحل تمرُّ بها الحضارات والأمم؛ حيث يقول علماء الاجتماع: إنّ المجتمعات والحضارات تمرُّ بنفس فترات النمو للإنسان، مرحلة الطفولة ثم الشباب والقوة ثم الشيخوخة إلى أن يصل المجتمع والحضارة إلى فترة يموت فيها فيندثر المجتمع والحضارة. وكم من الحضارات التي قويت ثم ماتت.

قال الله ﷻ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(١).

المحور الثالث: البرزخ

وهنا نقاط توضيحية:

الأولى: البرزخ في اللغة:

هو الفاصل بين شيئين، والمقصود منه هنا في علم الكلام: هو الفاصل بين عالم الدنيا وعالم الآخرة، وعبر البعض عنه بأنّه الفاصلة بين عالم الدنيا وإلى ما بعد نفخة الصور الثانية؛ لوجود نفختين. حيث إنّ النفخة الأولى يموت بها كل الناس، والثانية يبعث بها كل الناس.

الثانية: البرزخ غير معلوم الفترة الزمنية:

أيّ ليس لدينا أية معلومات تدلُّنا على المدة الزمنية للبرزخ، ومتى سينتهي، وكم سيدوم، وكل ما هو معلوم أنّه ينتهي يوم القيامة، فعالم الآخرة هو الغاية التي ينتهي عندها البرزخ، وحيث إنّ اللحظة التي تقوم فيها القيامة مجهولة لدينا، فمنهاية البرزخ أيضًا مجهولة لدينا؛ لأنّ نهاية البرزخ هي بداية القيامة.

(١) سورة الأعراف: آية [٣٤]

الثالثة: من عالم البرزخ تحصل الرجعة:

تقدّم في بحث الرجعة أنها تعني رجوع بعض الناس إلى عالم الدنيا من القبر، والقبر هو البرزخ، ورجوعهم لحكمة عند الله ﷻ، فمن البرزخ تحصل الرجعة.

الرابعة: لماذا يطلب بعض الناس أن يرجعوا إلى الدنيا؟

يذكر القرآن الكريم في عدة آيات، أنّ الإنسان عندما يدخل عالم البرزخ، فإنّه يتمنى أن يرجع إلى الدنيا، ويطلب من الله ﷻ ذلك، ومنها هذان الموردان:

الأول: قال ﷻ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾^(١).

في هذه الآية ينقل القرآن الكريم أنّ الإنسان عندما يأتيه الموت ويدخل عالم البرزخ، يطلب من ربه ﷻ ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾، وكأنّه لو سأله الله ﷻ: لماذا تريد أن ترجع إلى الدنيا؟ فيجيبه: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾.

فهو يريد الرجوع لعله يعمل صالحاً فيما ترك من عمره، وفي هذا تنبيه لنا أنّ نستثمر هذه الساعات القليلة التي نعيشها في هذه الحياة، والتي لا نعلم متى ستنتهي وأين وكيف، فنحن - وللأسف - تشغلنا في بعض الأحيان الدنيا كثيراً، فتناسى أننا في سير مستمر نحو الموت، فنحن في كلّ خطوة بل في كلّ نفسٍ نحثُ الخطى إلى الموت.

هذه الأنفاس التي نتنفسها هي طريقنا نحو الموت والقبر، فقد تأتينا لحظة الموت ونحن في غفلة، وعندئذٍ ينتبه ذلك الإنسان إلى ما ضيّع من ساعات عمره، فيطلب من ربه أن يرجع لعله يعمل صالحاً، فيأتيه الجواب: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ

(١) سورة المؤمنون: آية [٩٨، ٩٧، ١٠٠، ٩٩]

بَرَزَخَ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١﴾.

الثاني: قال ﷺ: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾^(١).

القرآن الكريم يأمرنا أَنْ نُنفِقَ مما رزقنا ﷺ قبل أَنْ يَأْتِيَ الموت، لئلا تضيع هذه الفرصة العظيمة من يدي الإنسان، فإذا جاءه الموت تحسّر عليها سائلاً الله ﷻ أَنْ يُمهله قليلاً ليرجع إلى الدنيا؛ لأجل أَنْ يتصدق.

ففي الآية الأولى يريد أَنْ يرجع ليعمل صالحاً، أما في الآية الثانية فيطلب من الله ﷻ أَنْ يُمهله قليلاً، وقد حدد الهدف من ذلك، وهو التصديق.

وهذا إِنْ دَلَّ على شيءٍ فَإِنَّمَا يَدُلُّ على ما للصدقة من عظيم الأثر وبالع الأهمية للإنسان في حياة البرزخ، بل حتى لو كان من المتصدقين، فإنه يندم أيضاً ويتمنى لو كان متصديقاً بأكثر مما تصدق به.

ولا نجد هذا المعنى مقتصرًا على الآيات الكريمة، فهناك روايات شريفة تشير إليه أيضاً، منها ما ورد عن رسول الله الأعظم ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِئَ عَنْ أَهْلِهَا حَرَّ الْقُبُورِ وَإِنَّمَا يَسْتَظِلُّ الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ»^(٢).

وعلاوةً على الصدقة، فإنَّ الآية تشير إلى أمرٍ ثانٍ، وهو ﴿وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾، مما يعني أَنَّ الصدقة سببٌ من الأسباب التي تؤدي إلى أَنْ يكون الإنسان من الصالحين، فهي إحدى الطرق للتدرج في طريق التكامل.

(١) سورة المنافقون: آية [١٠]

(٢) كنز العمال للمتقي الهندي ج ٦ ص ٣٤٨ ح ١٥٩٩٦.

الخامسة: البرزخ عالم تكامل.

صحيحٌ أنَّ الدنيا عالم العمل، وأنَّ الآخرة عالم الجزاء، إلا أنَّ للإنسان فرصة أخرى للتكامل بعد انتقاله من عالم الدنيا، وتلك الفرصة هي في عالم البرزخ؛ فقد صرَّحت العديد من الروايات أنَّ الإنسان يستطيع أن يستفيد من بعض الأعمال الصالحة وهو في عالم البرزخ، نذكر منها التالي:

قال الرضا عليه السلام: «ما من عبد [مؤمن] زار قبر مؤمن فقرأ عنده ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ سبع مرَّاتٍ إِلَّا غفر الله له ولصاحب القبر». ^(١)

فبمنَّ الله ﷻ وكرمه يُمكن أن تُغفر ذنوب صاحب القبر بما يقرأه له المؤمن من القرآن الكريم، وهذا يعني أنه ازدادت درجته الكمالية وهو في عالم البرزخ.

وروي عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «مرَّ عيسى بن مريم عليه السلام بقبر يُعذَّب صاحبه، ثم مرَّ به من قابل فإذا هو لا يُعذَّب، فقال: يا ربِّ، مررت بهذا القبر عام أوَّل فكان يُعذَّب، ومررت به العام فإذا هو ليس يُعذَّب؟ فأوحى الله إليه أنَّه أدرك له ولد صالح فأصلح طريقاً وآوى يتيماً، فلهذا غفرت له بما فعل ابنه...» ^(٢).

وهذا المعنى مطابق لما روي عن النبي ﷺ أنَّه قال: «إذا مات المؤمن انقطع عمله إِلَّا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له» ^(٣).

فعن أبي عبد الله عليه السلام أنَّه قال: «ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إِلَّا ثلاث خصال: صدقة أجراها في حياته فهي تجري بعد موته، وسنة هدى سنّها فهي يُعمل بها

(١) من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق (ج ١ / ص ١٨١ / ح ٥٤١).

(٢) الكافي للكليني ٦: ٣ و ٤ / باب فضل الولد / ح ١٢.

(٣) عوالي اللئالي لابن أبي جمهور الأحسائي (ج ٢ / ص ٥٣ / ح ١٣٩)؛ وبحار الأنوار للعلامة المجلسي (ج ٢ / ص ٢٢).

بعد موته، أو ولد صالح يدعو له»^(١).

وعن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «سِتَّةٌ تلحق المؤمن بعد وفاته: ولدٌ يستغفر له، ومصحفٌ يُخلِّفه، وعرسٌ يغرسه، وقلبٌ يحفره»^(٢)، وصدقةٌ يُجريها، وسُنَّةٌ يُؤخذ بها من بعده»^(٣).

ومن الجدير بالذكر: أنَّ على الإنسان أن لا يتكل على هذه الأعمال، بل عليه أن يعمل بجِدٍّ، فما دام هو على قيد الحياة، فهو يسيرُ في طريق التكامل ويعملُ الكثير من الأعمال الصالحة.

استطراد: منافذ تكامل الإنسان.

لتكامل الإنسان عدة منافذ وطرق، ومنها:

١/ الملكات الأخلاقية الموجودة في النفس.

فإنَّ النفس كلما التزمت الملكات الأخلاقية الكمالية، كلما زاد رقي الإنسان وتكامله، نحو (الصدق والصبر والإيمان واليقين والقناعة والرضا بما قسم الله ﷻ والتواضع والمروءة واللين). فالنفسُ إذا التزمت بهذه الملكات الأخلاقية تصفو، ثم تنهياً للحصول على فيضٍ إلهي، وتتصاعد في طريق التكامل الوجودي.

وأما إذا اتصفت بعكس هذه الصفات من (جزع، وشك، وطمع، واعتراض على الله ﷻ، وتكبر على الناس، وسهاجة بالأخلاق) فيتعكر صفاؤها، ثم قد يتوقف الإنسان عن التكامل، بل وربما يتسافل إلى أسفل السافلين والعياذ بالله.

(١) الكافي للشيخ الكليني (ج ٧ / ص ٥٦ / باب ما يلحق الميت بعد موته / ح ١).

(٢) القلب: البئر.

(٣) الكافي للشيخ الكليني (ج ٧ / ص ٥٦ / باب ما يلحق الميت بعد موته / ح ٥).

٢/ البلاء الدنيوي والعذاب البرزخي.

ففي الروايات الشريفة: إذا صبر الإنسان على ما يُصيبه من البلاء في الحياة الدنيا تُغفر سيئاته وتزيد حسناته ويتكامل بسبب هذا البلاء.

وكذا العذاب البرزخي، فهو أيضًا يساعد في رفع مُلوّثات النفس ويُطهرها من مُخلّفات الذنوب، فلو كان لبعض المؤمنين ذنوبٌ لم يمحوها البلاء الدنيوي، فإنَّ العذاب البرزخي كفيلٌ بتصفيته منها، ليصل يوم القيامة وهو خالٍ من الذنوب فيدخل الجنة بغير حساب.

٣/ أعمال الخير التي يقوم بها الإنسان.

وهذه الأعمال يكتب له أجرها وتبقى ثابتة عنده وإن كانت من نوع الأعمال التي يبقى أثرها إلى ما بعد الحياة فتنتفع به بعد موته، فيترقى في طريق التكامل وهو في قبره، كما تقدمت الروايات الدالة على ذلك.

السادسة: هل بإمكان الميت أن يزور أهله ويطلع عليهم؟

المتعارف عند الناس أن الميت يزور أهل بيته كلّ ليلة جمعة، فهل الروايات الشريفة أشارت إلى ذلك؟

الجواب:

كلُّ شخصٍ له أعزاء فارقوا هذه الدنيا، وربما أحدها يتمنى أن يرى شخص أمّه الحبيبة أو أباه العزيز المتوفين بملء الدنيا ذهبًا، ليتحدث معه ويُرضيه، إذ لربما أغضبه في أحد الأيام أو عقّه، فيرغب في رؤيته ومصالحته والفوز برضاه.

هذا وتذكر الروايات الشريفة أنّ الأموات يأتون إلى بيوتهم، وينظرون إلى أهلهم، فيُسمح لأرواحهم أن ترى أعزاءهم، وعلينا أن نضع بالحسبان أنّ أعمالنا السيئة يطلع

عليها الأموات، وبالتالي سيتألمون إذا ما رأوا تلك الحقيقة؛ فعلينا أن نحسن التصرف وأن نكون على حالٍ جيِّدةٍ مع الله ﷻ لنحظى برضا الله ﷻ ونتخلص من العذاب الأخروي من جانبٍ، وندخل السرور على أهاليينا وهم في عالم البرزخ من جانبٍ آخر.

وقد أشارت الروايات الشريفة إلى هذه الحقيقة، وأن أرواح الأموات ترجع من عالم البرزخ إلى عالم الدنيا ويُسمح لها بزيارة الأهل، كما ذكرت الروايات أن هذه الزيارة تتكرر حسب العمل الصالح لذلك الميت، فربما تتكرر كل ليلة جمعة، وربما كل يومٍ، والبعض كل سنة، فكلٌّ حسب منزلته.

وقد ذكر الشيخ الكليني رحمه الله عدة روايات تدل على ذلك، ومنها ما عن أبي عبد الله ﷺ قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُزُورُ أَهْلَهُ فَيَرَى مَا يُحِبُّ وَيُسْتَرُّ عَنْهُ مَا يَكْرَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ لَيُزُورُ أَهْلَهُ فَيَرَى مَا يَكْرَهُ وَيُسْتَرُّ عَنْهُ مَا يُحِبُّ.

قال: وَمِنْهُمْ مَنْ يَزُورُ كُلَّ جُمُعَةٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزُورُ عَلَى قَدْرِ عَمَلِهِ»^(١).

وعنه ﷺ قال: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ وَلَا كَافِرٍ إِلَّا وَهُوَ يَأْتِي أَهْلَهُ عِنْدَ زَوَالِ الشَّمْسِ، فَإِذَا رَأَى أَهْلَهُ يَعْمَلُونَ بِالصَّالِحَاتِ حَمْدَ اللَّهِ عَلَى ذَلِكَ، وَإِذَا رَأَى الْكَافِرُ أَهْلَهُ يَعْمَلُونَ بِالصَّالِحَاتِ كَانَتْ عَلَيْهِ حَسْرَةً»^(٢).

وعن إسحاق بن عمار عن أبي الحسن الأول [الكاظم] رحمه الله قال: «سَأَلْتُهُ عَنِ الْمَيِّتِ يَزُورُ أَهْلَهُ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقُلْتُ: فِي كَمْ يَزُورُ؟ قَالَ: فِي الْجُمُعَةِ، وَفِي الشَّهْرِ، وَفِي السَّنَةِ، عَلَى قَدْرِ مَنَزَلِهِ. فَقُلْتُ: فِي أَيِّ صُورَةٍ يَأْتِيهِمْ؟ قَالَ: فِي صُورَةِ طَائِرٍ لَطِيفٍ يَسْقُطُ عَلَى جُذُرِهِمْ، وَيُسْرِفُ عَلَيْهِمْ، فَإِنْ رَأَاهُمْ بِخَيْرٍ فَرِحَ، وَإِنْ رَأَاهُمْ بِشَرٍّ وَحَاجَةٍ حَزَنَ وَاعْتَمَ»^(٣).

(١) الكافي للكليني ج ٣ ص ٢٣٠ بَابُ أَنَّ الْمَيِّتَ يَزُورُ أَهْلَهُ ح ١.

(٢) الكافي للكليني ج ٣ ص ٢٣٠ بَابُ أَنَّ الْمَيِّتَ يَزُورُ أَهْلَهُ ح ٢.

(٣) الكافي للكليني ج ٣ ص ٢٣٠ بَابُ أَنَّ الْمَيِّتَ يَزُورُ أَهْلَهُ ح ٣.

وهنا سؤال:

ما مدى صحة ما يُقال من أن أرواح المؤمنين تكون في حوصلة طير؟ فهل هذا صحيحٌ وهل يُعقل هذا الأمر؟

في مقام الجواب نقول:

أولاً: الروايات الشريفة نفت هذا الأمر، وبيّنت أن المؤمن أكرم على الله ﷻ من أن يضعه في حوصلة طير، فعن أبي ولّاد الحنّاط عن أبي عبد الله ﷺ قال: قُلْتُ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، يَرَوُونَ أَنَّ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ فِي حَوَاصِلِ طُيُورٍ خُضِرَ حَوْلَ الْعَرْشِ؟ فَقَالَ ﷺ: «لَا، الْمُؤْمِنُ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَنْ يَجْعَلَ رُوحَهُ فِي حَوْصَلَةِ طَيْرٍ، وَلَكِنْ فِي أَبْدَانٍ كَأَبْدَانِهِمْ»^(١).

ولعل الإمام ﷺ يشير أن الروح تفارق الجسد كما تقدّم، وفي الآخرة ترجع إلى البدن، ولكن في عالم البرزخ هنالك بدنٌ مثالي تحلُّ فيه هذه الروح، شكله شكل هذا البدن، وله آثار هذا البدن، لكن ليس فيه مادة، أي إنه لا يُحس، وليس له جرم أو مادة أو ثقل، وإنّما شكله الظاهري فقط كشكل بدنه، أشبه بالصورة التي تكون في المرآة، بحيث لو رُفِعَ الحجاب لنا واطلعنا عليه لرأينا أنه نفس شكل الجسم المادي ولكن ليس له مادة. ولذا عبّر الإمام ﷺ عنه بـ «أبدان كأبدانهم».

ثانياً: ورد في بعض الروايات الشريفة ومنها الرواية المذكورة عن إسحاق بن عمار، فقد أردف إسحاق وسأل الإمام ﷺ فقال: «وفي أيِّ صورة يأتهم؟

فقال ﷺ: فِي صُورَةِ طَائِرٍ لَطِيفٍ يَسْقُطُ عَلَى جُدْرِهِمْ، وَيُشْرِفُ عَلَيْهِمْ، فَإِنْ رَأَوْهُمْ بِخَيْرٍ فَرِحَ، وَإِنْ رَأَوْهُمْ بِشَرٍّ وَحَاجَةٍ حَزَنَ وَاعْتَمَ»^(٢).

(١) الكافي للكليني ج ٣ ص ٢٤٤ بَابٌ آخَرُ فِي أَرْوَاحِ الْمُؤْمِنِينَ ح ١.

(٢) الكافي للكليني ج ٣ ص ٢٣٠ بَابٌ أَنَّ الْمَيِّتَ يَزُورُ أَهْلَهُ ح ٣.

فهذه الرواية تصف الهيئة التي بها يزور الميت أهله، بأنّه يأتي في صورة طائر، وربما هذا الوصف من باب «كلموا الناس على قدر عقولهم»، أي ليس المراد من الطائر هو هذا الطائر المادي الدنيوي، وهذا ما قد أوضحته الرواية المذكورة عن أبي ولّاد.

فلربما المخاطب لم يكن ليفهم معنى الجسم المثالي وما شابه لو أنّ الإمام أخبره به، فعبر له ﷺ بقوله: «طائر لطيف». ولعل كلمة «لطيف» تحمل إشارة إلى الجسم المثالي الخالي من المادة، فصورته صورة طير أو صورة الجسم المادي، ولعله لأجل مثل هذه الرواية فهم البعض أنّ أرواح الموتى توضع في حوصلة الطير، ولكن الإمام ﷺ أوضح أنّ المؤمن أكرم من أن توضع روحه في حوصلة الطير.

والحاصل: أن روح المؤمن في جسم مثالي، عبرت عنه الرواية لتقريب الفكرة بطائر لطيف.

السابعة: معنى سؤال منكر ونكير.

ورد في الروايات الشريفة أنّ الميت يُسأل من منكر ونكير، فما معنى سؤال منكر ونكير؟

ورد في الروايات الشريفة أنّ القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران، وتحول القبر إلى أحدهما لا يأتي من فراغ، وإنّما على أساس نتيجة الحساب الذي يقوم به الملائكة في القبر.

وتذكر الروايات الشريفة أنّ الميت يُسأل عن العديد من الأمور، عن دينه، وعن ربه، وعن نبيه، وإمامه، وصلاته، وصومه وإلى آخره، فإن كانت أجوبته جيدة يتحول قبره إلى روضة من رياض الجنة، وإلا يكون حفرة من حفر النار. ولم تذكر الروايات مدة تلك الفترة التي يتحول بها القبر. وللبرزخ قوانينه، فقد يتحول القبر بمجرد نزول

المؤمن فيه ولا نلاحظ ذلك؛ لأننا قد حُجِبَ عنا ما يحدث للأموات.

إنَّ السؤال الذي سيُطرح من الملائكة في القبر سيكون عن أمورٍ واقعية، وكذلك الجواب، فليس هناك مجال للإخفاء والإنكار، فعلى الإنسان أن يُرتَّبَ أمره جيداً ويُتقن فهم عقيدته وبثبتها بحسن تطبيقها عن طريق الامتثال للأحكام الشرعية وحسن الخلق؛ ليكون مستعداً للسؤال والجواب في عالم البرزخ في القبر.

عن أبي عبد الله عليه السلام قَالَ: «مَا مِنْ مَوْضِعٍ قَبْرِ إِلَّا وَهُوَ يَنْطِقُ كُلَّ يَوْمٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: أَنَا بَيْتُ التُّرَابِ، أَنَا بَيْتُ الْبَلَاءِ، أَنَا بَيْتُ الدُّودِ.

قَالَ: فَإِذَا دَخَلَهُ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ قَالَ: مَرْحَباً وَأَهلاً، أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَحِبُّكَ وَأَنْتَ تَمْشِي عَلَى ظَهْرِي، فَكَيْفَ إِذَا دَخَلْتَ بَطْنِي، فَسَتَرَى ذَلِكَ. قَالَ: فَيُفْسَحُ لَهُ مَدَّ الْبَصَرِ وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ.

قَالَ: وَيَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ رَجُلٌ لَمْ تَرَ عَيْنَاهُ شَيْئاً قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ فَيَقُولُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، مَا رَأَيْتُ شَيْئاً قَطُّ أَحْسَنَ مِنْكَ. فَيَقُولُ: أَنَا رَأَيْتُكَ الْحَسَنُ الَّذِي كُنْتُ عَلَيْهِ، وَعَمَلُكَ الصَّالِحُ الَّذِي كُنْتُ تَعْمَلُهُ.

قَالَ: ثُمَّ تُوَخَّذُ رُوحُهُ فَتُوضَعُ فِي الْجَنَّةِ، حَيْثُ رَأَى مَنْزِلَهُ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمَّ قَرِيرَ الْعَيْنِ. فَلَا يَزَالُ نَفْحَةً مِنَ الْجَنَّةِ تُصِيبُ جَسَدَهُ يَجِدُ لَذَّتَهَا وَطِيبَهَا حَتَّى يُبْعَثَ.

قَالَ: وَإِذَا دَخَلَ الْكَافِرُ قَالَ: لَا مَرْحَباً بِكَ وَلَا أَهلاً، أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَبْغِضُكَ وَأَنْتَ تَمْشِي عَلَى ظَهْرِي، فَكَيْفَ إِذَا دَخَلْتَ بَطْنِي، سَتَرَى ذَلِكَ.

قَالَ: فَتَضُمُّ عَلَيْهِ فَتَجْعَلُهُ رَمِيماً وَيُعَادُ كَمَا كَانَ، وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ فَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، ثُمَّ قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهُ رَجُلٌ أَقْبَحُ مَنْ رَأَى قَطُّ، قَالَ: فَيَقُولُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، مَنْ أَنْتَ مَا رَأَيْتُ شَيْئاً أَقْبَحَ مِنْكَ! قَالَ: فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ السَّيِّئُ الَّذِي كُنْتُ تَعْمَلُهُ، وَرَأْيُكَ

الْحَبِيثُ. قَالَ: ثُمَّ تُوْخَذُ رُوحُهُ فُتَوْضَعُ حَيْثُ رَأَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، ثُمَّ لَمْ تَزَلْ نَفْحَةٌ مِنَ النَّارِ تُصِيبُ جَسَدَهُ فَيَحْدُ أَلَمَهَا وَحَرَّهَا فِي جَسَدِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُ، وَيُسَلِّطُ اللَّهُ عَلَى رُوحِهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ تَنِينَ تَنْهَشُهُ، لَيْسَ فِيهَا تَنِيٌّ يَنْفُخُ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ فَتَنْبِتَ شَيْئًا^(١).

وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: «إِنَّ لِلْقَبْرِ كَلَامًا فِي كُلِّ يَوْمٍ يَقُولُ: أَنَا بَيْتُ الْغُرْبَةِ أَنَا بَيْتُ الْوَحْشَةِ، أَنَا بَيْتُ الدُّودِ، أَنَا الْقَبْرُ، أَنَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ»^(٢).

(١) الكافي للكليني ج ٣ ص ٢٤١ و ٢٤٢ بَابُ مَا يَنْطِقُ بِهِ مَوْضِعُ الْقَبْرِ - ح ١.

(٢) الكافي للكليني ج ٣ ص ٢٤٢ بَابُ مَا يَنْطِقُ بِهِ مَوْضِعُ الْقَبْرِ - ح ٢.

العالم السادس: عالم القيامة (المعاد أو اليوم الآخر)

وهنا نذكر عدة نقاطٍ لتتضح الصورة:

النقطة الأولى: أسماء يوم القيامة.

لعالم القيامة أسماء عديدة، ذكرها العلماء، ومنهم من أحصاها في القرآن الكريم فكانت سبعين عنواناً.

ويعود سبب تعددها إلى أن كلَّ عنوانٍ منها يُشير إلى حقيقةٍ من حقائق ذلك العالم أو حدثٍ من أحداثه، أي لبيان الحيشات المختلفة والأحوال المتعددة التي يمرُّ بها الإنسان في ذلك العالم؛ لذا كان للتأمل فيها أثرٌ تربوي وعميق في النفس، ونذكر بعض الأمثلة لذلك:

الاسم الأول: يوم القيامة.

وهو من أشهر أسماء ذلك اليوم، وقد تكرر ذكره في القرآن الكريم سبعين مرةً حسب بعض الإحصاءات، ومنها قوله ﷺ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾^(١).

وقد رفع القرآن الكريم السر وراء تلك التسمية، ومن ذلك:

١/ أَنَّهُ الْيَوْمَ الَّذِي يَقُومُ فِيهِ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، قَالَ ﷺ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ

(١) سورة الأنبياء: آية [٤٧]

الْعَالَمِينَ ﴿١﴾، فلأنَّ الناس يقومون فيه لربِّ العالمين، سُمِّيَ بيوم القيامة.

٢/ أنه اليوم الذي يقوم فيه أشرف ملائكة الله (الروح) مع سائر الملائكة، قال الله ﷻ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (٢).

٣/ أنه اليوم الذي يقوم فيه الشهود للشهادة على أعمال الناس، قال ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (٣).

٤/ أنه اليوم الذي يقوم فيه الحساب، نسأل الله ﷻ أن يحاسبنا حساباً يسيراً، قال ﷻ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (٤).

٥/ أن الموتى يقومون من قبورهم ويرجعون إلى الله ﷻ.

الاسم الثاني: يوم الصاخة:

ورد في قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ. يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (٥).

والصاخة: كلمة مأخوذة من (صَخَّ)، وهو الصوت الشديد الذي يكاد يأخذ بسمع الإنسان، ولعلَّ فيه إشارة إلى نفخة الصور الثانية، وهي الصيحة الرهيبة التي تعيد الحياة إلى الموجودات بعد موتها جميعاً ليبدأ منها يوم المحشر.

وقد بيّن القرآن الكريم سبب تسمية هذا اليوم بهذا الاسم؛ وذلك أنه عندما يحدث

(١) سورة المطففين: آية [٦]

(٢) سورة النبأ: آية [٣٨]

(٣) سورة غافر: آية [٥١]

(٤) سورة إبراهيم: آية [٤١]

(٥) عبس (٣٣ - ٣٧)

هذا الصوت الشديد، فإن على أثره سيحدث فرار وحالة من الفزع والرعب، بحيث إنّ الإنسان يفر من أقرب الناس إليه!

الإنسان في الدنيا إذا ما أصابته ملامة، فإنه يلجأ إلى أخيه أو أمه وأبيه أو إلى زوجته وأولاده، وهو أمرٌ متعارف في الدنيا، ولكن في الآخرة وعندما تحدث الصاخة، فإن المرء سيهرب من أقرب الناس إليه.

وربما يتبادر إلى الذهن سؤال:

لماذا يفرُّ الإنسان يوم القيامة من أقرب الناس إليه؟

الجواب: هناك عدة أسباب لهذا الفرار، وكُلُّها مستوحاة من الآيات والروايات الشريفة، ومنها:

السبب الأول: إنّ وحشة ورهبة يوم القيامة لا تُنسي الإنسان علاقته بأخيه وأمه وأبيه وزوجته وأولاده فحسب، فهو ليس مجرد نسيان، وإنّما يتعدى إلى الفرار منهم، وستنقطع كل العلاقات والروابط، فهي وحشة ورهبة تجعل الإنسان -لا يأنس بل- يفرُّ من كلّ المقربين إليه، تلك الوحشة التي كانوا يستجير الأئمة عليهم السلام منها.

السبب الثاني: إنّما يفر المرء للتهرب من الحقوق التي عليه وهو عاجز عن أدائها، فلو استولى أخٌ على إرث أبيه وأخذ حقَّ إخوته ولم يستطيعوا أن يستردوه منه في الدنيا، ففي يوم القيامة يطالبونه به، فيهرب منهم، لأنه لا يستطيع وفاءهم حقهم، وكذا من استولى على مهر زوجته وحقوقها، وامثال هذه الحالات كثيرة لا تحصى.

فكلُّ ذي حقٍ سيطالب بحقه يوم القيامة ممن ظلمه؛ لذا سيهرب الظالم من المظلوم، والغاصب من المغصوب حقه، وهكذا.

السبب الثالث: إنّما يفرُّ المؤمنون خاصة من أقربائهم من غير المؤمنين، يعني الفرار

لا يكون من كل الناس، وإنّما من خصوص الأقارب غير المؤمنين خوفاً من العقاب الذي قد يصلهم من خلاهم، فالمؤمنون يهربون، رغم أنّ القرآن الكريم يقول ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾^(١)، ولكن ربما ينسون ذلك لشدة الخوف والهلع من أهوال يوم القيامة.^(٢)

ويذكر القرآن الكريم قاعدةً أساسيةً لسبب هذا الفرار، حاصلها: أنّ كلّ إنسانٍ سيكون مشغولاً بنفسه ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾^(٣).

عن رسول الله ﷺ، أنه قال له بعض أهله، يا رسول الله، هل يذكر الرجل يوم القيامة حميمه؟ فقال ﷺ: «ثلاثة مواطن لا يذكر أحد أحدا: عند الميزان حتى ينظر أينقل ميزانه أم يخف، وعند الصراط حتى ينظر أيجوزه أم لا، وعند الصحف حتى ينظر بيمينه يأخذ الصحف أم بشماله، فهذه ثلاثة مواطن لا يذكر فيها أحد حميمه ولا حبيبته ولا قريبه ولا صديقه ولا بنيه ولا والديه، وذلك قول الله تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾»^(٤).

(١) الأنعام: ١٦٤.

(٢) ننبه على أنه ليس من الصحيح تطبيق هذا المعنى في الدنيا، فيهرب المؤمن من هذا النوع من الأقارب المذنبين، بل عليه أن لا يقطع رحمه، وفي الوقت عينه أن يضع نصب عينه، وفق مبدأ «أمرنا رسول الله ﷺ أن نلقى أهل المعاصي بوجوه مكفّهرة» (الكافي ٥: ٥٩ / باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر / ح ١٠).

أما إذا أدرك عصر ظهور صاحب الزمان ﷺ فعليه أن يهرب من المذنبين حتى لو كانوا آباءه وإخوانه وما شاكل ذلك، كما عليه أن لا يعترض على حكم الإمام المهدي ﷺ على المنحرفين وإن كانوا أقرب الناس إليه.

(٣) عبس: ٣٧.

(٤) البرهان في تفسير القرآن للسيد هاشم البحراني ج ٥ ص ٥٨٦ ح ١١٣٩٧ / [٣] عن (بستان الواعظين).

الاسم الثالث: يوم الفصل:

قال ﷺ: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ كَانَ مِيقَاتًا. يَوْمٌ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾^(١).

الفصل: هو أن تفصل شيئاً عن شيء آخر، وهذا معناه واضح، ولكن ما هو الشيء الذي سيتم فصله وعزله في ذلك اليوم؟

إنَّ في ذلك اليوم -حسب الآيات المباركة والروايات الشريفة- سيحصل فصلٌ بين عدة أمورٍ، نذكر منها التالي:

١/ لأنه يومُ فصلِ الحق عن الباطل.

في الحياة الدنيا تتوالى الفتن على المؤمنين حتى تجعل الحكيم حيراناً، فيشتبه الحق بالباطل، والبعض يجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً، أما في يوم القيامة فالحق واضح لا لبس فيه ولا اشتباه مطلقاً، وكذا الباطل واضح، ولا يختلطان معاً.

٢/ لأنه يوم فصل المؤمنين الصالحين عن المجرمين.

ففي الدنيا قد يتأذى المؤمن من جارٍ فاجر، أو يتأذى الرجل أو المرأة من شريكٍ غير صالح ويكون مجبراً على البقاء معه ومجالسته وتحمل أذاه، وهكذا... لكن يوم القيامة يجمع الله ﷻ الصالحين قرب الصالحين، والفاجرين قرب الفاجرين، ويفصل بين الصالحين والفاجرين، قال ﷺ: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾^(٢).

﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني بين المؤمنين والكافرين، وهذا الباب الذي بينهم له خصيصة، وهو أنه في باطنه الرحمة، أي وكأنه من الداخل هناك مدينة فيها بساتين

(١) سورة النبأ: آية [١٧ و ١٨]

(٢) سورة الحديد: آية [١٣ و ١٤]

وأشجار وأنهار، ومن خارجه شتى ألوان العذاب، فإنّ ظاهر هذا الباب هو العذاب وهو للمنافقين والكافرين.

ومن البديهي أنّ هذا الفصل غير متحقق في الدنيا، فقد يكون المؤمنون والكافرون متجاورين في الدنيا، ولكن يوم القيامة يفصل بينهم بحاجزٍ عظيم، وهذا الحاجز هو تجسم للاعتقادات والأعمال المختلفة، فإن كانت صالحةً تتجلى للمؤمنين براحةٍ نفسيةٍ لهم وأما الأعمال الطالحة للكافرين فتتجلى بعذابٍ لهم.

وهناك خصوصية أخرى لهذا الباب، وهو أنه لا يمنع الصوت؛ لذا ففي الآية التي تليها ينادي الكافرون المؤمنين ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ فيجيبهم المؤمنون قالوا: بلى ولكن فصلنا عنكم بسبب الخطايا والذنوب التي ارتكبتموها، والتي أبعدتنا وفصلتنا عنكم...

٣/ لآته يوم فصل الإنسان عن كل ما يتعلق به من الأحبة والأموال.

ففي يوم القيامة يُفصل الإنسان عن والديه وعن أولاده وعن أخوته، ويُفصل أيضاً عن أمواله، ولا يكون معه سوى كتاب أعماله التي عملها في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا* وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا* وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا*﴾ (١).

وقد نبّه الله ﷻ على ذلك بقوله: ﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢).

فلن تنفعهم الأرحام حينئذٍ وإنما يفصل فيما بينهم، ولا تجمعهم إلا رابطة واحدة

(١) الكهف: ٤٧ - ٤٩.

(٢) سورة الممتحنة: آية [٣]

وهي رابطة الإيمان.

ملاحظة:

إنَّ العلماء يذكرون -تبعاً لبعض الآيات والروايات- العديد من العلامات والأحداث لاقترب الساعة والنفخ في الصور والنشر وماهية الصور وعدد النفخات وما شابه ذلك، وهي مسائل تُترك لمراحل أعلى؛ لأن البحث فيها طويل الذيل، وإنَّما تطرقنا إلى تعدد أسماء ذلك اليوم لنأخذ منها العظة وما نستفيد منه في حياتنا اليومية، وكيف نقي أنفسنا ونستعد لأحوال هذا اليوم.

النقطة الثانية: الحساب.

إنَّ يوم القيامة هو اليوم الذي ستتمُّ فيه محاسبة جميع الناس على كلِّ ما صدر منهم من أعمالٍ وأقوالٍ، فهو يومٌ يوضع فيه كتابٌ لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاَّ أحصاها، وسيجدُ الجميع أعمالهم حاضرةً لديهم، فلا مجال للإنكار ولا مجال للظلم فيه، ويمكننا التعرف على كيفية الحساب وأهم المسائل المتعلقة فيه عبر التالي:

أولاً: مسائل حسابها دقيق.

ما من شيءٍ أنَّ الإنسان سيُحاسب على كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، إلاَّ أنَّ هناك مسائل مهمة سوف يحاسب عليها الإنسان حساباً دقيقاً، لذا علينا أن نهتم بها كثيراً، وهذا لا يعني أن نهمل ما عداها، ولكن الروايات الشريفة أكدت وركزت عليها، وقد يكون ذلك للآثار المهمة المترتبة عليها. وسنذكر تلك الأمور وفقاً لما نصت عليه الروايات الشريفة وهي كالتالي:

١/ ما ورد عن الرسول الأعظم ﷺ أنه قال: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتَّى يُسئل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، و[عن] شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه

وفيا أنفقه، وعن حبنا أهل البيت»^(١).

وهذا الأربعة سيكون الحساب فيها دقيقاً.

والملاحظ أن الرسول ﷺ فصل الشباب عن العمر رغم أن الشباب جزء من العمر، ولعله لأجل أنه مرحلة خطيرة جداً من جهة، وحسابها يختلف لما يتميز به من قوة و طاقة متفجرة من الممكن أن تُستثمر في منفعة الإنسانية ونفسه من جهة أخرى. وليس المراد هنا فقط في الأمور العبادية، بل في كل المجالات التي فيها جهة إيجابية، فيجب على الشاب أن لا يستغل هذه الطاقة في ما لا يرضي الله ﷻ وفي هتك الأعراض والسرقة وغيرها من الأمور.

والسؤال الآخر سيكون عن الأموال، ليس فقط من أين جمعها، وإنما سيكون السؤال: أين أنفقها أيضاً، فالبعض يكتسب المال من حلال ولكنه ينفقه في الحرام، والبعض يكسبه من حرام وينفقه في الحلال، وكلاهما غير مقبول، هذا فضلاً عما يكسبه من الحرام وينفقه بالحرام. لذا يجب أن يُكتسب المال من الحلال وينفق بالحلال أيضاً، فالمؤمن محاسب على وارداته وصاداته، وهذا يعني أن المؤمن ليس حراً في تصرفاته بأمواله كيفما شاء، وإنما هو حر في صرفها ما دام الصرف حلالاً.

والسؤال الأخير عن حب أهل البيت ﷺ وهو أمر واضح جداً؛ لأنهم الثقل الأكبر الذي تركه الرسول ﷺ بين أظهرنا.

٢/ عن رسول الله ﷺ: «أنا أول قادم على الله تعالى، ثم يقدم على كتاب الله تعالى، ثم يقدم على أهل بيتي، ثم يقدم على أمتي، فيقفون فيسألهم: ما فعلتهم في كتابي وأهل بيت نبيكم»^(٢).

(١) الخصال للصدوق: ٢٥٣/ ح ١٢٥.

(٢) بصائر الدرجات للصفار ص ٤٣٢ باب (١٧) باب في قول رسول الله ﷺ «اني تارك فيكم الثقلين

٣/ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن أول ما يحاسب عليه العبد الصلاة، فإذا قبلت قبل سائر عمله، وإذا رُدَّت رُدَّ عليه سائر عمله».^(١)

سؤال وجوابه:

ربما يتبادر إلى الذهن سؤال مفاده: ذكرت الروايات أمورًا مختلفة يُسأل عنها العبد يوم القيامة ولا إشكال في ذلك، إنما الإشكال يرد في ذكرها لكلٍ من تلك الأمور على أنها أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة، فهل هناك تضاد بين هذه الروايات؟

الجواب: من الواضح أن لا تضاد، وإثبات الروايات الشريفة تريد أن تبين الأمور التي ستكون في أول قائمة الحساب وكأنها هي التي سيُسأل عنها في الجلسة الأولى للحساب وهي المتصدرة في قائمة الحساب.

ثانيًا: ما لا يُحاسب عليه الإنسان:

ورد في بعض الروايات الشريفة أن الله تعالى لا يحاسب الإنسان على بعض الأمور، وعند التأمل فيها نجد أنها تشترك في أن الله تعالى ألجأ الإنسان إليها، إذ جعلها من أساسيات نظام حياته، فهو يحتاج إليها ولا يستغني عنها، فليس من العدل ولا الكرم أن يُلجئ الله تعالى الإنسان إلى شيء ثم يُحاسبه عليه.

وهذا نظير السيارة، فهي لا يمكن أن تسير من دون وقود، فإذا نفذ وقودها فليس من العقل بشيء معاقبتها أو محاسبتها؛ لأنها لا تسير، أو لأنها احتاجت إلى الوقود، فلو كان لها ما تنطق به ل قالت: إن من صنعني صممني على أن أكون محتاجةً إلى هذا الوقود، فليس الذنب ذنبي.

كتاب الله وأهل بيته» - ح ١.

(١) الأصول الستة عشر - عدة محدثين - ص ١١٠.

- وتلك الأمور التي لا يحاسب عليها الإنسان هي كما ورد في الروايات الشريفة:
- ١- الطعام الذي يأكله، فالإنسان لا يستطيع أن يعيش من دون طعام؛ لذا لا يحاسبه الله ﷻ عليه يوم القيامة أو يسأله لم أكلت طعاماً مثلاً، إذا كان من حلال طبعاً.
 - ٢- الثوب الذي يلبسه الإنسان؛ لأن الله ﷻ أمرنا بالستر؛ لذا يجب التستر بلبس الثوب، فلا يحاسب الله ﷻ يوم القيامة على الثوب الذي يلبسه.
 - ٣- والبيت الذي يسكنه.
 - ٤- الزوجة التي يُحصن بها فرجه.
- وهذا يعني أن الله ﷻ لا يحاسب الإنسان على أصل الإلجاء إلى هذه الأمور، أي على الأكل والثوب والبيت الذي يلتجئ إليه، والزوجة التي يتخذها له
- فعن الإمام الباقر (عليه السلام): «ثلاث لا يُسئل عنها العبد: خرقه يوارى بها عورته، وكسرة يسدُّ بها جوعته، أو بيت يكنُّه من الحرِّ والبرد»^(١).
- وعن أبي عبد الله (عليه السلام)، قال: «ثلاثة أشياء لا يُحاسب عليهنَّ المؤمن: طعام يأكله، وثوب يلبسه، وزوجة صالحة تعاونه، ويحصن بها فرجه»^(٢).

فأصل الإلجاء لا يسأل الله ﷻ الإنسان عنه، ولكنه تعالى يمكن أن يُحاسبه على طريقة تحصيل هذه الأمور أو طريقة استعمالها، فيسأله: هل طريقة كسبك لهذا الطعام حلال أو حرام؟ فإن كان حراماً فله أن يعاقبه، وكذا عن طريقة استعمال هذا الأمر، فلا يجوز للإنسان أن يستخدم بيته في أمور محرمة، وهكذا، كما لا بُدَّ من مراعاة مقدار الحاجة فلا يُسرف الإنسان إسرافاً كبيراً ولا يُبذر تبذيراً فاحشاً، قال ﷺ: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ

(١) تفسير مجمع البيان للطبرسي ١٠: ٤٣٣.

(٢) الكافي للكليني ٦: ٢٨٠ / باب آخر في التقدير وأن الطعام لا حساب له / ح ٢.

تَبْذِيرًا. إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿١﴾

ثالثاً: مما يُهَوِّنُ الحساب.

من الأمور الوجدانية: أنَّ محاسبة الإنسان -ولو في الأمور الدنيوية- تستلزم نوعاً من الضغط النفسي والخوف من التقصير في العمل والخوف من نتائج الحساب وما شابه، فعندما يحاسب مدير العمل موظفيه، يولّد هذا الحساب ضغطاً نفسياً لدى الموظف؛ لذلك يلجأ الإنسان في الدنيا إلى بعض الأمور التي من شأنها أن تُخفف من وطأة الحساب أو تعفيه منه تماماً، كأن يوسّط بينه وبين المدير واسطة، أو يكمل عمله على أكمل وجه ليخفف الضغط النفسي.

فكيف إذا كان المحاسب هو الله ﷻ، وكان الحاكم هو الشاهد، والشاهد هو الحاكم؟! بل كيف إذا شهدت علينا جوارحنا والأرض التي نمشي عليها والزمان الذي كنا فيه؟!

كيف سيكون الضغط النفسي في وقت الحساب وعند دخولنا قاعة المحكمة؟! إنّه لموقفٌ عظيم؛ ولذلك ذكرت بعض الروايات الشريفة -من باب الرحمة والمنة والتخفيف على الإنسان- بعض الأمور التي تُهَوِّنُ من الحساب على الإنسان، فعلياً أن نلتزم بها ليخفف عنا الحساب يوم القيامة إن شاء الله ﷻ، وهي:

١/ صلة الرحم:

يقول الإمام الباقر (عليه السلام): «صلة الأرحام تُزَكِّي الأعمال، وتُنَمِّي الأموال، وتدفع البلوى، وتُسِّرُ الحساب، وتُنسِي في الأجل»^(٢).

(١) الإسراء ٢٦ و ٢٧.

(٢) الكافي ٢: ١٥٠ / باب صلة الرحم / ح ٤.

ويقول الإمام الصادق (عليه السلام): «إِنَّ صلة الرحم والبرَّ لِيُهَوِّنَا الحساب، ويعصمان من الذنوب، فِصَلُوا أَرْحَامَكُمْ، وَبَرُّوا بِإِخْوَانِكُمْ، وَلَوْ بِحَسَنِ السَّلَامِ وَرَدَّ الْجَوَابُ»^(١).
فإذا كان الإنسان وصولاً لرحمه، فإنه سيخفف عنه الحساب إن شاء الله تعالى.

٢/ القناعة:

عن الرسول ﷺ: «واقنع بما أُتيتَه، يخف عليك الحساب»^(٢).
وهذا يعني: أنه إذا صارت لديك قناعة بما يقسمه الله ﷻ لك، فإنه سيهون عليك الحساب.

٣/ التخفيف من التعلق بالدنيا:

عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: «...واعلم أن الخلاق لم يוכלوا بشيء أعظم من التقوى، فإنه وصيتنا أهل البيت، فإن استطعت أن لا تنال من الدنيا شيئاً تُسأل عنه غداً فافعل»^(٣).

يعني أن لك أن تأخذ من الدنيا، ولكن يجب أن يكون بالحلال، وأن لا تأخذ منها ما يُجرّجك عن دين الله ﷻ وعن التقوى.

٤/ حسن الخلق:

عن رسول الله ﷺ أنه قال: «...حَسَنُ خُلُقِكَ، يَخَفِّفُ اللَّهُ حِسَابَكَ..»^(٤)

(١) الكافي ٢: ١٥٧ / باب صلة الرحم / ح ٣١.

(٢) أعلام الدين في صفات المؤمنين للحسن بن محمد الديلمي ص ٣٤٤.

(٣) بحار الأنوار ج ٧٢ ص ٣٦٥.

(٤) الأمالي للشيخ الصدوق ص ٢٧٨ من حديث ٣٠٨ / ٩.

رابعاً: معنى: سوء الحساب.

ورد في بعض الآيات التعبير عن بعض مواقف الحساب (بسوء الحساب) مثل قوله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾^(١).

فما هو معنى سوء الحساب؟

قد يتصور البعض إلى أنّ الحساب نفسه سيء، ولكن ليس من المعقول ذلك إذا كان الحساب من الله تعالى؛ فإنه ﷻ الحاكم العدل الرحمن الرحيم، وهو من يحاسب الإنسان برحمته.

وإنّما معنى سوء الحساب هو الاستقصاء على كلّ صغيرة وكبيرة وعدم الغض والتهاون في الأمور الصغيرة، أي يكون الحساب دقيقاً جداً؛ فيوصف بأنّه حساب سيء؛ لما يشتمل عليه من الضغط النفسي، ولا شك أن الله تعالى لو حاسبنا بهذه الطريقة لضاعت علينا السبل ولم نجد منجىً منه سواه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾^(٣).

وهذا ما استفيد من بعض الروايات، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال لبعض شيعة: «ما بال أخيك يشكوك؟»، فقال: يشكوني أن استقصيت عليه حقّي؟! فجلس عليه السلام

(١) الرعد: ٢١.

(٢) النحل: ٦١.

(٣) فاطر: ٤٥.

مغضباً ثم قال: «كَأَنَّكَ إِذَا اسْتَقْصَيْتَ عَلَيْهِ حَقَّكَ لَمْ تَسْأَلْ! أَرَأَيْتَكَ مَا حَكَى اللَّهُ عَنْ قَوْمٍ يَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ، أَخَافُوا أَنْ يَجُورَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ؟! لَا، وَلَكِنْ خَافُوا الْإِسْتِقْصَاءَ، فَسَاءَ اللَّهُ سُوءَ الْحِسَابِ، فَمَنْ اسْتَقْصَى فَقَدْ أَسَاءَ»^(١).

خامساً: نتيجة الحساب

سينقسم الناس نتيجة الحساب الذي سيحاسب الله ﷻ به جميع البشر إلى قسمين، وهما أصحاب الجنة وأصحاب النار.

القسم الأول: أصحاب الجنة:

ونذكر هنا عدة نقاط:

النقطة الأولى: شروط دخول الجنة.

إن دخول الجنة ليس بالأمر المجاني، وإنما له شروط وواجبات لا بُدَّ من التزامها، ذكرتها الآيات والروايات المفسرة تفصيلاً، سنذكر منها اثنين ترغيباً للالتزام بها:

الأول: قوله ﷻ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾^(٢).

الآية واضحة في أنَّ الجنة تكون مأوًى لمن حقق في نفسه شرطين:

١/ الخوف من الله ﷻ.

٢/ السيطرة على النفس وكبح جماحها، وهو نتيجة حتمية للالتزام بالشرط الأول.

إنَّ أبغض إلِهٍ عُبِدَ على وجه الأرض هو ﴿الهُوَى﴾ وقد نهى الله تعالى عن اتباعه،

(١) تحف العقول لابن شعبة الحرّاني (ص ٣٧٢).

(٢) سورة النازعات: آية [٤١، ٤٠]

وحيث إنَّ من يخاف الله ﷻ فإنه ينتهي عن مناهيه، فهو يعمل على اجتنابه، والهوى -إنَّ صحَّ التعبير- مصدر المعاصي والدافع الأساسي إليها، وباجتنابه يكون الإنسان قد سيطر على نفسه وكبح جماحها مبتعداً عن جميع المعاصي.

بيان: معنى ﴿مَقَامَ رَبِّهِ﴾.

ذكرت الآية المباركة: ﴿مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾، ولم تقل: (خاف ربه)، وفيها دلالة عميقة ولطيفة في آنٍ واحد، وهي: أنَّ الإنسان لا يخاف من الله ﷻ؛ لأنه ﷻ خيرٌ محض، وكله رحمة ورأفة، فذات الله ﷻ لا يُخاف منها، وإنَّما الخوف هو من مقامه ﷻ.

ما المقصود من هذا المقام؟

دُكرت عدة آراء، ومنها:

١/ مواقف القيامة

يقف الإنسان يوم القيامة مواقفَ ومقاماتٍ بين يدي ربه تعالى للحساب، يتعرضُ فيها للضغط النفسي والخوف أيضاً، وعلى هذا يكون معنى ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أنَّ المؤمن يخاف مواقف يوم القيامة التي تُنسي الوالد ولده، وتبعث على الفرار من الأقربين، كما تقدّم ذكره في المباحث السابقة، حيثُ الكلُّ ينادي نفسي نفسي إلا رسول الله الأعظم ﷺ فإنه يقول: «ربي أمّتي أمّتي».

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال لأبي ذر: ولو كان لرجل عمل سبعين نبياً لاستقلَّ عمله من شدة ما يرى يومئذ، ولو أن دلوّاً صُبَّ من غسلين في مطلع الشمس لغلت منه جماجم من في مغربها، ولو أن زفرات جهنم زفرت لم يبق ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خرَّ جاثياً على ركبتيه، يقول: رب نفسي نفسي حتى ينسى إبراهيم

إسحاق عليه السلام يقول: يا رب أنا خليلك إبراهيم، لا تنسني.^(١)

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال النبي صلى الله عليه وآله: أَخْبَرَنِي الرُّوحُ الْأَمِينُ أَنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِذَا وَقَفَ الْخَلَائِقُ وَجَمَعَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، أُتِيَ بِجَهَنَّمَ تُقَادُ بِأَلْفِ زِمَامٍ، أَخَذَ بِكُلِّ زِمَامٍ مِائَةً أَلْفٍ مَلَكٍ مِنَ الْغَلَاطِ الشَّدَادِ، وَلَهَا هَدَّةٌ وَتَحْطُمُ^(٢) وَزَفِيرٌ وَشَهيقٌ، وَإِنَّمَا لَتَزْفِرُ الزَّفَرَةَ، فَلَوْ لَا أَنَّ اللَّهَ ﷻ أَخْرَجَهَا إِلَى الْحِسَابِ لَأَهْلَكَتِ الْجَمِيعَ، ثُمَّ يُخْرِجُ مِنْهَا عُنُقٌ يُحِيطُ بِالْخَلَائِقِ الْبَرِّ مِنْهُمْ وَالْفَاجِرِ، فَمَا خَلَقَ اللَّهُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِهِ مَلَكٌ وَلَا نَبِيٌّ إِلَّا وَيُنَادِي: يَا رَبِّ، نَفْسِي نَفْسِي. وَأَنْتَ تَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي.

ثُمَّ يُوَضَّعُ عَلَيْهَا صِرَاطٌ أَدْقُ مِنَ الشَّعْرِ وَأَحَدٌ مِنَ السِّنْفِ، عَلَيْهِ ثَلَاثُ قَنَاطِيرَ: الْأُولَى عَلَيْهَا الْأَمَانَةُ وَالرَّحْمَةُ، وَالثَّانِيَةُ عَلَيْهَا الصَّلَاةُ، وَالثَّالِثَةُ عَلَيْهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، فَيُكَلِّفُونَ الْمَمَرَّ عَلَيْهَا، فَتَحْسِبُهُمُ الرَّحْمَةُ وَالْأَمَانَةُ، فَإِنْ نَجَّوْا مِنْهَا حَبَسَتْهُمْ الصَّلَاةُ، فَإِنْ نَجَّوْا مِنْهَا كَانَ الْمُنتَهَى إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ جَلَّ ذِكْرُهُ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾^(٣) وَالنَّاسُ عَلَى الصِّرَاطِ، فَمُتَعَلِّقٌ نَزَلَ قَدَمُهُ وَتَثَبَّتْ قَدَمُهُ، وَالْمَلَائِكَةُ حَوْلَهَا يُنَادُونَ: يَا كَرِيمُ يَا حَلِيمُ، اغْفُ وَأَصْفَحْ وَعُدْ بِفَضْلِكَ وَسَلِّمْ. وَالنَّاسُ يَتَهَفَّتُونَ^(٤) فِيهَا كَالْفَرَاشِ، فَإِذَا نَجَا نَاجَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ (تَبَارَكَ وَتَعَالَى) نَظَرَ إِلَيْهَا فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكَ بَعْدَ يَأْسٍ بِفَضْلِهِ وَمَنْهُ، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ»^(٥).

٢/ علم الله ﷻ

(١) الأمالي للشيخ الطوسي ص ٥٣٣ من حديث رقم (١١٦٢ / ١)

(٢) الهدية: صوت وقع الحائط ونحوه والتحطم: التلطي، ويقال: تحطم الرجل غيظا أي تلطي. [هامش المصدر]

(٣) الفجر: ١٤. والمرصاد: الطريق والمكان يرصد فيه العدو. [هامش المصدر]

(٤) التهافت: التساقط قطعة قطعة. [هامش المصدر]

(٥) الكافي للكليني ج ٨ ص ٣١٢ و ٣١٣ ح ٤٦٨.

الله ﷻ مقام مراقبة الإنسان، قال ﷺ: ﴿أَقَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا اللَّهَ شُرَكَاءَ قُلُوبِهِمْ أَمْ تُنْبِئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾. (١)

فالله ﷻ يراقب كل نفس ويحصى عليها ما كسبت، فإذا عاش الإنسان الإحساس بأن الله ﷻ مطلع عليه ويحصى عليه أنفاسه، عندئذ سيؤدي به هذا العلم والشعور بالمراقبة الإلهية إلى أن ينهى النفس عن الهوى.

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ﷺ فِي قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ قَالَ: مَنْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ ﷻ يَرَاهُ وَيَسْمَعُ مَا يَقُولُهُ وَيَفْعَلُهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، فَيَحْجُزُهُ ذَلِكَ عَنِ الْقَبِيحِ مِنَ الْأَعْمَالِ، فَذَلِكَ الَّذِي ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾. (٢)

٣/ مقام العدالة الإلهية.

أي إن المؤمن يخاف مقام العدالة الإلهية، لا من الذات المقدسة؛ لأنها كلها رحمة، وإنما الخوف من عدل الله ﷻ؛ لأن الإنسان إذا نظر إلى أعماله وقاسها بعدله ﷻ، فسرى نفسه خاسراً لا محالة، فإنه ﷻ إذا أراد أن يحاسب الإنسان بعدله فإنَّ نعمة واحدة - نعمة البصر مثلاً - تذهب بكل أعماله الصالحة، إذ لا يبلغ الإنسان شكر الله ﷻ على هذه النعمة مهما أتى من عبادات ومهما قام به من طاعات وقربات، فكيف ونعمه فوق حدِّ الإحصاء، قال ﷺ: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾. (٣)

فلو كان كل الناس عمياناً لما تطوّرت الحياة، ولما كانت كل هذه الحضارة والتقدم والتكنولوجيا، فإنَّ هذه النعمة الواحدة (نعمة العين) تكفي أن تذهب جميع أعمال

(١) سورة الرعد: آية [٣٣]

(٢) الكافي للكليني ج ٢ ص ٨٠ بَابُ اجْتِنَابِ الْمَحَارِمِ ح ١.

(٣) إبراهيم ٣٤.

الإنسان الصالحة أمامها؛ لذلك نحن دائماً ندعو الله ﷻ أن يعاملنا بعطفه ورحمته وجوده ومنه؛ لأنه إذا عاملنا بعدله فنحن مقصرون لا محالة، وعاجزون عن شكر أصغر نعمه (تبارك وتعالى) علينا.

الثاني: ولاية أهل البيت ﷺ حسب حديث السلسلة الذهبية.

يبين هذا الحديث الشريف أن شرط دخول الجنة هي ولاية أهل البيت ﷺ، ونصه واضح جداً في هذا المعنى، إذ روي عن إسحاق بن راهويه قال: لما وافى أبو الحسن الرضا ﷺ نيسابور، فأراد أن يرحل منها إلى المأمون، اجتمع إليه أصحاب الحديث فقالوا له: يا بن رسول الله، ترحل عنا ولا تحدثنا بحديث نستفيد منه؟ وكان قد قعد في العمارة فاطلع رأسه وقال: «سمعت أبي موسى بن جعفر يقول: سمعت أبي جعفر بن محمد يقول: سمعت أبي محمد بن علي يقول: سمعت أبي علي بن الحسين يقول: سمعت أبي الحسين بن علي يقول: سمعت أبي علي بن أبي طالب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: سمعت جبرئيل يقول: سمعت الله ﷻ يقول: (لا إله إلا الله) حصني، فمن دخل حصني أمن من عذابي»، فلما مرت الراحلة نادى: «بشروطها وأنا من شروطها»^(١).

هذه الرواية تنقل حديثاً قدسياً عن الله ﷻ أن كلمة (لا إله إلا الله) هو حصن الله ﷻ ومن يدخل هذا الحصن يأمن من العذاب، ولكن نبه الإمام ﷺ أن لهذا الحصن شرطاً وهو: أن يتم التوحيد الذي هو حصن الله ﷻ من العذاب بالولاية لأهل البيت ﷺ.

وفي حديثٍ أصرح من هذا أيضاً، وهو حديثٌ قدسيٌّ، عن علي بن موسى الرضا ﷺ عن أبيه عن آبائه عن علي بن أبي طالب ﷺ عن النبي ﷺ عن جبرئيل عن ميكائيل عن إسرافيل عن اللوح عن القلم قال: «يقول الله ﷻ: ولاية علي بن أبي طالب حصني، فمن

(١) ثواب الأعمال للشيخ الصدوق ص ٧.

دخل حصني أمن من عذابي»^(١).

وبيان آخر:

إن ولاية أهل البيت عليهم السلام هي المنجية يوم القيامة، وهي شرط دخول الجنة، وبيان ذلك عبر عدة خطوات:

الخطوة الأولى: إن التوحيد يقود إلى الجنة.

لما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: والذي بعثني بالحق بشيراً، لا يعذب الله بالنار موحداً أبداً، وإن أهل التوحيد ليشفعون فيشفعون^(٢).

الخطوة الثانية: لهذا التوحيد شرط قبول، وهو الإخلاص.

أي إن هذا التوحيد الذي يُثمر دخول الجنة هو التوحيد المقترن بالإخلاص، وإلا، فمن دونه [الإخلاص] فالْمُؤْمِنُ من توحيدِه ناقصٌ وربما يقوده إلى النار؛ فعنه صلى الله عليه وآله: «إن (لا) إله إلا الله» كلمة عظيمة كريمة على الله صلى الله عليه وآله، من قالها مخلصاً استوجب الجنة، ومن قالها كاذباً عصمت ماله ودمه، وكان مصيره إلى النار»^(٣).

الخطوة الثالثة: كيف يتحقق الإخلاص بالتوحيد؟

بعد أن بينت الروايات أن شرط التوحيد بالإخلاص، صرّحت أن ذلك الإخلاص هو ولاية أهل البيت عليهم السلام، فمعنى الإخلاص هو ولاية أهل البيت عليهم السلام.

فعن أبي الصلت عبد السلام بن صالح الهروي، قال: كنت مع الرضا عليه السلام لما دخل نيسابور وهو راكب بغلة شهباء، وقد خرج علماء نيسابور في استقباله، فلما سار إلى المرتعة

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام للشيخ الصدوق ج ٢ ص ١٤٦ باب (٣٨) باب خبر نادر عن الرضا عليه السلام.

(٢) الأمالي للشيخ الصدوق ص ٣٧٢ ح ٤٦٩ / ١٠.

(٣) التوحيد للشيخ الصدوق ص ٢٣ ح ١٨.

تعلقوا بلجام بغلته، وقالوا: يا بن رسول الله، حدثنا بحق آبائك الطاهرين، حدثنا عن آبائك عليهم السلام، فأخرج رأسه من الهودج وعليه مطرف خز، فقال: «حدثني أبي موسى بن جعفر، عن أبيه جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن علي، عن أبيه علي بن الحسين، عن أبيه الحسين سيد شباب أهل الجنة، عن أبيه أمير المؤمنين عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: أخبرني جبرئيل الروح الأمين، عن الله (تقدس أسماؤه وجل وجهه) قال: إني أنا الله، لا إله إلا أنا وحدي عبادي فاعبدوني، وليعلم من لقيني منكم بشهادة أن لا إله إلا الله مخلصا بها، أنه قد دخل حصني، ومن دخل حصني أمن عذابي».

قالوا: يا بن رسول الله، وما إخلاص الشهادة لله؟ قال: «طاعة الله ورسوله، وولاية أهل بيته عليهم السلام»^(١).

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: «جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، هل للجنة من ثمن؟ قال: نعم. قال: ما ثمنها؟ قال: (لا إله إلا الله) يقو لها العبد الصالح مخلصا بها. قال: وما إخلاصها؟ قال: العمل بما بعثت به في حقه، وحب أهل بيتي. قال: وحب أهل بيتك لمن حقها؟ قال: أجل، إن جهم لأعظم حقها»^(٢).

وفي صحيحة أبان بن تغلب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: من شهد أن لا إله إلا الله فليدخل الجنة. قال: قلت: فعلى مَن تخاصم الناس إذا كان من شهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة؟! فقال: إنه إذا كان يوم القيامة نسوها»^(٣).

وفي صحيحته الثانية عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «يَا أَبَانُ، إِذَا قَدِمْتَ الْكُوفَةَ فَارْزُ هَذَا الْحَدِيثَ: مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ. قَالَ: قُلْتُ لَهُ: إِنَّهُ يَأْتِينِي مَنْ

(١) أمالي الشيخ الطوسي ص ٥٨٩ ح ١٢٢٠ / ٩.

(٢) أمالي الشيخ الطوسي ص ٥٨٣ ح ١٢٠٧ / ١٢.

(٣) المحاسن للبرقي ج ١ ص ١٨١ باب ٤٢ ح ١٧٣.

كُلِّ صِنْفٍ مِنَ الْأَصْنَافِ، أَفَأُزَوِّي لَهُمْ هَذَا الْحَدِيثَ؟! قَالَ: نَعَمْ يَا أَبَانُ، إِنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَجَّعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فَتُسَلَّبُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) مِنْهُمْ، إِلَّا مَنْ كَانَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ^(١).

النقطة الثانية: موانع دخول الجنة.

كما أن لدخول الجنة شروطاً ومقتضيات، كذلك هناك موانع تمنع من دخولها، وهي عبارة عن أعمالٍ وأقوالٍ من شأنها أن تكون مانعاً من دخول الجنة، مما يعني أنها من مقتضيات دخول جهنم نستجير بالله تعالى، والروايات كثيرة في هذا المجال، نذكر منها:

١/ الكبر.

روي عن رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة عبد في قلبه مثقال ذرة من خردل من كبر، ولا يدخل النار عبد في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»، قلت: جعلت فداك، إنَّ الرجل ليلبس الثوب ويركب الدابة، فيكاد يعرف من نفسه الكبر؟ قال: «ليس ذلك بكبر، إنَّما الكبر إنكار الحق، والإيمان إقرار بالحق»^(٢).

ولقد كان من أهم صفات رسول الله ﷺ أنه كان متواضعاً مع نفسه وأصحابه وحتى مع الأطفال، فقد كان يبدأهم بالسلام لتكون سنة من بعده ﷺ.

فقد روي عن رسول الله ﷺ: «خمس لا أدعهنَّ حتَّى الممات: الأكل على الحضيض مع العبيد، وركوبي الحمار مؤكفاً، وحلب العنز بيدي، ولبس الصوف، والتسليم على الصبيان، لتكون سنة من بعدي»^(٣).

(١) الكافي للكليني ج ٢ ص ٥٢١ بَابُ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصًا ح ١.

(٢) ثواب الأعمال: ٢٢١ و ٢٢٢.

(٣) الخصال للشيخ الصدوق: ص ٢٧١.

٢/ القول الفاحش وقلة الحياء.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الْجَنَّةَ عَلَى كُلِّ فَحَّاشٍ بِذِي قَلِيلٍ الْحَيَاءِ، لَا يُبَالِي مَا قَالَ وَلَا مَا قِيلَ لَهُ، فَإِنَّكَ إِنْ فَتَشْتَهُ لَمْ تَجِدْهُ إِلَّا لِعِيبَةٍ أَوْ شَرِكِ شَيْطَانٍ. فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَفِي النَّاسِ شَرِكُ شَيْطَانٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَا تَقْرَأُ قَوْلَ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾^(١)...»^(٢).

٣/ الديانة.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «حُرِّمَتِ الْجَنَّةُ عَلَى الدِّيْوثِ»^(٣).

٤/ عقوق الوالدين.

روي عن الرسول ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْجَنَّةُ حَرَامٌ عَلَى عَاقٍ وَالِدِيهِ»^(٤).

ولنضع في الحسبان أنه ورد أن من لم يبر والديه في حياتهما فليبرهما بعد مماتهما، فيدعو لهم ويعمل أعمال الخير لهم ويتصدق عنهم فيستدرك ما بدر منه عن عقوق والديه.

فعن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «إِنَّ الْعَبْدَ لِيَكُونَ بَارًّا بِوَالِدَيْهِ فِي حَيَاتِهِمَا، ثُمَّ يَمُوتَانِ فَلَا يَقْضِي عَنْهُمَا دِيُونَهُمَا، وَلَا يَسْتَغْفِرُ لَهُمَا، فَيَكْتَبُهُ اللَّهُ ﷻ عَاقًّا. وَإِنَّهُ لِيَكُونَ عَاقًّا لَهُمَا فِي حَيَاتِهِمَا غَيْرَ بَارٍّ بِهِمَا، فَإِذَا مَاتَا قَضَى دِيْنَهُمَا وَاسْتَغْفَرَ لَهُمَا، فَيَكْتَبُهُ اللَّهُ ﷻ بَارًّا»^(٥).

وقد روي عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَرَّ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ عليه السلام بِقَبْرِ يُعَذَّبُ صَاحِبُهُ،

(١) الإسراء: ٦٤.

(٢) الكافي للكليني ج ٢ ص ٣٢٣ و ٣٢٤ بَابُ الْبَدَاءِ ح ٣.

(٣) الكافي للكليني ج ٥ ص ٥٣٧ بَابُ الْغَيْرَةِ ح ٨.

(٤) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورام) ص ٤٣٧.

(٥) الكافي للكليني ٢: ١٦٣ / باب البر بالوالدين / ح ٢١.

ثم مرَّ به من قابل فإذا هو لا يُعَذَّب، فقال: يا ربِّ، مررت بهذا القبر عام أوَّل فكان يُعَذَّب، ومررت به العام فإذا هو ليس يُعَذَّب؟ فأوحى الله إليه أَنَّهُ أدرك له ولد صالح فأصلح طريقاً وآوى يتيماً، فلهذا غفرت له بما فعل ابنه...»^(١).

٥/النميمة.

روي عنه ﷺ: «لا يدخل الجنة قتات»^(٢).

والقتات هو النمام أو الذي يستمع للناس من دون أن يعلموا فينم عليهم.

٦/الجور.

روي عنه ﷺ أَنَّهُ قال: «إِيَّاكَ والجور؛ فَإِنَّ الجائر لا يريح رائحة الجنة»^(٣).

٧/الجحود بولاية أهل البيت عليهم السلام.

عنه ﷺ: «لما أسري بي إلى السماء أوحى إلي ربي جل جلاله فقال: يا محمد، إني أطلعت على الأرض إطلاعة فاخترتك منها فجعلتك نبيا وشققت لك من اسمي اسماً، فأنا المحمود وأنت محمد، ثم أطلعت الثانية فاخترت منها علياً، وجعلته وصيك وخليفتك وزوج ابنتك وأبا ذريتك، وشققت له اسماً من أسمائي، فأنا العلي الأعلى وهو علي، وخلقت فاطمة والحسن والحسين من نوركما، ثم عرضت ولايتهم على الملائكة، فمن قبلها كان عندي من المقربين، يا محمد لو أن عبداً عبدني حتى ينقطع وبصير كالشن

(١) الكافي للكليني ٦: ٣ و ٤/ باب فضل الولد/ ح ١٢.

(٢) الأمالي للشيخ الصدوق ص ٥١١ مناهي النبي ﷺ.

(٣) موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام للشيخ هادي النجفي ج ٢ ص ٤٣٧ ح [٢٣٥٠] ١٠ نقلاً عن الأمدي في غرره (ح ٢٦٧٠).

البالي^(١)، ثم أتاني جاحدا لولايتهم فما أسكنته جنتي ولا أظللته تحت عرشي...»^(٢).

٨/ الصلاة البتراء.

عن رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ ولم يصلّ على آلي، لم يجد ريح الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام»^(٣).

٩/ الشرك وإدمان الخمر.

روي عنه عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالى بنى الفردوس بيده، وحظره على كل مشرك وكل مدمن الخمر سكير»^(٤).

١٠/ الرد على الله ﷻ أو الإمام وحبس حق المؤمن.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: إنّ الله (تبارك وتعالى) آلى على نفسه أن لا يسكن جنته أصنافاً ثلاثة: رادّ على الله ﷻ أو رادّ على إمام هدى أو من حبس حق امرئ مؤمن»^(٥).

النقطة الثالثة: الجنة درجات.

مُخطئ من يظن أنّ الجنة درجة واحدة أو أنّ كلّ الذين يدخلون الجنة سيكونون بمكان واحد، فالجنة درجات ومراتب، ولا بُد للإنسان أن يسعى لأن يكون في المراتب العليا من الجنة وإلا ستصيبه الحسرة حينئذ.

(١) الشن البالي: الأسقية الخلقة التعبانة القديمة

(٢) كمال الدين وتمام النعمة للشيخ الصدوق ص ٢٥٢ ب ٢٣ ح ٢.

(٣) الأمالي للشيخ الصدوق ص ٢٦٧ ح ٢٩١ / ١٢.

(٤) شعب الإيمان للبيهقي ج ٥ ص ١١ ح ٥٥٩٠.

(٥) الخصال للشيخ الصدوق ص ١٥١ ح ١٨٥.

قال عز من قائل: (انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) ^(١)

وعن النبي الأكرم ﷺ أنه كان يقول: «ذر الناس يعملون، فإن الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة وأوسطها، وفوقها عرش الرحمن، ومنها تفجر أنهار الجنة، فإذا سألتهم الله تعالى فاسألوه الفردوس» ^(٢).
وفي رواية أخرى: «الجنة مائة درجة، لو أن العالمين اجتمعوا في إحداهن لو سعتهم» ^(٣).

بل ورد في بعض الروايات الشريفة أن الفردوس نفسها فيها درجات مختلفة، فقد ورد عن النبي الأكرم ﷺ: «... من صلى صلاة الفجر في جماعة ثم جلس يذكر الله ﷻ حتى تطلع الشمس، كان له في الفردوس سبعون درجة، بعد ما بين كل درجتين كحضر الفرس الجواد المضمّر سبعين سنة» ^(٤)، ومن صلى الظهر في جماعة كان له في جنات عدن خمسون درجة بعد ما بين كل درجتين كحضر الفرس الجواد خمسين سنة، ومن صلى العصر في جماعة كان له كأجر ثمانية من ولد إسماعيل كل منهم رب بيت يعتقدهم، ومن صلى المغرب في جماعة كان له كحجة مبرورة وعمرة مقبولة، ومن صلى العشاء في جماعة كان له كقيام ليلة القدر...» ^(٥).

وقد يسأل سائل: ما الذي يؤدي إلى تفاضل الناس بين هذه الدرجات؟

(١) الإسراء ٢١.

(٢) كنز العمال للمتقي الهندي ج ١٤ ص ٤٥٥ ح ٣٩٢٣٨.

(٣) كنز العمال للمتقي الهندي ج ١٤ ص ٤٥١ ح ٣٩٢٢٢.

(٤) الحضر: ارتفاع الفرس في عدوه، وضمرّ الفرس للسباق: ربطه وعلفه وسقاه كثيرا مدة، ثم يركضه في الميدان حتى يخف ويدق ويقل لحمه. [هامش المصدر]

(٥) الأمالي الشيخ الصدوق ص ١٢٣ - ١٢٤ ح ١١٣ / ١.

يمكن الجواب بالاستفادة من الروايات الشريفة إذ إنها تشير إلى أسباب ومنها:

١/ المعرفة.

فكلما ازدادت معرفة الإنسان، كلما ارتفعت درجته في الجنة؛ فطريق طلب العلم هو في الحقيقة ليس طريقاً لحصول الطالب على الدرجات العليا في الدنيا فحسب، بل غاية طالب العلم هو أن يرتفع قدره عند الله ﷻ، ومن ثم سيرتقي بدرجات عليا في الجنة.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنما يرتفع العباد غداً في الدرجات وينالون الزلفى من ربهم على قدر عقولهم»^(١).

٢/ العمل.

فكلما زاد عمل الإنسان كلما زادت درجته في الجنة، فقد ورد عن الرسول ﷺ: «أن رجلاً أدخل الجنة فرأى عبده فوق درجته فقال يا رب هذا عبدي فوق درجتي بالجنة؟ فيجيبه الله ﷻ: نعم، جزيته بعمله وجزيتك بعملك».

٣/ الدعاء والطلب من الله ﷻ

ورد في روايات أخرى بما مضمونها أن الدعاء والطلب من الله ﷻ يزيد من فرصة الحصول على الدرجات العليا في الجنة، فقد ورد أن اثنين يدخلان الجنة فيجد أحدهما صاحبه في درجة أعلى منه وهما لهما نفس العمل، فيسال الله ﷻ عن السبب فيقول الله ﷻ: هو دعائي وطلب مني وأنت لم تطلب، فيلزم أن ندعو الله ﷻ أن يرزقنا الدرجات العليا من فضله.

فقد روي عن رسول الله ﷺ: «يدخل الجنة رجلان، كانا يعملان عملاً واحداً،

(١) تحف العقول للحراني ص ٥٤.

فيرى أحدهما صاحبه فوقه فيقول: يا رب بما أعطيته وكان عملنا واحداً؟ فيقول الله تبارك وتعالى: سألني ولم تسألني. ثم قال ﷺ: أسألو الله واجزلوا فإنه لا يتعاضمه شيء»^(١).

سؤال:

لا شك أن أعظم الدرجات في الجنة يكون فيها النبي الأعظم ﷺ وأن الروايات الشريفة أشارت إلى ذلك، فما هي الأعمال التي يمكن أن تجعل المؤمن أقرب من منزلة رسول الله ﷺ في الجنة؟

ذكرت الروايات الشريفة بعض الأعمال التي تجعل المؤمن أقرب من منزلة رسول الله ﷺ في الجنة، نذكر منها:

١/ أن يكون المرء من شيعة أهل البيت عليهم السلام، فقد ورد أنه أخذ رسول الله ﷺ بيد الحسن والحسين فقال: «من أحب هذين الغلامين وأباهما وأمهما، فهو معي في درجتي يوم القيامة»^(٢).

٢/ أن يكفل يتيماً، ففي بعض الروايات عن رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا: وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما»^(٣).

٣/ بعض الأمور، فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «من قلَّ ماله، وكثر عياله، وحسنت صلاته، ولم يغتِبِ المسلمين، جاء يوم القيامة وهو معي كهاتين»^(٤).

٤/ ذكر مصاب أهل البيت عليهم السلام، روي عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: من تذكر

(١) عدة الداعي ونجاح الساعي لابن فهد الحلبي ص ٣٦.

(٢) كامل الزيارات لجعفر بن محمد بن قولويه ص ١١٧ باب ١٥ ح [١٢٨] ١٣.

(٣) الترغيب والترهيب من الحديث الشريف لعبد العظيم المنذري ج ٣ ص ٣٤٦ ح ٣٨٣١.

(٤) مجمع الزوائد للهيتمي ج ١٠ ص ٢٥٦.

مصائبنا وبكى لما ارتكب منا كان معنا في درجتنا يوم القيامة، ومن ذكر بمصائبنا فبكى وأبكى لم تبك عينه يوم تبكي العيون، ومن جلس مجلساً يحى فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب»^(١).

القسم الثاني: أصحاب النار.

بادئ ذي بدء لا بد أن نعلم أن الله ﷻ لم يكن ليخلق النار لو أن البشر جميعاً التزموا بأداء الواجبات واجتناب المحرمات، ولكن لأنهم ليسوا كذلك، كان من الضروري وضع حوافز لهم لدفعهم إلى ذلك، وهي الجنة، ولأنهم ليسوا جميعاً ممن يُجدي معه الترغيب بدخول الجنة نفعاً، اقتضت حكمة الله ﷻ خلق النار، وبذا كان هناك حافزان للالتزام عموم شرائع الله تعالى، وهما: الجنة والنار، وإلا فهناك صنفٌ من البشر - وهم الصفوة - لم تحملهم على التقوى جنة ولا نار، وإنما حملهم عليها إحساسهم العالي بجليل نعم الله ﷻ عليهم، ثم إحساسهم الكبير بوجوب شكره ﷻ، فيعبدونه لأجل ذلك حق عبادته. روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام): «إِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللَّهَ رَغْبَةً فَبَلَغَتْ عِبَادَةُ التُّجَّارِ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللَّهَ رَهْبَةً فَبَلَغَتْ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللَّهَ شُكْراً فَبَلَغَتْ عِبَادَةُ الْأَحْرَارِ»^(٢).

إذن، مما خلق الله ﷻ النار لأجله هو لتحفيز البشر على العبادة والالتزام، من خلال إخبارهم بأليم عذابها وعظيم عقابها لمن يعصي الله ﷻ ويخالف أوامره ونواهيه، وإلا لو علموا أنهم سيدخلون الجنة على أية حال، فمن البعيد -ربما- أن يلتزم عوام الناس بأوامر الله تعالى ونواهيه، ولكان ارتكاب المعاصي واقتراف الذنوب أمراً وارداً جداً، بل نحن نرى أن بعضاً ممن يؤمن بوجود الجنة ونعيمها، والنار وعذابها، ويعرف الأوامر

(١) الأمل للشيخ الصدوق ص ١٣١ ح ١١٩ / ٤.

(٢) نهج البلاغة حكمة رقم ٢٣٤

والنواهي، يرتكب المعاصي، فكيف لو لم تكن هناك جهنم ووعيدٌ بالعقاب؟! بل ربما يكون الاختبار حينئذٍ عبثاً؛ لانعدام الثمرة المترتبة عليه، خصوصاً وأنَّ الإنسان يميل عادةً إلى الانفلات وعدم الانضباط وينزع إلى التحرر من القواعد والقوانين، «بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ».^(١)

ومن هنا نفهم بعض الحكمة من خلق الجنة والنار.
وهنا نذكر عدة نقاط:

النقطة الأولى: الأسباب التي تؤدي إلى دخول جهنم.^(٢)

يمكن أن نستفيد من الروايات الشريفة أنَّ هناك العديد من الأسباب أو المقتضيات التي يسبب ارتكابها من قبل الإنسان دخوله النار، نذكر منها:

١/ الغفلة: فقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تكن غافلاً عن دينك، حريصاً على دنياك، مستكثرّاً مما لا يبقى عليك، مستقلاًّ مما يبقى لديك، فيوردك ذلك العذاب الشديد».^(٣)

٢/ الاستكبار: ورد عن النبي صلّى الله عليه وآله أنه قال: «لا يدخل الجنة أحد فيه مثقال حبة من خردل من كبر...».^(٤)

٣/ الكفر: وقد روي عن النبي صلّى الله عليه وآله: «إن الكافر ليلجمه العرق يوم القيامة، فيقول:

(١) القيامة ٥.

(٢) ذكر الشيخ محمد الريشهري (حفظه الله) في كتابه (الجنة والنار في الكتاب والسنة) أربعة وسبعين عنواناً من أسباب دخول النار والعياذ بالله.

(٣) عيون الحكم والمواعظ لليثي ص ٥٢٧ و ٥٢٨.

(٤) الأصول الستة عشر لعدة من المحدثين ص ٧٥.

أرحني ولو إلى النار»^(١).

٤/ الشرك: وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله عز وجل يحاسب كل خلق إلا من أشرك بالله، فإنه لا يحاسب يوم القيامة، ويؤمر به إلى النار»^(٢).

٥/ الارتداد: نذكر هنا بما حدث بعد رسول الله الأعظم ﷺ من ارتداد هذه الأمة على أدبارها وانقلابها على أعقابها، وبالرغم من ذلك لا زال البعض يؤمن بأن جميع الصحابة عدول!

فقد ورد في بعض الروايات، ومنها مروي في كتب العامة، أن رسول الله ﷺ يرى يوم القيامة من يحرم من أن يشرب من الحوض من الصحابة، عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال: قال النبي ﷺ: «إني فرطكم على الحوض من مر علي شرب ومن شرب لم يظماً أبداً».

ثم يكمل ﷺ: ليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم».

فقال أبو حازم: فسمعني النعمان بن أبي عياش فقال: هكذا سمعت من سهل؟ فقلت: نعم. فقال: أشهد على أبي سعيد الخدري لقد سمعته وهو يزيد فيها فيقول الرسول ﷺ: «فأقول إثم مني، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك؟ فأقول: سحقاً سحقاً لمن غير بعدي»^(٣).

٦/ الظلم: وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «الحمد لله الذي... جعل الجنة ثواب المتقين، والنار عقاب الظالمين»^(٤).

(١) مسند أبي يعلى لأبي يعلى الموصلي ج ٨ ص ٣٩٨.

(٢) عيون أخبار الرضا ﷺ للشيخ الصدوق ج ٢ ص ٣٧.

(٣) صحيح البخاري، ج ٢، ص ٨٣٤، ح ٢٢٣٨، وفي صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٨٠٠، ح ٣٨.

(٤) دلائل الإمامة للطبري الشيعي ص ٨٩ ح ٢٤ / ٢٤.

٧/ الركون إلى الظالم: بأن يكون الإنسان من أتباعه، كأن يتولاه أو يساعده أو يمدحه وما شابه، والأحاديث في هذا كثيرة جداً، نذكر ما روي عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾^(١) قَالَ: هُوَ الرَّجُلُ يَأْتِي السُّلْطَانَ فَيُحِبُّ بَقَاءَهُ إِلَى أَنْ يُدْخَلَ يَدَهُ إِلَى كَيْسِهِ فَيُعْطِيهِ^(٢).

فحتى هذه الفترة اليسيرة التي يحب فيها الإنسان بقاء الظالم، ينطبق عليه تفسير الآية الشريفة!

وقد ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام رواية عن صفوان الجمال الكوفي وهو من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام والإمام الكاظم عليه السلام، وهو رجلٌ صاحبٌ تقوى، وكانت معيشتُهُ تعتمد على إجارة إبله. يقول: دخلت على أبي الحسن الأول عليه السلام، فقال لي: «يا صفوان، كلُّ شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً»، قلت: جُعِلت فداك، أيُّ شيء؟ قال: «اكرأوك جمالك من هذا الرجل - يعني هارون -»، قلت: والله ما أكريته أشرأ ولا بطراً ولا لصيد ولا للهو، ولكنني أكريه لهذا الطريق - يعني طريق مكّة -، ولا أتولاه بنفسِي ولكن أنصب غلماي. فقال لي: «يا صفوان، أيقع كراؤك عليهم؟»، قلت: نعم جُعِلت فداك، قال: فقال لي: «أُحِبُّ بقاءهم حتّى يخرج كراؤك؟»، قلت: نعم، قال: «فمن أحبَّ بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم كان ورد النار».

قال صفوان: فذهبت وبعثت جمالي عن آخرها، فبلغ ذلك إلى هارون، فدعاني فقال لي: يا صفوان، بلغني أنّك بعت جمالك؟ قلت: نعم، فقال: لِمَ؟ قلت: أنا شيخ كبير وإنَّ الغلمان لا يفون بالأعمال. فقال: هيهات هيهات أني لأعلم من أشار عليك بهذا موسى بن جعفر، قلت: مالي ولموسى بن جعفر؟ فقال: دع هذا عنك، فوالله لولا حسن

(١) هود: ١١٣. والركون الميل والاعتماد.

(٢) الكافي للكليني ج ٥ ص ١٠٨ و ١٠٩ بَابُ عَمَلِ السُّلْطَانِ وَجَوَائِزِهِمْ / ح ١٢.

صحبتك لقتلتك^(١).

٨/ البدعة في الدين: والبدعة هي إدخال شيء في الدين ليس من الدين، قال الرسول الأعظم ﷺ: «أصحابُ البدع كلابُ النار»^(٢).

٩/ مخالفة أهل البيت ﷺ: ورد عن أبي جعفر ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ نَصَبَ عَلِيًّا ﷺ عَلِمًا بَيْنَهُ وَيُنْ خَلْفَهُ، فَمَنْ عَرَفَهُ كَانَ مُؤْمِنًا، وَمَنْ أَنْكَرَهُ كَانَ كَافِرًا، وَمَنْ جَهِلَهُ كَانَ ضَالًّا، وَمَنْ نَصَبَ مَعَهُ شَيْئًا كَانَ مُشْرِكًا، وَمَنْ جَاءَ بِوَلَايَتِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٣).

١٠/ بغض أهل البيت ﷺ: ورد عن ابن عباس: أنه مر بمجلس من مجالس قريش وهم يسبون علي بن أبي طالب ﷺ، فقال لقائده: ما يقول هؤلاء؟ قال: يسبون علياً. قال: قربني إليهم، فلما أن أوقف عليهم، قال: أيكم السابُّ الله؟ قالوا: سبحان الله! من يسبُّ الله فقد أشرك بالله. قال: أيكم السابُّ رسول الله ﷺ؟ قالوا: من يسبُّ رسول الله فقد كفر. قال: أيكم السابُّ علي بن أبي طالب؟ قالوا: قد كان ذلك. قال: فأشهد بالله وأشهد لله، لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سبَّ علياً فقد سبَّني، ومن سبَّني فقد سبَّ الله ﷻ»، ثم مضى.

فقال لقائده: فهل قالوا شيئاً حين قلت لهم ما قلت؟ قال: ما قالوا شيئاً. قال: كيف رأيت وجوههم؟ قال:

نظروا إليك بأعين محمرة نظر التيوس إلى شفار الجازر
قال: زدني فداك أبوك. قال:

خزر الحواجب، ناكسو أذقانهم نظر الذليل إلى العزيز القاهر

(١) اختيار معرفة الرجال للشيخ الطوسي (ج ٢ / ص ٧٤٠ / ترجمة رقم ٨٢٨).

(٢) كنز العمال للمفتي الهندي ج ١ ص ٢١٨ ح ١٠٩٤.

(٣) الكافي للكليني ج ١ ص ٤٣٧ باب فيه نُتِفَّ وجوامع من الرواية في الولاية / ح ٧.

قال: زدني فداك أبوك. قال: ما عندي غير هذا. قال: لكن عندي.

أحيائهم خزي على أمواتهم والميتون فضيحة للغابر.^(١)

النقطة الثانية: موانع دخول جهنم.

وهي - من وجه ثانٍ - مقتضيات دخول الجنة، وقد ذكرت الروايات والآيات الشريفة العديد منها^(٢)، نذكر منها:

١/ الإيمان بالحدّ الذي تقدّم بيانه، بأنّ الإيمان هو ليس مجرد كلام وإنّما هو: قولٌ باللسان، وعملٌ بالأركان، واعتقادٌ بالقلب والجنان.

في رواية عن زُرارة قال: «قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام: يَدْخُلُ النَّارَ مُؤْمِنٌ؟ قَالَ عليه السلام: لَا وَاللَّهِ...»^(٣).

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام: «بِتَمَامِ الْإِيمَانِ دَخَلَ الْمُؤْمِنُونَ الْجَنَّةَ، وَبِالزِّيَادَةِ فِي الْإِيمَانِ تَفَاضَلَ الْمُؤْمِنُونَ بِالدَّرَجَاتِ عِنْدَ اللَّهِ، وَبِالنَّقْصَانِ دَخَلَ الْمُفَرِّطُونَ النَّارَ»^(٤).

(١) الأُمالي للشيخ الصدوق ص ١٥٧ و ١٥٨ ح ١٥١ / ٢.

(٢) وهناك عناوين أخرى بلغت أربعين عنواناً من موانع دخول نار جهنم حسب الروايات الشريفة، ذكرها الشيخ محمد الريشهري (حفظه الله) في كتابه (الجنة والنار في الكتاب والسنة)

(٣) الكافي للكليني ج ٢ ص ٣٨٥ باب الكفر ح ٧، وتَمَامُ الرواية: عَنْ زُرَّارَةَ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام: «يَدْخُلُ النَّارَ مُؤْمِنٌ؟ قَالَ عليه السلام: لَا وَاللَّهِ... فَمَا يَدْخُلُهَا إِلَّا كَافِرٌ؟ قَالَ: لَا، إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ. فَلَمَّا رَدَدْتُ عَلَيْهِ مِرَاراً قَالَ لِي: أَيُّ زُرَّارَةَ، إِنِّي أَقُولُ لَا، وَأَقُولُ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، وَأَنْتَ تَقُولُ: لَ، وَلَا تَقُولُ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ!

قَالَ: فَحَدَّثَنِي هِشَامُ بْنُ الْحَكَمِ وَحَمَّادٌ عَنْ زُرَّارَةَ قَالَ: قُلْتُ فِي نَفْسِي: شَيْخٌ لَا عِلْمَ لَهُ بِالْخُصُومَةِ! قَالَ: فَقَالَ لِي: يَا زُرَّارَةُ، مَا تَقُولُ فِيمَنْ أَقَرَّ لَكَ بِالْحُكْمِ، أَتَقْتُلُهُ؟ مَا تَقُولُ فِي خَدَمِكَمْ وَأَهْلِيكُمْ أَتَقْتُلُهُمْ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: أَنَا وَاللَّهِ الَّذِي لَا عِلْمَ لِي بِالْخُصُومَةِ».

(٤) الكافي للكليني ج ٢ ص ٣٧ بَابٌ فِي أَنَّ الْإِيمَانَ مَبْثُوثٌ لِجَوَارِحِ الْبَدَنِ كُلِّهَا/ ح ١، والرواية طويلة.

٢/ ولاية أهل البيت عليهم السلام: وقد ثبت هذا في أكثر من مرة، ففي الرواية عن النبي صلى الله عليه وآله، قال: إذا كان يوم القيامة ونُصب الصراط على جهنم، لم يجز عليه إلا من معه جواز فيه ولاية علي بن أبي طالب، وذلك قوله عليه السلام: ﴿وَفَقُّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾^(١) يعني عن ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام.^(٢)

٣/ التقوى: قال عليه السلام: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى. لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى. الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى. وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى. الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى. وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى. إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى. وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾^(٣)

والتقوى هي العمل بالواجبات وترك المحرمات، وفي هذا المجال روايات كثيرة جداً، ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «التقوى أوكد سبب بينك وبين الله إن أخذت به، وجنة من عذاب أليم».^(٤)

٤/ التوبة والاستغفار: وهو علاج لمن خالف التقوى ووقع في الذنب، وقد ورد عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله أنه قال: «فروا من فضول الدنيا كما تفرون من الحرام، وهونوا على أنفسكم الدنيا كما تهونون الجيفة، وتوبوا إلى الله من فضول الدنيا وسيئات أعمالكم، تنجوا من شدة العذاب».^(٥)

وفي حديث آخر عنه عليه السلام أنه قال: «لا يزال العبد آمناً من عذاب الله ما استغفر

(١) الصافات ٢٤.

(٢) الأمالي للشيخ الطوسي ص ٢٩٠ / ح ٥٦٤ / ١١.

(٣) الليل ١٤ - ٢١.

(٤) عيون الحكم والمواعظ لليثي ص ٦٣.

(٥) مستدرک الوسائل للميرزا حسين النوري الطبرسي ج ١٢ ص ٥٤ / ح [١٣٤٩٦] ٨ نقلاً عن القطب الراوندي في لب الباب.

الله». (١)

كما ورد في حديثٍ عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «لو أن الناس حين عصوا تابوا واستغفروا، لم يعذبوا ولم يهلكوا». (٢)

فنحن لسنا معصومين، ومن المحتمل أن نواقع المعصية، ولكن هذا لا يعني أن نياس من روح الله تعالى وإنّا علينا أن نتدارك فإن «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون». (٣)

٥/ حسن الخلق: فقد روي أنه سألت أم المؤمنين أم سلمة رسول الله صلى الله عليه وآله، فقالت: بأبي أنت وأُمِّي، المرأة يكون لها زوجان فيموتان فيدخلان الجنة لأيهما تكون؟ فقال: «يا أم سلمة، تَخَيَّرْ أحسنهما خُلُقاً وخيرهما لأهله. يا أم سلمة، إِنَّ حَسَنَ الخُلُقِ ذهب بخير الدنيا والآخرة». (٤)

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار غداً؟ قيل: بلى يا رسول الله. قال: الهَيِّنَ اللَّيِّنَ القَرِيبَ السَّهْلَ». (٥)

ومن الواضح أن هذه الصفات تكشف عن حسن الخلق.

كما تؤكد الروايات كثيراً على أن من سمات شيعة أهل البيت عليهم السلام حسن أخلاقهم، فالمؤمن هُشُّ هُشٍّ، وفي وصية الإمام الصادق عليه السلام لابن جندب: «يا ابن جندب، إنّما شيعتنا يُعَرَفُونَ بخصال شتّى: بالسَّخَاءِ والبذل للإخوان، وبأن يُصَلُّوا الخمسين ليلاً

(١) كنز العمال للمتقي الهندي ج ١ ص ٤٧٩ ح ٢٠٩٤.

(٢) عيون الحكم والمواعظ لليثي ص ٤١٧.

(٣) كنز العمال للمتقي الهندي ج ٤ ص ٢١٥ ح ١٠٢٢٠.

(٤) الخصال للصدوق: ٤٢/ ح ٣٤.

(٥) الخصال للشيخ الصدوق ص ٢٣٨ ح ٨٣.

ونهاراً، شيعتنا لا يهرون هريز الكلب، ولا يطمعون طمع الغراب، ولا يجاورون لنا عدوًّا، ولا يسألون لنا مبغضاً ولو ماتوا جوعاً، شيعتنا لا يأكلون الجري، ولا يمسخون على الخفين، ويحافظون على الزوال، ولا يشربون مسكراً.

ولا تكن فظاً غليظاً يكره الناس قربك، ولا تكن واهناً يُحقرك من عرفك...»^(١)

٦/ الدفاع عن عرض المؤمن: فإذا اغتاب شخصٌ مؤمناً أمامك أو انتقص منه أو نمَّ عليه أو بهته أو تجاوز على حرمة فدافعت عنه ولم تقبل، فهنيئاً لك العتق من النار إن شاء الله تعالى، فقد ورد عن رسول الله ﷺ: «من رد عن عرض أخيه المسلم، وجبت له الجنة البتة»^(٢).

وفي حديث آخر عنه ﷺ: «من رد عن عرض أخيه، كان له حجاباً من النار»^(٣).

٧/ تحصيل العلم: فإن العلم ليس غايةً في حدّ نفسه، وإنّما هو وسيلةٌ كما يقال في الفلسفة هو (وسيلةٌ لكشف الواقع) سواء كان علماً بديهيّاً أو نظريّاً، وهو الأصل في غاية العلم، وبالتالي لا بد من إلحاقه بالعمل، فليس الهدف من العلم بعد كشف الواقع تكديسه في الذهن، وإنّما فضيلته في العمل به.

لو كان للعلم من غير التقي شرفٌ لكان أشرفَ كلّ الناس إبليسُ
إنّ إبليس لم ينقصه علمٌ، لكنّ ما أهلكه هو عدم العمل به، فإن علمت أنّ هذا الكلام محرّمٌ وغيبيةٌ، ورغم ذلك تكلمت به، حينئذٍ لم تستفد من هذا العلم ولم تنتفع به، وهكذا.

ومن هنا فقد أشارت الروايات الشريفة إلى أنّ أحد أهمّ ثمار العلم هو أن يكون

(١) الوصية طويلة، تجدها في تحف العقول لابن شعبة الحرّاني (ص ٣٠٢ وما بعدها).

(٢) ثواب الأعمال للشيخ الصدوق ص ١٤٥.

(٣) الامالي للشيخ المفيد ص ٣٣٨.

مانعاً من دخول جهنم، ولا شك أنه العلم الذي يعمل به صاحبه، فقد ورد في بعض الروايات: «يدخل جهنم عالمٌ لا يعمل بعلمه فأهل النار تتأذى من ناره»^(١). فالملقود من تحصيل العلم هو التحصيل الذي يترتب عليه العمل فيكون مانعاً من دخول جهنم.

وقد ورد عن الرسول ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى عِتْقَاءِ اللَّهِ مِنَ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى الْمُتَعَلِّمِينَ، فَإِنَّ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْ مُتَعَلِّمٍ يَخْتَلِفُ إِلَى بَابِ الْعَالَمِ الْمُعَلِّمِ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ قَدَمٍ عِبَادَةً سَنَةً، وَبَنَى اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ قَدَمٍ مَدِينَةً فِي الْجَنَّةِ، وَيَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ وَهِيَ تَسْتَغْفِرُ لَهُ، وَيُمْسِي وَيُصْبِحُ مَغْفُورًا لَهُ، وَشَهِدَتِ الْمَلَائِكَةُ أَنَّهُمْ عِتْقَاءُ اللَّهِ مِنَ النَّارِ»^(٢).

٨/ تأليف كتاب - أو ولو ورقة واحدة - في علم نافع: فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: المؤمن إذا مات وترك ورقة واحدة عليها علم، تكون تلك الورقة يوم القيامة سترًا فيما بينه وبين النار، وأعطاه الله تبارك وتعالى بكل حرف مكتوب عليها مدينة أوسع من الدنيا سبع مرات، وما من مؤمن يقعد ساعة عند العالم، إلا ناداه ربه ﷻ: جلست إلى حبيبي، وعزتي وجلالي لأسكنك الجنة معه ولا أبالي»^(٣).

ولعله لا يشترط في ما يكتب أن يكون منمقاً أو مبوباً وما شابه ذلك، بل ولو كان

(١) عن سليم بن قيس الهلالي، قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يحدث عن النبي ﷺ أنه قال في كلام له: «العلماء رجالان: رجل عالم أخذ بعلمه فهذا ناج، وعالم تارك لعلمه فهذا هالك، وإن أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه، وإن أشد أهل النار ندامةً وحسرةً رجل دعا عبداً إلى الله، فاستجاب له وقبل منه، فأطاع الله فأدخله الله الجنة، وأدخل الداعي النار بتركه علمه وأتباعه الهوى وطول الأمل. أمّا أتباع الهوى فيصدُّ عن الحق، وطول الأمل يُنسي الآخرة». (الكافي للكليني ١: ٤٤ / باب استعمال العلم / ح ١).

(٢) منية المريد للشهيد الثاني ص ١٠٠.

(٣) الأمالي للشيخ الصدوق ص ٩١ ح ٦٤ / ٤.

كتابة معلومة، أو تأملات بسيطة استثمر وسائل التواصل الاجتماعي في نشرها، إذ إن مفردة (ورقة) مأخوذة على نحو الطريقية، لا الموضوعية، وعليه، فتركك معلومة على صفحة في النت قد يصدق عليها هذه الورقة.

٩/ زيارة قبور أهل البيت عليهم السلام: والروايات في هذا عديدة، نقتصر على رواية واحدة وردت في بيان فضل زيارة الإمام الضامن ثمن الحجج عليهم السلام، فقد روي رسول الله ﷺ: «ستدفن بضعة مني بأرض خراسان، لا يزورها مؤمن إلا أوجب الله ﷻ له الجنة، وحرم جسده على النار»^(١).

١٠/ خدمة الزوج: فصحيح أنه من الناحية الفقهية ليس على الزوجة خدمة الزوج، من غسل ملابس، وطهي طعام وما شابه ذلك وهذا هو الحكم الشرعي، بيد أن الروايات الشريفة تذكر من الفضل العظيم لخدمة الزوج ورعايته، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «الامراة الصالحة خير من ألف رجل غير صالح، وأياها امرأة خدمت زوجها سبعة أيام أغلق الله عنها سبعة أبواب النار، وفتح لها ثمانية أبواب الجنة، تدخل من أيها شاءت»^(٢).

وعن أبي عبد الله عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال: «أيها امرأة رفعت من بيت زوجها شيئاً من موضع إلى موضع تريد به صلاحاً نظر الله ﷻ إليها، ومن نظر الله إليه لم يُعَذِّبه».

فقالت أم سلمة رضي الله عنها: ذهب الرجال بكل خير، فأني شيء للنساء المساكين؟ فقال عليه السلام: «بلى، إذا حملت المرأة كانت بمنزلة الصائم القائم المجاهد بنفسه وماله في سبيل الله، فإذا وضعت كان لها من الأجر ما لا تدري ما هو لعظمه، فإذا أرضعت كان لها بكل مصّة كعبد عتق محرّر من ولد إسماعيل، فإذا فرغت من رضاعه ضرب ملك على جنبها

(١) الأمايلي للشيخ الصدوق ص ١١٩ ح ١٠٧ / ٦.

(٢) وسائل الشيعة للحرّ العاملي (آل البيت) ٢٠: ١٧٢ / ح (٢٠٣٤٢ / ٢).

وقال: استأنفي العمل فقد غُفِرَ لك^(١).

النقطة الثالثة: صفات ودرجات جهنم.

إنَّ جهنم، حسب ما يُستفاد من الآيات والروايات الشريفة، وادٍ في النار عمقه سبعون سنة، أي إذا رميت شيئاً من أعلى شفيرها، فإنه يصل إلى قعرها بعد سبعين سنة! وهذا الوادي يُحيط بالكافرين، وكأنها تكون بين ساحة المحشر وبين الجنة، ومن أراد أن يصل إلى الجنة فعليه أن يعبر الصراط ليصل إليها.

والصراط ليس مجرد جسر، وإنَّها عبارة عن محطاتٍ وعقباتٍ عديدة، على الإنسان أن يعبرها واحدةً تلو الأخرى حتى يصل إلى الجنة. وإنَّ أول ما يُسأل عنه المرء باتجاه الجنة هو ولاية أهل البيت عليهم السلام فمن لديه جوازٌ من الإمام علي عليه السلام يعبر ليُسأل عن الصلاة والصوم والحج والعدل ومظالم العباد وغيرها من الواجبات والمحرمات، فمن جازها فإلى الجنة وإلا فإلى النار والعياذ بالله.

وكما أنَّ الجنة ليست درجةً واحدة بل لها درجات، فإنَّ النار لها دركات عديدة وليست مستوى واحد، دلت على ذلك روايات عديدة منها:

روي عن رسول الله صلَّى الله عليه وآله أنه قال: «ويل، واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً، قبل أن يبلغ قعره»^(٢).

وفي قوله تعالى ﴿سَأَرْهُقُهُ صَعُودًا﴾^(٣) عنه صلَّى الله عليه وآله: الصعود جبل من نار، يتصعد فيه الكافر سبعين خريفاً، ثم يهوى فيه كذلك أبداً.^(٤)

(١) أمالي الشيخ الصدوق (ص ٤٩٦ و ٤٩٧ / ح ٦٨٧ / ٧).

(٢) كنز العمال للمتقي الهندي ج ٢ ص ١٢ ح ٢٩٣٧.

(٣) المدثر ١٧.

(٤) كنز العمال للمتقي الهندي ج ٢ ص ١٢ ح ٢٩٣٥.

وفي رواية عنه عليه السلام قال: «استعينوا بالله من جب الخزي». قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: «وادي في جهنم أُعِدَّ للمرائين»^(١).

والمرائي هو من يحاول أن يُثبت كلامه وإن كان باطلاً، وقد يكون بمعنى من يعمل رياءً وبدون إخلاص لله تعالى.

وفي رواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «جاءني جبرائيل متغير اللون، فقلت: يا جبرائيل مالي أراك متغير اللون؟ فقال: اطلعت في النار فرأيت وادياً في جهنم يغلي، فقلت يا مالك لمن هذا؟ فقال مالك: لثلاث نفر للمحتكرين وللمدمنين على الخمر والقوادين»^(٢).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «إن في جهنم طواحين يطحن بها، أفلا تسألوني ما طحنها؟ فقليل له: وما طحنها يا أمير المؤمنين؟ قال: العلماء الفجرة والقراء الفسقة والجبابة الظلمة والوزراء الخونة والعرفاء الكذبة، وإن في النار لمدينة يقال لها: الحصينة، أفلا تسألوني ما فيها؟ فقليل له: وما فيها يا أمير المؤمنين؟ قال فيها أيدي الناكثين»^(٣).

وفي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: إن في النار لناراً يتعوذ منها أهل النار، ما خلقت إلا لكل متكبر جبار عنيد ولكل شيطانٍ مريد، ولكل مُتكبرٍ لا يؤمن بيوم الحساب، ولكل ناصبٍ العداوة لآل محمد عليهم السلام»^(٤).

بحث: أبواب الجنة والنار.

تشير بعض الآيات إلى أن للجنة والنار أبواباً متعددة، قال صلى الله عليه وآله: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ

(١) منية المريد للشهيد الثاني ص ٣١٨.

(٢) إرشاد القلوب للدليمي ج ١ ص ١٧٤.

(٣) روضة الواعظين للفتال النيسابوري ص ٥٠٧.

(٤) تفسير القمي ج ٢ ص ٢٥٧.

جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿١﴾، وقال ﷺ: ﴿وَأِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ. لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ (٢).

وقال ﷺ: ﴿جَنَّتِ عَدْنٍ مُّفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ (٣)، أي إن هناك أبواباً للجنة، وفي آية أخرى قال ﷺ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (٤).

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «اللجنة ثمانية أبواب، وللنار سبعة أبواب» (٥).

فما هو معنى هذه الأبواب وما الحكمة منها؟ ولماذا عدد أبواب الجنة أكثر من عدد أبواب جهنم؟

بداية، فإن المعنى الحقيقي ربما لا يكون معلوماً عندنا، ولكن عبر استقراء الآيات والروايات وتفسير العلماء لها تطرح أربعة احتمالات، وهي:

الاحتمال الأول: الباب الحقيقي.

أن يكون المقصود هو الباب الحقيقي فلها قفل ومفتاح، ولها مصراعٌ وعليها بواب، وهي تكون معبراً ومدخلاً للجنة. أما تقسيمها إلى ثمانية؛ فلأن لكل باب مجموعة من

(١) النحل: ٢٩.

(٢) الحجر: ٤٣ و ٤٤.

(٣) ص: ٥٠.

(٤) الزمر: ٧١ / ٧٣.

(٥) الأمالي للشيخ الصدوق ص ١٢٣ ح ١١٣ / ١.

الناس يدخلون عبرها.

وقد يظهر من بعض الروايات هذا المعنى، فقد ورد عن الرسول الأعظم ﷺ أنه قال: «إن للنار لسبعة أبواب، ما منهن بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عاماً وإن للجنة لثمانية أبواب، ما منهما بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عاماً»^(١). وفي حديث آخر عنه ﷺ أنه قال: «باب أمتي الذي يدخلون منه الجنة عرضه مسيرة الراكب المجود»^(٢) ثلاثاً^(٣).

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أبواب النار بعضها فوق بعض، يبدأ بالأسفل فيملاً فهو أسفل سافلين، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، حتى يملأ النار»^(٤). فأبواب جهنم تختلف عن أبواب الجنة، إذ هي عبارة عن طبقات ودركات، وهو صريح ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إن جهنم لها سبعة أبواب أطباق، بعضها فوق بعض، ووضع إحدى يديه على الأخرى، فقال: هكذا، وإن الله وضع الجنان على العرض، ووضع النيران بعضها فوق بعض، فأسفلها جهنم، وفوقها لظى، وفوقها

(١) مسند أحمد ج ٤ ص ١٤.

(٢) اسم فاعل من التجويد وهو التحسين قيل أي الراكب الذي يجود ركض الفرس من جودته أي جعلته جيداً وفي أساس البلاغة يجوز في صنعته يفوق فيها وأجاد الشيء وجوده أحسن فيما فعل وجود في عدوه عدا عدواً وجواداً والمعنى الراكب الذي يجود ركض الفرس وأن يكون مستافاً إليه والإضافة لفظية أي الفرس الذي يجود في عدوه (ثلاثاً) ظرف مسيره والمعنى ثلاث ليال أو سنين وهو الأظهر لأنه يفيد المبالغة أكثر ثم المراد به الكثرة لثلاث يخالف ما ورد من أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة على أنه يمكن أنه أوحى إليه بالقليل ثم أعلم بالكثير أو يحمل على اختلاف الأبواب باختلاف أصحابها [تحفة الأحوذى للمباركفوري ج ٧ ص ٢١٨].

(٣) كنز العمال للمتقي الهندي ج ١٤ ص ٤٧٢ ح ٣٩٣١١.

(٤) المصنف لابن أبي شيبة ج ٨ ص ٩٢.

الخطمة، وفوقها سقر، وفوقها الجحيم، وفوقها السعير، وفوقها الهاوية». ^(١)

الاحتمال الثاني: أن الباب بمعنى المرتبة والدرجة.

إنَّ المقصود من الأبواب مراتب وأنواع الجنة والنار، فكما تقدّم أن لكلٍ منهما أنواعاً وطبقات ومراتب عديدة، فليس المقصود هو الباب الحقيقي، وإنّما المراد منه أنواع الجنة وطبقاتها، وأنواع النار وطبقاتها. وقد ورد عن النبي ﷺ أنّه قال: «لكلّ أهل عمل بابٌ من أبواب الجنة يُدعون بذلك العمل، ولأهل الصيام بابٌ يُدعون منه يُقال له الريان». ^(٢) فلكلّ عملٍ مرتبة، والآيات أو الروايات تُطلق عليها باب.

الاحتمال الثالث: أن الباب بمعنى السبب.

بيان: من المعلوم أنه لا يصدر أي فعلٍ من الإنسان -سواء أكان خيراً أم شراً- إلا عبر إحدى منافذه وهي: (حاسة النظر والسمع والشم والذوق واللمس) وهي الحواس الخمسة، يُضاف إليها (البطن والفرج) فتكون القوى سبعة، يُطلق عليها بعض علماء الأخلاق بـ(الأقاليم السبعة)، وأما بعض الفلاسفة فيقولون: منافذ الإنسان هي الحواس الخمسة مع قوتين باطنيتين موجودتين عند الإنسان هما (قوة الوهم وقوة الخيال).

وبغض النظر عن ذلك، فبالنتيجة هناك سبعة قوى يمكن أن تعمل الحسنات وتعمل السيئات، وهذا يعني: أن هذه القوى أو الأقاليم السبعة لها بوصلةٌ توجهها نحو فعل الخير، وهذه البوصلة هي العقل، فإذا انظم العقل إلى هذه السبعة تصير ثمانية فتسير في الطريق الصحيح فيقودها إلى الجنة ولها ثمانية أبواب، فلكلّ قوةٍ بابٌ وثامنها

(١) تفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسي ج ٦ ص ١١٨.

(٢) مسند أحمد ج ٢ ص ٤٤٩.

هو باب العقل.

وأما إذا أُقصي العقل عن مهمته، فتعمل الحواس والقوى حينها من دون عقل (عين من دون عقل، وسمع من دون عقل وهكذا) فربما تقود الإنسان إلى جهنم والعياذ بالله، فلها سبعة أبواب؛ لانعدام العقل فيها، وينقل هذا الرأي الفلاسفة وابن سينا وصدر المتألهين وبعض المعاصرين.

وهذا المعنى يدعوننا إلى أن نقيّد حواسنا دائماً بالعقل حتى نصل إلى الجنة إن شاء الله ﷻ.

وربما يُستفاد من السيد العلامة الطباطبائي هذا المعنى في تفسيره، حيث قال: لم يبين سبحانه في شيء من صريح كلامه ما هو المراد بهذه الأبواب أي كأبواب الحيطان مداخل تهدي الجميع إلى عرصة واحدة أم هي طبقات ودركات تختلف في نوع العذاب وشدته؟

وكثيراً ما يسمى في الأمور المختلفة الأنواع كل نوع باباً، كما يقال أبواب الخير وأبواب الشر وأبواب الرحمة قال تعالى: ﴿فَتَحْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(١). وربما سُمي أسباب الشيء وطرق الوصول إليه أبواباً كأبواب الرزق لأنواع المكاسب والمعاملات.

وليس من البعيد أن يستفاد المعنى الثاني من متفرقات آيات النار كقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ. قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئَسَ مَثْوًى

الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿١﴾ وقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ (٢) إلى غير ذلك من الآيات.

ويؤيده: قوله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ فإن ظاهره أن نفس الجزء مقسوم موزع على الباب، وهذا إنما يلائم الباب بمعنى الطبقة دون الباب بمعنى المدخل.

وأما تفسير بعضهم الجزء المقسوم بالفريق المعين المفروز من غيره فوهنه ظاهر. وعلى هذا، فكون جهنم لها سبعة أبواب هو كون العذاب المعدّ فيها متنوعاً إلى سبعة أنواع، ثم انقسام كل نوع أقساماً حسب انقسام الجزء الداخل الماكث فيه، وذلك يستدعي انقسام المعاصي الموجبة للدخول فيها سبعة أقسام وكذا انقسام الطرق المؤدية والأسباب الداعية إلى تلك المعاصي ذاك الانقسام. (٣)

وقال الشيخ الشيرازي: هي أبواب للذنوب التي يدخلون جهنم بسببها، وكل يحاسب بذنبه.. كما هو الحال في أبواب الجنة التي هي عبارة عن طاعات وأعمال صالحة ومجاهدة للنفس يدخل بها المؤمنون الجنة. (٤)

الاحتمال الرابع: الأبواب كناية عن الطرق الموصلة.

أن التعبير بـ(الباب) تعبيرٌ كنائي لا حقيقي، أي لا يراد منه المعنى الظاهري للباب، وهذا يعني أن ليس هناك سبعة أبواب أو ثمانية، وإنما المقصود المبالغة، أي إنَّ هناك عدة طرق توصلك إلى الجنة وكذا إلى النار، وإنَّ طرق الجنة أكثر من طرق النار، وعلى الإنسان أن يحكّم عقله ويسلك طرق الجنة.

(١) الزمر ٧١ و ٧٢.

(٢) النساء ١٤٥.

(٣) تفسير الميزان للسيد محمد حسين الطباطبائي ج ١٢ ص ١٧٠.

(٤) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل للشيخ ناصر مكارم الشيرازي ج ٨ ص ٦٥.

قال الشيخ الشيرازي: وثمة تفسير آخر نستطيع أن نقف على خلاصته بالشكل الآتي: إن أبواب جهنم - كأبواب الجنة - إشارة إلى العوامل المختلفة التي تؤدي بالإنسان إلى دخولها، فكل نوع من الذنوب أو نوع من أعمال الخير يعتبر باباً، وثمة ما يشير إلى ذلك في الروايات الإسلامية، ووفق هذا المعنى فإن العدد (٧) هو كناية عن الكثرة، وما ورد في القرآن الكريم من أن للجنة ثمانية أبواب هو إشارة إلى ازدياد عوامل الرحمة على عوامل العذاب...^(١)

إشارات:

الإشارة الأولى: يكفي الإيمان الإجمالي بالجنة والنار وبالبعث وما جاء به الرسول ﷺ، وليس من الضروري أن يكون للفرد اعتقاد تفصيلي بتفصيلات يوم القيامة، وهذا ما أشار له الشيخ قدس في عبارة الكتاب بقوله «فإن من يعتقد بالله اعتقاداً قاطعاً، ويعتقد كذلك بمحمد رسولاً منه أرسله بالهدى ودين الحق، لا بد أن يؤمن بما أخبر به القرآن الكريم من البعث والثواب والعقاب والجنة والنعيم والجحيم...».

الإشارة الثانية: إنه ﷺ قال: إن القرآن الكريم قد صرح بذلك الأمر لأهميته في آيات كثيرة بقوله: «وقد صرح القرآن الكريم بذلك ولمح إليه بما يقرب من ألف آية كريمة»، بل بعض الباحثين قال: إن ثلث القرآن يحكي عن المعاد، وهذا يعني ما يقارب ألفي آية. **الإشارة الثالثة:** قوله قدس: «وإذا تطرق الشك في ذلك إلى شخص...». أي إذا اختلج صدر شخص ما الشك في أمر المعاد، فإن هذا الشك لا بد أن يكون له سبب، ومن أسباب الشك:

١ - الشك في نبوة النبي الأعظم ﷺ.

(١) الأمل للشيخ ناصر مكارم الشيرازي ج ١٥ ص ٣٢٥.

٢- الشك في عدم وجود الخالق.

٣- الشك في قدرة الخالق.

٤- الشك في أصل وجود الأديان.

وإلا فإن لم يكن له شكٌ فيما تقدّم فلا بُدَّ أن يعتقد جزماً في يوم القيامة.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين، محمد آل

الطيبين الطاهرين.



الحمد لله الملك الوهاب



المصادر

بعد كتاب الله تعالى المجيد:

١. الاحتجاج: الطبرسي / ت محمد باقر الخرسان / دار النعمان / ١٣٨٦ هـ.
٢. أحداث التاريخ الإسلامي: الترماني / ط. دمشق.
٣. اختيار معرفة الرجال: الشيخ الطوسي / مط بعثت / قم / مؤسسة آل البيت / ١٤٠٤ هـ.
٤. ادعاء المهدوية: أحمد الفرج الله - مركز الدراسات الاستراتيجية / الطبعة الأولى.
٥. إرشاد القلوب: الحسن بن محمد الديلمي / ط ٢ / ١٤١٥ هـ / مط أمير / انتشارات الشريف الرضي / قم.
٦. الإرشاد: الشيخ المفيد / ت مؤسسة آل البيت / ط ٢ / ١٤١٤ هـ / دار المفيد / بيروت.
٧. الإشاعة لأشراط الساعة: الشريف محمد بن رسول الحسيني البرزنجي
٨. أصل الشيعة وأصولها: الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء.
٩. الأصول الستة عشر: لعدة محدثين / ت ضياء الدين المحمودي / ط ١ / ١٤٢٣ هـ / دار الحديث.
١٠. الاعتقادات: الشيخ الصدوق / ت عصام عبد السيد / ط ٢ / ١٤١٤ هـ / دار المفيد / بيروت.
١١. أعلام الدين في صفات المؤمنين: الحسن بن محمد الديلمي / تحقيق: مؤسسة آل

البيت عليه السلام لإحياء التراث - قم/ الناشر: مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث
قم.

١٢. إلزام الناصب: الشيخ علي اليزدي الحائري/ تحقيق: السيّد علي عاشور.

١٣. الإلهيات: محاضرات الأستاذ الشيخ جعفر السبحاني/ الطبعة الرابعة/ مطبعة
اعتماد قم/ سنة ١٤١٧هـ.

١٤. الأمالي: السيّد المرتضى/ ت النعساني الحلبي/ ط ١/ ١٣٢٥هـ/ مكتبة المرعشي/
قم.

١٥. الأمالي: الشيخ الصدوق/ ت قسم الدراسات/ ط ١/ ١٤١٧هـ/ مؤسسة البعثة.

١٦. الأمالي: الشيخ الطوسي/ ت مؤسسة البعثة/ ط ١/ ١٤١٤هـ/ دار الثقافة/ قم.

١٧. الأمالي: الشيخ المفيد/ ت الأستاذولي، علي أكبر الغفّاري/ ط ٢/ ١٤١٤هـ/ دار
المفيد/ بيروت.

١٨. الإمام المهدي عند أهل السنة: مهدي الفقيه الإياني/ المجمع العالمي لأهل
البيت عليه السلام/ مطبعة التعارف/ الطبعة الثالثة/ ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

١٩. الإمامة والتبصرة: ابن بابويه/ ط ١/ ١٤٠٤هـ/ مدرسة الإمام الهادي/ قم.

٢٠. الإمامة والسياسة: ابن قتيبة الدينوري/ ت الزيني/ مؤسسة الحلبي.

٢١. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: الشيخ ناصر مكارم الشيرازي.

٢٢. الانتصار: العاملي/ ط ١/ ١٤٢٢هـ/ دار السيرة/ بيروت.

٢٣. أنساب الأشراف: البلاذري/ ت محمد باقر المحمودي/ ط ١/ ١٣٩٤هـ/ مؤسسة
الأعلمي/ بيروت.

٢٤. بحار الأنوار: العلامة المجلسي/ ط ٢ المصحّحة/ ١٤٠٣هـ/ مؤسسة الوفاء/
بيروت.

٢٥. البداية والنهاية: ابن كثير / ت علي شيري / ط ١ / ١٤٠٨هـ / دار إحياء التراث العربي / بيروت.
٢٦. بصائر الدرجات: محمد بن الحسن الصفّار / ت كوجه باغي / ١٤٠٤هـ / مط الأحمدي / منشورات الأعلمي / طهران.
٢٧. البيان في تفسير القرآن: السيد لختوي تفتي / الطبعة: الرابعة / سنة الطبع: ١٣٩٥ - ١٩٧٥ م / الناشر: دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان.
٢٨. تاج العروس: الزبيدي / ١٤١٤هـ / دار الفكر / بيروت.
٢٩. تاريخ الإسلام: الذهبي / ت تدمري / ط ١ / ١٤٠٧هـ / دار الكتاب العربي / بيروت.
٣٠. تاريخ الشعوب الإسلامية: بروكلمان ص ١٢٨ / ط. بيروت.
٣١. التاريخ الصغير: البخاري / ت محمود إبراهيم زيد / ط ١ / ١٤٠٦هـ / دار المعرفة / بيروت.
٣٢. تاريخ الطبري: الطبري / ط ٤ / ١٤٠٣هـ / مؤسسة الأعلمي / بيروت.
٣٣. تاريخ المدينة: ابن شبة النميري / ت فهم محمد شلتوت / ١٤١٠هـ / مط القدس / دار الفكر / قم.
٣٤. تاريخ اليعقوبي: اليعقوبي / دار صادر / بيروت.
٣٥. تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي / ت مصطفى عبد القادر عطا / ط ١ / ١٤١٧هـ / دار الكتب العلمية / بيروت.
٣٦. تاريخ مدينة دمشق: ابن عساكر / ت علي شيري / ١٤١٥هـ / دار الفكر / بيروت.
٣٧. تأويل الآيات الظاهرة: شرف الدين الحسيني / ط ١ / ١٤٠٧هـ / مط أمير / مدرسة الإمام المهدي / قم.

٣٨. تحف العقول: ابن شعبة الحرّاني / ت علي أكبر الغفاري / ط ٢ / ١٤٠٤ هـ / مؤسسة النشر الإسلامي / قم.
٣٩. تحفة الأحوذى: المباركفوري / ط ١ / ١٤١٠ هـ / دار الكتب العلمية / بيروت.
٤٠. الترغيب والترهيب من الحديث الشريف: عبد العظيم المنذري / تحقيق: ضبط أحاديثه وعلق عليه: مصطفى محمد عماره / سنة الطبع: ١٤٠٨ - ١٩٨٨ م / الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان
٤١. التشيع نشوؤه، مراحل، مقوماته: آية الله العلامة السيد عبد الله الغريفي / ط التاسعة ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م / دار الإسلام.
٤٢. تفسير الإمام العسكري: المنسوب إلى الإمام العسكري / ط ١ محققة / ١٤٠٩ هـ / مدرسة الإمام المهدي / قم.
٤٣. تفسير البرهان: السيّد هاشم البحراني / مؤسّسة البعثة / قم.
٤٤. تفسير الرازي: فخر الدين الرازي / الطبعة الثالثة.
٤٥. تفسير العياشي: العياشي / ت هاشم الرسولي المحلاتي / المكتبة العلمية الإسلامية / طهران.
٤٦. تفسير القرطبي: القرطبي / ت البردوني / دار إحياء التراث العربي / بيروت.
٤٧. تفسير القمي: علي بن إبراهيم القمي / ت طيب الجزائري / ط ٣ / ١٤٠٤ هـ / مؤسسة دار الكتاب / قم.
٤٨. تفسير الميزان: السيّد الطباطبائي / منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية / قم.
٤٩. تفسير غريب: القرآن للشيخ فخر الدين الطريحي / تحقيق: تعليق: محمد كاظم الطريحي / انتشارات زاهدي - قم.

٥٠. تفسير فرات الكوفي: فرات بن إبراهيم الكوفي/ ت محمد الكاظم/ ط ١/ ١٤١٠هـ/ ت محمد الكاظم/ مؤسسة طبع ونشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي/ طهران.
٥١. تفسير مجمع البيان: الطبرسي/ ت لجنة من العلماء/ ط ١/ ١٤١٥هـ/ مؤسسة الأعلمي/ بيروت.
٥٢. التمهيد: ابن عبد البر/ تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري/ سنة الطبع: ١٣٨٧/ المطبعة: المغرب - وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية/ الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية.
٥٣. تنبيه الخواطر (مجموعة ورام): ورام بن أبي فراس المالكي الأشتري/ ط ٢/ ١٣٦٨ش/ مط حيدري/ دار الكتب الإسلامية/ طهران.
٥٤. تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي/ ت حسن الخرسان/ ط ٣/ ١٣٦٤ش/ مط خورشيد/ دار الكتب الإسلامية/ طهران.
٥٥. التوحيد: الشيخ الصدوق/ ت هاشم الحسيني الطهراني/ جماعة المدرسين/ قم.
٥٦. التوحيد: المفصل بن عمر/ ت كاظم المظفر/ ط ٢/ ١٤٠٤هـ/ مؤسسة الوفاء/ بيروت.
٥٧. الثاقب في المناقب: ابن حمزة الطوسي/ ت نبيل رضا علوان/ ط ٢/ ١٤١٢هـ/ مؤسسة أنصاريان/ قم.
٥٨. ثواب الأعمال: الشيخ الصدوق/ ت محمد مهدي الخرسان/ ط ٢/ ١٣٦٨ش/ مط أمير/ منشورات الشريف الرضي/ قم.
٥٩. الجرح والتعديل: سليمان بن خلف بن سعد ابن أيوب الباجي المالكي.
٦٠. اللجنة والنار في الكتاب والسنة: محمد الريشهري/ دار الحديث للطباعة والنشر/

الطبعة الأولى ١٤٣٢ق/ ١٣٩٠ ش.

٦١. الجواهر السنينة: الحرّ العاملي/ ١٣٨٤هـ/ مط النعمان/ النجف الأشرف.
٦٢. حلية الأبرار: هاشم البحراني/ ت غلام رضا البروجردي/ ط ١/ ١٤١١هـ/ مؤسسة المعارف الإسلامية/ قم.
٦٣. حياة الحيوان الكبرى: كمال الدين ديميري/ الطبعة: الثانية ١٤٢٤ هـ/ الناشر: دار الكتب العلمية/ بيروت.
٦٤. الخرائج والجرائح: قطب الدين الراوندي/ ط ١ كاملة محققة/ ١٤٠٩هـ/ مؤسسة الإمام المهدي/ قم.
٦٥. الخصال: الشيخ الصدوق/ ت علي أكبر الغفاري/ ١٤٠٣هـ/ جماعة المدرسين/ قم.
٦٦. الخطر اليهودي: (بروتوكولات حكماء صهيون) لمحمد خليفة التونسي.
٦٧. دعائم الإسلام: القاضي النعمان المغربي/ ت آصف فيضي/ ١٣٨٣هـ/ دار المعارف/ القاهرة.
٦٨. الدعوات: قطب الدين الراوندي/ ط ١/ ١٤٠٧هـ/ مط أمير/ مؤسسة الإمام المهدي/ قم.
٦٩. دلائل الإمامة: الطبري (الشيعة)/ ط ١/ ١٤١٣هـ/ مؤسسة البعثة/ قم.
٧٠. رسائل الشريف المرتضى: الشريف المرتضى/ تحقيق: تقديم: السيد أحمد الحسيني/ إعداد: السيد مهدي الرجائي/ سنة الطبع: ١٤٠٥/ المطبعة: مطبعة سيد الشهداء - قم/ الناشر: دار القرآن الكريم.
٧١. روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه: محمد تقي المجلسي الأول/ تحقيق: نمقه وعلق عليه وأشرف على طبعه « السيد حسين الموسوي الكرمانى والشيخ علي

- پناه الإشتهاردي / الناشر: بنياد فرهنگ اسلامي حاج محمد حسين كوشانپور.
٧٢. روضة الواعظين: الفتال النيسابوري / ت محمد مهدي الخرسان / منشورات الشريف الرضي / قم.
٧٣. سعد السعود: ابن طاووس / ١٣٦٣هـ / مط أمير / منشورات الشريف الرضي / قم.
٧٤. سنن ابن ماجه: ابن ماجه القزويني / ت محمد فؤاد عبد الباقي / دار الفكر / بيروت.
٧٥. سنن أبي داود: ابن الأشعث السجستاني / ت محمد اللحام / ط ١ / ١٤١٠هـ / دار الفكر / بيروت.
٧٦. سنن الترمذي: الترمذي / ت عبد الوهاب عبد اللطيف / ط ٢ / ١٤٠٣هـ / دار الفكر / بيروت.
٧٧. سنن الدارمي: عبد الله بن بهرام الدارمي / ١٣٤٩هـ / مط الاعتدال / دمشق.
٧٨. سير أعلام النبلاء: الذهبي / ت حسين الأسد / ط ٩ / ١٤١٣هـ / مؤسسة الرسالة / بيروت.
٧٩. شذرات مهدوية: الشيخ حسين الأسدي / تقديم وتحقيق: مركز الدراسات التخصصية في الإمام المهدي (عليه السلام): الطبعة الأولى.
٨٠. شرح إحقاق الحق: السيّد المرعشي / ت شهاب الدين المرعشي / مكتبة المرعشي / قم.
٨١. شرح الأخبار: القاضي النعمان المغربي / ت محمد الجلاي / ط ٢ / ١٤١٤هـ / مؤسسة النشر الإسلامي / قم.
٨٢. شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد / ت محمد أبو الفضل إبراهيم / ط ١ / ١٣٧٨هـ /

دار إحياء الكتب العربية/ بيروت.

٨٣. شعب الإيمان: أبو بكر البيهقي / ط ١ / ١٤٢٣هـ / مكتبة الرشد.
٨٤. صحيح البخاري: البخاري / ١٤٠١هـ / دار الفكر/ بيروت.
٨٥. صحيح مسلم: مسلم النيسابوري / دار الفكر/ بيروت.
٨٦. الصحيفة السجّادية: أبطحي / ت محمد باقر الأبّطحي / ط ١ / ١٤١١هـ / مط
نمونة / مؤسسة الإمام المهدي، مؤسسة الأنصارين / قم.
٨٧. الصراط المستقيم: علي بن يونس العاملي / ت محمد باقر البهودي / ط ١ /
١٣٨٤هـ / مط الحيدري / المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية.
٨٨. صراط النجاة: تعليق الميرزا التبريزي على 'منهاج الصالحين للسيد الخوئي' / ط ١ /
١٤١٦هـ / دفتر نشر برگزیده.
٨٩. الصلة بين التصوف والتشيع: الشيبلي. ط. بيروت.
٩٠. الصواعق المحرقة: ابن حجر الهيتمي / ط ١ / ١٩٩٧م / مؤسسة الرسالة/ بيروت.
٩١. الطبقات الكبرى: محمد بن سعد / دار صادر/ بيروت.
٩٢. الطرائف: ابن طاووس / ط ١ / ١٣٩٩هـ / مط الخيام / قم.
٩٣. عدّة الداعي: ابن فهد الحلي / ت أحمد الموحد القمي / مكتبة وجداني / قم.
٩٤. عدّة الداعي: ابن فهد الحلي / ت أحمد الموحد القمي / مكتبة وجداني / قم.
٩٥. عقائد الإسلام: السيد مرتضى العسكري / الناشر: التوحيد للنشر / الطبعة
الرابعة ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
٩٦. عقد الدرر: يوسف بن يحيى المقدسي / انتشارات نصائح.
٩٧. علل الشرائع: الشيخ الصدوق / ت محمد صادق بحر العلوم / ١٣٨٥هـ /
منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها/ النجف الأشرف.

٩٨. علم النفس الفلسفي: الشيخ غلام رضا الفياضي: تقرير: السيد جعفر الحكيم / الطبعة الأولى سنة ٢٠١٣ م.
٩٩. على ضفاف الانتظار: الشيخ حسين الأسدي / تقديم: مركز القمر للإعلام الرقمي / الطبعة الأولى / ١٤٣٨ هـ.
١٠٠. عمدة القاري: العيني / المطبعة: بيروت - دار إحياء التراث العربي / الناشر: دار إحياء التراث العربي.
١٠١. عوالي اللثالي: ابن أبي جمهور الأحسائي / ت مجتبى العراقي / ط ١ / ١٤٠٣ هـ / مط سيد الشهداء / قم.
١٠٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام: الشيخ الصدوق / ت حسين الأعلمي / ١٤٠٤ هـ / مؤسسة الأعلمي / بيروت.
١٠٣. عيون الحكم والمواعظ: علي الليثي الواسطي / ت حسين البيرجندي / ط ١ / دار الحديث.
١٠٤. الغارات: إبراهيم بن محمد الثقفي / ت جلال الدين الحسيني الأرموي المحدث.
١٠٥. الغدير: الشيخ الأميني / ط ٤ / ١٣٩٧ هـ / دار الكتاب العربي / بيروت.
١٠٦. الغيبة: الشيخ الطوسي / ت عبد الله الطهراني، علي أحمد ناصح / ط ١ / ١٤١١ هـ / مط بهمن / مؤسسة المعارف الإسلامية / قم.
١٠٧. الغيبة: النعماني / ت فارس حسن كريم / ط ١ / ١٤٢٢ هـ / مط مهر / أنوار الهدى.
١٠٨. الفصول المختارة: الشيخ المفيد / تحقيق: السيد نور الدين جعفران الاصبهاني، الشيخ يعقوب الجعفري، الشيخ محسن الأحمد / الطبعة: الثانية / سنة الطبع: ١٤١٤ - ١٩٩٣ م / الناشر: دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان

١٠٩. نهج البلاغة: الشريف الرضي / شرح محمد عبده / ط ١ / ١٤١٢ هـ / مط النهضة / دار الذخائر / قم.
١١٠. الفصول المختارة: الشيخ المفيد / ط ٢ / ١٤١٤ هـ / دار المفيد / بيروت.
١١١. الفصول المهمة: ابن الصبّاغ / ت سامي الغريزي / ط ١ / ١٤٢٢ هـ / مط سرور / دار الحديث.
١١٢. فضائل سنن الترمذي: الإسعدي / تحقيق: صبحي السامرائي / الطبعة: الأولى / سنة الطبع: ١٤٠٩ / الناشر: عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية - بيروت
١١٣. بشرى البشر في حقيقة المهدي المنتظر - الشيخ محمود الغرابوي - دار الكتاب العربي - الطبعة الأولى ٢٠٠٤.
١١٤. فقه الحضارة: للسيد السيستاني
١١٥. الفقه على المذاهب الأربعة ومذهب أهل البيت عليهم السلام: الجزيري / الغروي / (كتاب الفقه على المذاهب الأربعة لعبد الرحمن الجزيري وعلى مذهب أهل البيت عليهم السلام للسيد محمد الغروي والشيخ ياسر مازح / دار الثقلين للطباعة والنشر والتوزيع / بيروت - لبنان / الطبعة: الأولى / سنة الطبع: ١٤١٩ - ١٩٩٨ .
١١٦. فهرست ابن النديم: ابن النديم البغدادي / تحقيق: رضا - تجدد.
١١٧. في رحاب حكومة الإمام المهدي عليه السلام: الشيخ نجم الدين الطبسي - ترجمة الشيخ أحمد وهبي - مطبعة نكارش - الطبعة الأولى سنة النشر ١٤٢٥ هـ. ق
١١٨. القرآن في الإسلام: السيد الطباطبائي / تحقيق: تعريب السيد أحمد الحسيني.
١١٩. قصص الأنبياء: قطب الدين الراوندي / ت غلام رضا عرفانيان / ط ١ / ١٤١٨ هـ / الهادي.
١٢٠. قطاف شهر رمضان: الشيخ حسين عبد الرضا الأسدي / تقديم: معهد تراث

- الأنبياء للدراسات الحوزوية الإلكترونية/ الطبعة الأولى: ١٤٣٨هـ.
١٢١. كامل الزيارات: ابن قولويه/ ت جواد القيومي/ ط ١/ ١٤١٧هـ/ مط مؤسسة النشر الإسلامي/ مؤسسة نشر الثقافة.
١٢٢. الكامل في التاريخ: ابن الأثير/ ١٣٨٦هـ/ دار الصادر/ بيروت.
١٢٣. كتاب المؤمن: الحسين بن سعيد .
١٢٤. كشف الغمّة: ابن أبي الفتح الأربلي/ ط ٢/ ١٤٠٥هـ/ دار الأضواء/ بيروت.
١٢٥. الكلام الإسلامي المعاصر: د: الشيخ عبد الحسين خسروبناه/ ترجمة: محمد حسين الواسطي/ المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية/ قسم الكلام والعقيدة/ دار الكفيل للطباعة والنشر والتوزيع/ الطبعة الأولى ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٦م.
١٢٦. كليات في علم الرجال: الشيخ السبحاني/ الطبعة: الثالثة/ سنة الطبع: ذي القعدة الحرام ١٤١٤/ المطبعة: مؤسسة النشر الإسلامي/ الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة
١٢٧. كمال الدين وتمام النعمة: الشيخ الصدوق/ ت علي أكبر الغفّاري/ ١٤٠٥هـ/ مؤسسة النشر الإسلامي/ قم.
١٢٨. كنز العمال: المتقي الهندي/ ت بكري حياني/ ١٤٠٩هـ/ مؤسسة الرسالة/ بيروت.
١٢٩. مائة منقبة: ابن شاذان/ ت الأبطحي/ ط ١/ ١٤٠٧هـ/ مط أمير/ قم.
١٣٠. مثير الأحزان: ابن نما الحلي/ ١٣٦٩هـ/ المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف.
١٣١. مجلة الإصلاح الحسيني: مؤسسة وارث الأنبياء للدراسات التخصصية في الإمام الحسين (عليه السلام).
١٣٢. مجلّة الانتظار: الصادرة عن مركز الدراسات التخصصية في الإمام المهدي (عليه السلام).

١٣٣. مجمع الزوائد: الهيثمي / ١٤٠٨هـ / دار الكتب العلمية / بيروت.
١٣٤. المحاسن: البرقي / ت جلال الدين الحسيني المحدث / ١٣٧٠هـ / دار الكتب الإسلامية / طهران.
١٣٥. مختصر بصائر الدرجات: الحسن بن سليمان الحلبي / ط ١ / ١٣٧٠هـ / منشورات المطبعة الحيدرية / النجف الأشرف.
١٣٦. مدينة المعاجز: السيد هاشم البحراني / تحقيق: الشيخ عزة الله المولائي الهمداني / الطبعة: الأولى / سنة الطبع: ١٤١٣ / المطبعة: بهمن / الناشر: مؤسسة المعارف الإسلامية - قم - إيران.
١٣٧. الصحيفة السجّادية: أبطحي / ت محمد باقر الأبطحي / ط ١ / ١٤١١هـ / مطبوعة: مؤسسة الإمام المهدي، مؤسسة الأنصاريان / قم.
١٣٨. مرآة العقول: العلامة المجلسي / ط ٢ / ١٤٠٤هـ / دار الكتب الإسلامية.
١٣٩. المراجعات: السيّد شرف الدين / ت حسين الراضي / ط ٢ / ١٤٠٢هـ.
١٤٠. مروج الذهب: المسعودي / ط ٢ / ١٤٠٤هـ / منشورات دار الهجرة / قم.
١٤١. المزار: ابن المشهدي / ت جواد القيومي / ط ١ / ١٤١٩هـ / مطبوعة: مؤسسة النشر الإسلامي / نشر القيوم / قم.
١٤٢. مستدرك الوسائل: الميرزا النوري / ط ١ المحققة / ١٤٠٨هـ / مؤسسة آل البيت / بيروت.
١٤٣. مستدرك سفينة البحار: علي النمازي / ت حسن بن علي النمازي / ١٤١٨هـ / مؤسسة النشر الإسلامي / قم.
١٤٤. المستدرك: الحاكم النيسابوري / إشراف يوسف عبد الرحمن المرعشي.
١٤٥. مستدركات علم رجال الحديث: علي النمازي / ط ١ / ١٤١٢هـ / مطبوعة: مط شفق /

طهران.

١٤٦. مستطرفات السرائر: ابن إدريس الحلي / ط ٢ / ١٤١١هـ / مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين / قم.

١٤٧. مسند أبي يعلى: أبو يعلى الموصلي / ت حسين سليم أسد / دار المأمون للتراث.

١٤٨. مسند أحمد: أحمد بن حنبل / دار الصادر / بيروت.

١٤٩. مشارق أنوار اليقين: الحافظ رجب البرسي / ت علي عاشور / ط ١ / ١٤١٩هـ / مؤسسة الأعلمي / بيروت.

١٥٠. مشكاة الأنوار: علي الطبرسي / ت مهدي هوشمند / ط ١ / ١٤١٨هـ / دار الحديث.

١٥١. مصباح المتجهّد: الشيخ الطوسي / ط ١ / ١٤١١هـ / مؤسسة فقه الشيعة / بيروت.

١٥٢. المصنّف: ابن أبي شيبة / ت سعيد اللحام / ط ١ / ١٤٠٩هـ / دار الفكر / بيروت.

١٥٣. معاني الأخبار: الشيخ الصدوق / ت علي أكبر الغفاري / ١٣٧٩هـ / مؤسسة النشر الإسلامي / قم.

١٥٤. معاني الأخبار: الشيخ الصدوق / ت علي أكبر الغفاري / ١٣٧٩هـ / مؤسسة النشر الإسلامي / قم.

١٥٥. المعجم الأوسط: الطبراني / ١٤١٥هـ / دار الحرمين.

١٥٦. معجم رجال الحديث: السيّد الخوئي / ط ٥ / ١٤١٣هـ .

١٥٧. المغازي: الواقدي / ت الدكتور مارسدن جونس / ١٤٠٥هـ / نشر دانش إسلامي.

١٥٨. مفاهيم القرآن: الشيخ جعفر السبحاني: مؤسسة الإمام الصادق (ع) / إيران/

قم.

١٥٩. مقدمة فتح الباري: ابن حجر/ الطبعة: الأولى/ سنة الطبع: ١٤٠٨ - ١٩٨٨ م/
الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان/ الطبعة الأولى بالمطبعة الكبرى
الميرية ببولاق مصر المحمية سنة ١٣٠١ هجرية

١٦٠. صحيح ابن حبان: ابن حبان/ ت الأرنبوط/ ط ٢/ ١٤١٤هـ/ مؤسسة
الرسالة.

١٦١. المقنع في الغيبة: الشريف المرتضى/ ت محمد علي الحكيم/ ط ١/ ١٤١٦هـ/ مط
ستارة/ مؤسسة آل البيت/ قم.

١٦٢. صراط الحق في المعارف الإسلامية والأصول الاعتقادية: الشيخ محمد آصف
المحسني رحمته الله/ الناشر: ذوي القربى/ الطلعة الأولى/ ١٤٢٨هـ/ مطبعة: ستاره.

١٦٣. مكارم الأخلاق: الشيخ الطبرسي/ ط ٦/ ١٣٩٢هـ/ منشورات الشريف
الرضي/ قم.

١٦٤. الملاحم والفتن: ابن طاووس/ ط ١/ ١٤١٦/ مؤسسة صاحب الأمر/
أصفهان.

١٦٥. من لا يحضره الفقيه: الشيخ الصدوق/ ت علي أكبر الغفاري/ ط ٢/ مؤسسة
النشر الإسلامي/ قم.

١٦٦. منازل الآخرة: الشيخ عباس القمي/ ت ياسين الموسوي/ ط ١/ ١٤١٩هـ/
مؤسسة النشر الإسلامي/ قم.

١٦٧. مناقب آل أبي طالب: ابن شهر آشوب/ ت لجنة من أساتذة النجف/ ١٣٧٦هـ/
المكتبة الحيدرية/ النجف.

١٦٨. مناقب الإمام أمير المؤمنين: محمد بن سليمان الكوفي/ ت المحمودي/ ط ١/

- ١٤١٢هـ/ مط النهضة/ مجمع إحياء الثقافة الإسلامية/ قم.
١٦٩. مناقب علي بن أبي طالب: ابن المغازلي/ ط ١ / ١٤٢٦هـ/ مط سبحان/ انشارات سبط النبي.
١٧٠. منهاج الصالحين: للسيد السيستاني.
١٧١. منية المريد: الشهيد الثاني/ ت رضا المختاري/ ط ١ / ١٤٠٩هـ/ مكتب الإعلام الإسلامي.
١٧٢. موسوعة أحاديث أهل البيت: الشيخ هادي النجفي/ ط ١ / ١٤٢٣هـ/ دار إحياء التراث العربي/ بيروت.
١٧٣. موسوعة الإمام المهدي (ع): السيد محمد الصدر.
١٧٤. موسوعة كلمات الإمام الحسين (ع): لجنة الحديث في معهد باقر العلوم/ ط ٣ / ١٤١٦هـ/ دار المعروف.
١٧٥. نفحات القرآن: سماحة آية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي/ الطبعة الأولى ١٣٨٤ش/ ١٤٢٦هـ/ المطبعة: سليمانزاده/ الناشر: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب (ع)/ إيران/ قم/ شهدا/ فرع ٢٢.
١٧٦. نفحات الولاية: آية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي/ الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ/ ق/ المطبعة: سليمانزاده/ الناشر: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب (ع)/ إيران/ قم/ شهدا/ فرع ٢٢.
١٧٧. نهج البلاغة: الشريف الرضي/ ضبط نصّه الدكتور صبحي صالح/ ط ١ / ١٣٨٧هـ/ بيروت.
١٧٨. الهداية الكبرى: الخصبي/ ط ٤ / ١٤١١هـ/ مؤسسة البلاغ/ بيروت.
١٧٩. الهدى والضلال في القرآن الكريم: الشيخ حسين عبد الرضا الأسدي/ تقديم:

- معهد تراث الأنبياء للدراسات الحوزوية الإلكترونية / الطبعة الأولى: ١٤٣٨ هـ.
١٨٠. وفيات الأعيان: ابن خلكان / ت إحسان عباس / دار الثقافة / بيروت.
١٨١. ينابيع المودة: القندوزي / ت علي جمال أشرف الحسيني / ط ١ / ١٤١٦ هـ / دار الأسوة.

المحتويات

٥	عقيدتنا في التقية
٧	النقطة الأولى: معنى التقية.
٨	النقطة الثانية: التقية الاصطلاحية:
٨	الخطوة الأولى: أدلة التقية.
٨	الدليل الأول: الكتاب.
١٠	الدليل الثاني: الروايات الشريفة:
١١	الدليل الثالث: الإجماع
١١	الدليل الرابع: العقل.
١١	الخطوة الثانية: نماذج للتقية من التاريخ:
١٢	النقطة الثالثة: هل التقية نفاق ودجل؟
١٣	الفرق بين التقية والنفاق:
١٣	النقطة الرابعة: مستثنيات التقية:
١٣	المورد الأول: لا تقية في الدم.
١٤	المورد الثاني: لا تقية فيما يوجب فساد الدين.
١٤	النقطة الخامسة: التقوى.
١٤	الأولى: فعل الواجبات وترك المحرمات.
١٥	الثانية: فعل المستحبات وترك المكروهات.
١٥	الثالثة: تقوى الفكر.
١٦	إشارتان:
١٦	الإشارة الأولى: آثار الذنوب.

- ١٦ /١ فساد القلب
- ١٧ /٢ زوال النعمة
- ١٨ /٣ حلول النعمة.
- ١٩ /٤ آثار تكوينية.
- ٢٠ آثار خاصة لبعض الذنوب:
- ٢١ الإشارة الثانية: طرقٌ مختصرةٌ إلى التقوى.
- ٢٢ أ/ اهرب من الفتوى:
- ٢٢ ب/ ابتعد عن الشبهات:
- ٢٣ ج/ لا تُثر في نفسك الشهوات المحرمة، ويدخل ضمن هذا المعنى:
- ٢٣ - لا تمش خلف امرأة وتُنظر لمحاسنها:
- ٢٣ - لا تنفرد بامرأة:
- ٢٣ - لا تنظر إلى امرأة نظرة محرمة:
- ٢٤ /٤ لا تهتك ستر مؤمن:
- ٢٤ /٥ لا تتعرب بعد الهجرة.
- ٢٥ /٦ لا تعد بها لا تستطيع فعله.
- ٢٥ /٧ لا تطمع بها عند الناس.
- ٢٥ /٨ لا تكذب.
- ٢٥ /٩ لا تغضب.
- ٢٦ /١٠ تواضع.
- ٢٧ /١١ أخلص العمل.
- ٢٧ /١٢ احبس جوارحك.

٢٧	١٣ / لا تستمع الغناء.
٢٨	١٤ / اصبر.
٢٨	١٥ / اقرأ عن المتقين.
٢٨	النقطة السادسة: كيف حمى أهل البيت عليهم السلام شيعتهم وأتباعهم؟
٢٨	١ / التقية.
٢٩	٢ / العمل داخل البلاط الحاكم.
٣١	٣ / ذمُّ بعض شيعتهم.
٣٣	٤ / عدم إدخال الشيعة في حربٍ خاسرة.
٣٤	٥ / أمرهم عليهم السلام شيعتهم بالعمل المخفي.
٣٥	التقية المداراتية:
٣٧	الفصل الرابع: ما أذب به أهل البيت عليهم السلام شيعتهم
٣٨	النقطة الأولى: ما هو ربط هذه الآداب بأصول الدين؟
٣٨	الوجه الأول:
٣٩	الوجه الثاني:
٣٩	النقطة الثانية: لماذا فتح أهل البيت عليهم السلام باب هذه الآداب لشيعتهم؟
٤٣	عقيدتنا في الدعاء
٤٨	الخطوة الأولى: الدعاء سبب معنوي.
٤٩	الخطوة الثانية: الدعاء مفتاح الإجابة.
٥١	الخطوة الثالثة: آداب الدعاء.
٥٧	هل الدعاء الجماعي بدعة؟
٥٧	الرد الأول: مناقشة استنادهم إلى عدم فعل النبي صلى الله عليه وآله

- ٥٧ الرد الثاني: مناقشة استنادهم إلى حجية عدم فعل الصحابة.
- ٥٨ الرد الثالث: الأصل في الأعمال الإباحة.
- ٥٨ الرد الرابع: أعمال جماعية مشروعة.
- ٥٨ الرد الخامس: الدعاء الجماعي ثابت بالسنة المطهرة.
- ٦١ أدعية الصحيفة السجادية
- ٦٤ النقطة الأولى: الدعاء في منظومة وعقيدة أهل البيت عليهم السلام.
- ٦٥ ١/ الجبر:
- ٦٥ ٢/ التفويض:
- ٦٦ ٣/ الأمرين أمرين:
- ٦٧ النقطة الثانية: الأدوار البارزة في حياة الإمام...
- ٦٨ الأولى: ظاهرة البكاء.
- ٦٨ الثانية: الإعتاق.
- ٧٠ الثالثة: الإنفاق.
- ٧١ الرابعة: الدعاء.
- ٧١ أولاً: فلسفة الإعتاق:
- ٧٤ ثانياً: فلسفة الإنفاق:
- ٧٤ ثالثاً: فلسفة البكاء:
- ٧٤ رابعاً: فلسفة الدعاء:
- ٧٩ إشارة: تراث الإمام السجاد عليه السلام.
- ٨١ عقيدتنا في زيارة القبور
- ٨٥ الأولى: الآراء في زيارة القبور.

- ٨٦ الثانية: مشروعية زيارة القبور.
- ٨٨ شواهد على مشروعية زيارة القبور:
- ٩١ النقطة الثالثة: الأهداف من زيارة القبور، وما يترتب على زيارة قبور...
عقيدتنا في معنى التشيع عند آل البيت عليهم السلام
- ٩٥ النقطة الأولى: معنى التشيع لغةً واصطلاحاً.
- ٩٨ النقطة الثانية: الآراء في نشأة الشيعة:
- ١٠١ الأول: آية التبليغ:
- ١٠٢ الثاني: الأحاديث الكثيرة:
- ١٠٣ النقطة الثالثة: المراحل التي مر بها التشيع، أو السير التاريخي للتشيع.
- ١٠٣ المرحلة الأولى: في زمن النبي الأكرم ﷺ.
- ١٠٤ المرحلة الثانية: في زمن الخلفاء.
- ١٠٤ المرحلة الثالثة: زمن الخلافة الظاهرية لأمر المؤمنين (ع).
- ١٠٥ المرحلة الرابعة: في زمن الإمام الحسن (ع).
- ١٠٥ المرحلة الخامسة: في زمن الإمام الحسين (ع).
- ١٠٦ المرحلة السادسة: في إمامة الإمام السجاد (ع).
- ١٠٧ المرحلة السابعة: في إمامة الإمامين الباقرين (ع).
- ١٠٩ المرحلة الثامنة: في حياة الإمام الكاظم (ع).
- ١١٢ النقطة الرابعة: منزلة ولاية أهل البيت (ع) في الإسلام.
- ١١٦ النقطة الخامسة: مقتضيات الولاية
- ١١٧ الأول: جهم (ع).
- ١١٧ الثاني: الورع.

- ١١٩ الثالث: الدعوة إلى الحق.
- ١١٩ الرابع: التزام مكارم الأخلاق.
- ١١٩ الخامس: التكافل الاجتماعي.
- ١١٩ الأولى: التكافل الاجتماعي على نحو الوجوب.
- ١٢٠ الثانية: التكافل الاجتماعي المستحب.
- ١٢٣ **عقيدتنا في الجور والظلم**
- ١٢٩ التوجيه الأول:
- ١٢٩ التوجيه الثاني:
- ١٣٠ التوجيه الثالث:
- ١٣٠ التوجيه الرابع:
- ١٣٠ التوجيه الخامس:
- ١٣١ التوجيه السادس:
- ١٣١ التوجيه السابع:
- ١٣٣ **عقيدتنا في التعاون مع الظالمين**
- ١٣٦ النقطة الأولى: ضرورة الحاكم.
- ١٣٦ النقطة الثانية: حدود التعامل مع الحاكم الظالم.
- ١٣٦ ١. لا يجوز الركون إلى الظالم والرضا بأفعاله.
- ١٣٧ ٢. عدم التحاكم إليه مع وجود الحاكم العادل.
- ١٣٨ ٣. عدم محبة دوام الظالم ولو على حساب المصلحة الشخصية.
- ١٣٩ ٤. عدم تشويه صورة المذهب أو التنازل عن الثوابت من قبل...
- ١٤٠ ٥. القيام بوجه الظالم متى ما سنحت الفرصة.

- ١٤٢ ٦. عدم إعاقته في ظلمه ولو ببيع إبرة له!
- ١٤٣ عقيدتنا في الوظيفة في الدولة الظالمة.
- ١٤٤ ٦. عدم أعاقته في ظلمه ولو ببيع إبرة.
- ١٤٧ عقيدتنا في الدعوة إلى الوحدة الإسلامية
- ١٥٠ النقطة الأولى: تأكيد القرآن الكريم على الوحدة بين الديانات.
- ١٥١ النقطة الثانية: الاشتراك بين الأديان لا يعني عدم التمايز بينها.
- ١٥١ النقطة الثالثة: التمايز والاختلاف هو ما يحفظ كيان المذهب.
- ١٥٢ النقطة الرابعة: ضرورة عدم التنازل عن الثوابت ...
- ١٥٢ النقطة الخامسة: رعاية الأولويات.
- ١٥٧ عقيدتنا في حق المسلم على المسلم
- ١٦٥ الفصل الخامس عقيدتنا في البعث والمعاد
- ١٦٦ المطلب الأول: إثبات الوجود المجرد (إثبات وجود الروح).
- ١٦٧ المدرسة الأولى: المدرسة المادية:
- ١٦٨ المدرسة الثانية: المدرسة الواقعية:
- ١٦٨ الأول: الوجود المادي
- ١٦٨ الثاني: الوجود المثالي
- ١٦٩ الثالث: الوجود المجرد:
- ١٦٩ ١/ واجب الوجود:
- ١٦٩ ٢/ ممكن الوجود:
- ١٦٩ الدليل الأول: الأنا.
- ١٧٠ الدليل الثاني: التقاط الصور:

- ١٧٢ الدليل الثالث: تذكر وتخيّل الصور:
- ١٧٣ المطلب الثاني: إمكان المعاد في حد نفسه.
- ١٧٦ المطلب الثالث: هل إنَّ المعاد ضروري؟
- ١٧٧ النقطة الأولى: ضرورة بلوغ الهدف من...
- ١٧٨ الثانية: ضرورة إثابة المطيعين وتعذيب العصيين.
- ١٧٩ الثالثة: ضرورة إنصاف المظلومين من الظالمين.
- ١٨٠ المطلب الرابع: هل المعاد جسماني أو روحاني فقط؟
- ١٨٣ ١/ تبدل الجلود:
- ١٨٣ ٢/ شهادة الجوارح:
- ١٨٤ ٣/ اللذائذ المادية:
- ١٨٤ إشكالان حول المعاد جسماني.
- ١٨٤ الإشكال الأول: إعادة المعدوم.
- ١٨٥ الإشكال الثاني: شبهة الأكل والمأكول:
- ١٨٦ الجواب الأول:
- ١٨٦ الجواب الثاني:
- ١٨٨ الجواب الثالث:
- ١٨٩ المطلب الخامس: المعاد وتربية الإنسان
- ١٩١ المطلب السادس: ما هو المقدار الواجب من الإيمان بالمعاد؟
- ١٩٥ مُلحق: عوالم الإنسان.
- ١٩٥ العالم الأول: عالم الذر
- ١٩٦ النقطة الأولى: المعنى العام للآية:

١٩٦	النقطة الثانية: المعاني التربوية للآية.
١٩٧	النقطة الثالثة: معنى عالم الذر:
١٩٧	الرأي الأول:
٢٠٢	الرأي الثاني:
٢٠٤	الرأي الثالث:
٢٠٦	والخلاصة:
٢٠٩	العالم الثاني: عالم الأصلاب
٢٠٩	فائدة تربوية:
٢١١	الصفات الوراثية في النطفة:
٢١٥	العالم الثالث: عالم الأرحام
٢١٦	المرحلة الأولى: مرحلة العلقة:
٢١٦	المرحلة الثانية: المضغة:
٢١٦	المرحلة الثالثة: مرحلة العظام:
٢١٦	المرحلة الرابعة: مرحلة تغطية العظام باللحم:
٢١٧	المرحلة الخامسة: مرحلة بث الروح:
٢١٩	العالم الرابع: عالم الدنيا
٢٢٣	الجواب:
٢٢٤	الأول: آلات العلوم الظاهرية والتجريبية:
٢٢٤	الثاني: آلة العلم الباطني:
٢٢٧	العالم الخامس: عالم البرزخ
٢٢٧	المحور الأول: الاحتضار.

- ٢٢٧ النقطة الأولى: سبب التسمية.
- ٢٢٧ السبب الأول:
- ٢٣٠ السبب الثاني:
- ٢٣٢ السبب الثالث:
- ٢٣٣ السبب الرابع:
- ٢٣٤ النقطة الثانية: الأمور التي يفعلها المحتضر؟
- ٢٣٤ أولاً: التوبة.
- ٢٣٤ ثانياً: أداء حقوق الناس الواجبة.
- ٢٣٤ ثالثاً: الوصية بالأمور العبادية.
- ٢٣٤ الرابع: يُستحب للمريض أن يحمّد الله ﷻ ويشكره...
- ٢٣٤ الخامس: يستحب له كتمان المرض وترك الشكاية.
- ٢٣٥ النقطة الثالثة: الأمور التي يفعلها من يحضر عند المحتضر.
- ٢٣٧ المحور الثاني: الموت
- ٢٣٨ السؤال الأول: ما حقيقة الموت؟
- ٢٣٩ السؤال الثاني: لماذا نكره الموت؟
- ٢٣٩ الأول: الجهل بحقيقة الموت.
- ٢٤٠ الثاني: الخوف من الموت
- ٢٤٢ السؤال الثالث: ما أنواع التوفي؟
- ٢٤٤ الأول: توفي النفوس حال النوم.
- ٢٤٤ الثاني: توفي النفوس في الموت.
- ٢٤٥ السؤال الرابع: ما هي أنواع الموت؟

- ٢٤٥ النوع الأول: موت البدن وموت القلب.
- ٢٤٨ من أسباب موت القلب:
- ٢٥٠ النوع الثاني: موت الفرد وموت المجتمع.
- ٢٥١ المحور الثالث: البرزخ
- ٢٥١ الأولى: البرزخ في اللغة:
- ٢٥١ الثانية: البرزخ غير معلوم الفترة الزمنية:
- ٢٥٢ الثالثة: من عالم البرزخ تحصل الرجعة:
- ٢٥٢ الرابعة: لماذا يطلب بعض الناس أن يرجعوا إلى الدنيا؟
- ٢٥٤ الخامسة: البرزخ عالم تكامل.
- ٢٥٥ استطراد: منافذ تكامل الإنسان.
- ٢٥٦ السادسة: هل بإمكان الميت أن يزور أهله ويطلع عليهم؟
- ٢٥٩ السابعة: معنى سؤال منكر ونكير.
- ٢٦٣ العالم السادس: عالم القيامة (المعاد أو اليوم الآخر)
- ٢٦٣ النقطة الأولى: أسماء يوم القيامة.
- ٢٦٣ الاسم الأول: يوم القيامة.
- ٢٦٤ الاسم الثاني: يوم الصاخة:
- ٢٦٧ الاسم الثالث: يوم الفصل:
- ٢٦٩ ملاحظة:
- ٢٦٩ النقطة الثانية: الحساب.
- ٢٦٩ أولاً: مسائل حسابها دقيق.
- ٢٧١ ثانياً: ما لا يُحاسب عليه الإنسان:

- ٢٧٣ ثالثاً: مما يُهَوَّن الحساب.
- ٢٧٣ ١/ صلة الرحم:
- ٢٧٤ ٢/ القناعة:
- ٢٧٤ ٣/ التخفيف من التعلق بالدنيا:
- ٢٧٤ ٤/ حسن الخلق:
- ٢٧٥ رابعاً: معنى: سوء الحساب.
- ٢٧٦ خامساً: نتيجة الحساب
- ٢٧٦ القسم الأول: أصحاب الجنة:
- ٢٧٦ النقطة الأولى: شروط دخول الجنة.
- ٢٧٦ الأول: قوله ﷺ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ...﴾
- ٢٨٠ الثاني: ولاية أهل البيت ﷺ حسب حديث السلسلة الذهبية.
- ٢٨١ الخطوة الأولى: إنَّ التوحيد يقود إلى الجنة.
- ٢٨١ الخطوة الثانية: لهذا التوحيد شرط قبول، وهو الإخلاص.
- ٢٨١ الخطوة الثالثة: كيف يتحقق الإخلاص بالتوحيد؟
- ٢٨٣ النقطة الثانية: موانع دخول الجنة.
- ٢٨٣ ١/ الكبير.
- ٢٨٤ ٢/ القول الفاحش وقلة الحياء.
- ٢٨٤ ٣/ الديانة.
- ٢٨٤ ٤/ عقوق الوالدين.
- ٢٨٥ ٥/ النميمة.
- ٢٨٥ ٦/ الجور.

٢٨٥	٧/ الجحود بولاية أهل البيت عليهم السلام .
٢٨٦	٨/ الصلاة البتراء.
٢٨٦	٩/ الشرك وإدمان الخمر.
٢٨٦	١٠/ الرد على الله ﷻ أو الإمام وحبس حق المؤمن.
٢٨٦	النقطة الثالثة: الجنة درجات.
٢٨٨	١/ المعرفة.
٢٨٨	٢/ العمل.
٢٨٨	٣/ الدعاء والطلب من الله ﷻ .
٢٩٠	القسم الثاني: أصحاب النار.
٢٩١	النقطة الأولى: الأسباب التي تؤدي إلى دخول جهنم.
٢٩٥	النقطة الثانية: موانع دخول جهنم.
٣٠١	النقطة الثالثة: صفات ودرجات جهنم.
٣٠٢	بحث: أبواب الجنة والنار.
٣٠٣	الاحتمال الأول: الباب الحقيقي.
٣٠٥	الاحتمال الثاني: أن الباب بمعنى المرتبة والدرجة.
٣٠٥	الاحتمال الثالث: أن الباب بمعنى السبب.
٣٠٧	الاحتمال الرابع: الأبواب كناية عن الطرق الموصلة.
٣٠٨	إشارات:
٣١٣	المصادر